



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة د. مولاي الطاهر - سعيدة -

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم: اللغة العربية وأدائها

مذكرة التخرج لنيل شهادة ماستر في الأدب العربي

التخصص: نقد عربي قديم

نظرية النظم وأفاقها في الدراسات الحديثة

مقارنة بين عبد القاهر الجرجاني ونعوم تشومسكي

ياشرف الدكتورة:

* حميدات مسك جوب

إعداد الطالبة :

معايز ضحي

أعضاء لجنة المناقشة:

رئيساً

مشرفاً

عضواً مناقشاً

الأستاذ: بن يمينة بن يمينة

الأستاذ: حميدات مسك جوب

الأستاذ: بلحيارة خضرة

الموسم الجامعي: 2017- 2018

دُعَاء

قال الله تعالى: "ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين".

سورة النمل الآية "19".

شُكْرٌ وَعِرْفَانٌ

الحمد لله رب العالمين، الذي أكرمنا بسنة خير الأنام، وخير الأمة محمد صلى الله

عليه وسلم.

أتقدم أولاً بشكر الخاص المرفق بكل عبارات الاحترام والتقدير للأستاذة

المشرفة: "حميدات مسك جوب. التي كانت بمثابة الكتاب المفتوح، وجهتني عند الخطأ

وشجعتني عند الصواب جزاها الله كل الخير.

كما أتقدم بالشكر إلى من ساعدني في إنجاز هذا البحث المتواضع الأستاذ "هاشمي".

وفي الأخير أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من أفادني وساعدني ولو بكلمة طيبة في هذا

العمل.

إِهْدَاء

بسم الله عظيم الأنوار الذي جعل من علمه مفاتيح لكل الأبواب وشعلة أنار بها
الوالدين دروب الأبناء، وأنا بنت من هؤلاء الأبناء تربيت على الخلق والفضيلة، وصلت إلى
مبتغيا فضل من قال فيهما الرحمان: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا"
وأنا بدوري أهدي ثمرة عملي هذا إلى:

من كانت عوننا لي في هذه الدنيا، من نورت دربي و أفنت حياتها من أجلي.....إلى
من كانت سر وجودي وغمرتي بعطفها وحنانها.....حبيبة قلبي أُمي "غنية".
كما أهدي إلى أعز الناس و أغلى الألباسإلى تاج رأسي....إلى الستار الذي يحمينا
من الأشرار.....إلى من كابد مشاققة الحياة وتحمل الصعوبات من أجل إيصالنا إلى
أعلى الدرجات ، أبتي "الشيخ".

إلى شقاقي المنعمان "نور الدين ومعمر"، وإلى من وجدتها حاضرة إلى جانبي
.....إلى من تحملت معي مشاققة هذا العمر، صاحبة القلب الطيب أختي "جميلة".
إلى زوجة أخي نور الدين وابنه:عبد الصمد. وإلى رفيقة دربي، وتؤم روحي "سكينة".

وإلى الأخوات اللواتي عرفت معهم معنى الصداقة: فاطمة، عفاف، عائشة، إكرام، إكرام،

حنان، فاطمة، سميرة، خلود، زينب، حولة.

و إلى الأخوان اللذان لم تلدهم أمي: فريد، وعبد القادر.

مقدمة

عرف النّقد العربي القديم حركة نقدية واسعة، تضافرت حول أهم القضايا التي نالت الكثير من الاهتمام، من بينها وأهمها مصطلح "النّظم"، الذي كان وليد جهود العديد من العلماء عبر العصور وبشكل خاص ما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين، والنّظم مصطلح نقدي استعمله النّقاد القدامى بمفاهيم مختلفة فتارة السّبك، وأخرى التلاحم، حيث أصبح النّظم معياراً من معايير النّقد . وقد حاولت الدراسات المختلفة في مجال الفكر اللغوي الوصول إلى رأي في كُنْه البيان القرآني وإلى سرّ البديع في نظمه ودقة وصفه.

ومن أبرز القضايا التي تناولها اللغويون والنّحاة، والنّقاد والمتفلسفة من سلفينا الصالح، قضيتا اللفظ والمعنى، فبقيتا شغلهم الشاغل في معظم أبحاثهم التي لم تكتمل إلا في القرن الخامس الهجري على يد عبد القاهر الجرجاني.

فإنّ ما جاء به الجّاحظ من ضرورة تحقيق تطابق اللفظ والمعنى، كان ممهداً لمن جاء بعده من النّقاد اللاحقين فقد جمع عبد القاهر الجرجاني شتان تلك الآراء، ووجد بينها في إطار مُنظّم ثم وضع الخطوط ورسم الحدود، وجعل التقسيمات وأبرز المعالم، ثم أرجعها إلى أسس علمية في نظم الكلام فجاء منهجه اللغوي فيها واضحاً .

لذلك لم تكن نظرية النّظم التي وضعها عبد القاهر الجرجاني وليد اللحظة والصدفة، بل كانت نتيجة جهود فكرية متواصلة، شارك فيها الباحثون في مجال الفكر والمعرفة منذ عصر الجّاحظ أو قبل ذلك بكثير .

إنَّ نظرية النَّظْم التي وصلتنا في طورها الناضج مع عبد القاهر الجرجاني، تمثل محاولة عميقة عرفها التراث النَّقدي العربي، انطلاقاً من وعي دقيق باللغة واستغلال ثنائية اللغة والكلام، ومستوياته وكذلك الفهم المتطور للصورة الشعرية المنزلة ضمن شمولية النَّظْم، وذلك كله رغم المآخذ التي أخذت عليها من انحسارها في بنية العبارة الواحدة، وإغفالها مستوى البنية الصوتية، ومع ذلك يبقى للنظرية الفضل في تأسيس طريقة جديدة في قراءة النص الأدبي.

وبرغبة جاححة روضتني نفسي، للوقوف على نظرية النَّظْم وتطوراتها عبر المسار الزمني وذلك:

1/ للتعرف على مصطلح النَّظْم عند النَّقاد القدامى .

2/ التعرف على الانجازات والجهود التي حققتها الإمام عبد القاهر الجرجاني لبيان الإعجاز القرآني.

3/ آفاق نظرية النَّظْم عند الغرب والعرب المحدثين .

4/ معرفة قيمة نظرية النَّظْم ومساهمتها في بيان إعجاز النص القرآني.

ولقد وجدت المنهج الوصفي التحليلي مطابقاً على هذا البحث من خلال التعرف على مفهوم النَّظْم وإطاره المرجعي في الحقول المعرفية المتعددة، وآفاقها في الدراسات الحديثة.

وقد تطرقت أيضاً لخطة بحث شملت البحث فهي موزعة على ثلاثة فصول، يندرج كل فصل

في ثلاثة مباحث، تتصدرها مقدمة، ومدخل وتعقبها خاتمة وقائمة المصادر والمراجع.

فالفصل الأول: تناولت فيه مفهوم النَّظْم لغة، وعند النَّقاد القدامى وكذا الإطار المرجعي لنظرية

النَّظْم في الحقول المعرفية.

والفصل الثاني: فكان خاصا بجهود عبد القاهر الجرجاني ومنهجه في تحليل النصوص، وأسس نظرية النظم وأركانها.

وأما الفصل الثالث: فتضمن النظرية السياقية وتمثلاتها في كتابات عبد القاهر الجرجاني وأثر نظرية النظم في فكر المحدثين، ومقارنة بين عبد القاهر الجرجاني ونعوم تشو مسكي.

ثم وضعت خاتمة للبحث، فيها جملة الاستنتاجات حول دراستي وإطلاعي لعدة مصادر ومراجع.

و أثناء عملية جمع المادة نظرية النظم وآفاقها في الدراسات الحديثة، واجهت صعوبات منها:

صعوبة إيجاد كتب الأدباء الذين استمدوا إنجازاتهم وأعمالهم من نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني.

وأخيرا قائمة المصادر والمراجع.

مدخل

إنَّ الحديث عن الأصول المعرفية التاريخية لنظرية النَّظْم، يستدعي استعراض معظم الانجازات اللغوية أو ذات الطابع اللغوي التي أسهمت بشكل أو بآخر، في نضج مفاهيم هذه النظرية خلال القرن الخامس الهجري على يد عبد القاهر الجرجاني، ذلك أنَّ نظرية النَّظْم في صورتها الكاملة والناضجة هي خلاصة تراكم انجازات لغوية، وبلاغية، ونقدية، عميقة دارت في حقول معرفية متعددة لها صلة بمحفل الدرس الإعجازي .

هكذا وقد شكلت روافد البحث اللغوي من خلال نَهْرًا عظيمًا، انصهرت فيه كل المعارف اللغوية لتشكل رؤية واضحة عن طبيعة اللغة العربية في بناء مفرداتها وتركيب أساليبها، وإنشاء أغراضها و معانيها .

هذه الرؤية هي التي قادت عبد القاهر الجرجاني لبلورة نظرية النَّظْم، انطلاقًا من استثمار كل الانجازات السابقة، ولذلك كان من الأجدر قبل الوصول إلى هذه النظرية الناضجة عند الجرجاني، تتبع كل المرجعيات التي أسهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في صياغة مفهومها عند الجرجاني في القرن الخامس الهجري .

والحقيقة أنَّ هذه المرجعيات التي تبلورت على إثرها نظرية النَّظْم على ضربين :

ضرب منها يتصل بالمفهوم العام للنَّظْم من حيث هو مدلول مرتبط بكل أصناف الانتظام والاتساق، و الانسجام في الموجودات المختلفة.¹

¹الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د ت، د ط، ص 8.

وضرب آخر هو من صميم طبيعة اللغة العربية في بنائها وتركيبها، وهذا الضرب الأخير هو مناط الاهتمام الذي استوقف اللغويين و البلاغيين و النقاد دارسي الإعجاز، وانتهى ما انتهى إليه من إثبات قيام قضية الإعجاز في النص القرآني على النظم و التأليف في النص الشعري، على نحو ما وضع الباقلائي في كتابه "إعجاز القرآن"¹.

انطلاقاً من أنّ النصّ القرآني قد نزل بلسان عربي مبين، فتوسع درس اللغة العربية بذلك ليشمل كل ضروب الاستعمال اللغوي شعراً ونثراً.

وقبل الخوض في التأسيس لمفهوم النظم، من خلال هذا الضرب الثاني لا بد من وقفة متأنية عند ما له علاقة بالضرب الأول، باعتبار هذا الأخير مفاهيم ضمنية ذات دلالات لغوية لها صلة قوية لها بمرجعيات في حقول المعرفة التي ولدت من رحمها النظم للجرجاني.

هذا وقد جاءت هذه المفاهيم الضمنية المرتبطة بالدلالات العامة للنظم في صور إشارات قريبة أو بعيدة أفضلها على النحو التالي:

من الإشارات البعيدة ما نراه من حديث أرسطو في كتابه "فن الشعر"²، عند ذكره لأقسام الكلمة و الفروق بين أقسامها، والمقاطع والحروف والأصوات، والتي رآها جميعاً ضرورية في البلاغة، كما يتحدث في كتابه "الخطابة"³ عن مراعاة الروابط بين الجمل، وعن الأسلوب وحذف أدوات الوصل و التكرار.

¹ الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د ت، د ط، ص 86.

² فيصل الأحمر ونبيل دودة، الموسوعة الأدبية، ج 2، دار المعرفة، الجزائر، د ط، د ت، ص: 56.

³ فيصل أحمر، ونبيل دودة، موسوعة أدبية، ج 2، دار المعرفة، الجزائر، د ط، د ت، ص: 59

وهكذا جميعه يدل على أنّ أرسطو اتخذ هذه الموضوعات أساسا لدراسة الأساليب، والكشف عن الفروق البلاغية الناتجة عنها.

هذا وقد أشار بعض الباحثين إلى أنّ الهنود قد اهتموا بمفهوم النّظم، ولم يبق ما يدل على ذلك من إشارات سوى ما ذكره الجّاحظ عن الصحيفة الهندية، وما جاء فيها من أصول تتصل بأسلوب و الخطب وصفاته، وما ذكره البيروني في تاريخ الهند من محاولات بلاغية عند الهنود، تتصل بقضية الإعجاز في كتابهم المقدس.

ولعل الإشارات القريبة إلى مفهوم النّظم، هو ما ذكره ابن المقفع عن صياغة الكلام من خلال كتاب الأدب الصغير، حيث يقول:

إنّ ابن المقفع من خلال هذا النّص يقابل بين صياغة الكلام وسائر الصناعات الأخرى، ويدلنا على أنّ الصانع الماهر هو الذي يصنع مصنوعاته على أحسن وجه، عندما يضع أجزاءها في مواضعها المناسبة¹، ولكنّه في الوقت ذاته يستخف بهذه الصنعة، لأنّها في نظرة لا تحتاج إلى جهد كثير و إعمال عقل حصيف.

وقد بدأت فكرة النّظم منذ أنّ أخذ المعتزلة يبحثون في إعجاز القرآن الكريم، فقد ذهب بعضهم إلى القرآن معجزا بنظّمه، حيث تحدث الجّاحظ عنه وسمى أحد كتبه "نظم القرآن"، على اعتبار أنّ كتاب الله المعجز بنظّمه البديع، والذي لا يقدر على مثله العباد، فيذكر في غير ما وضع من كتبه ما يشير إلى مدلول النّظم، المعنى القريب الذي يفيد المصطلح عند عبد القاهر في

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، مكتبة لخفاجي، القاهرة، د ط ، د ت ، ص: 12.

كتاب "البيان والتبيين": أجود الشعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أُفْرغ
إفراغًا وسُبك سبكًا واحدًا، فهو يجري على اللسان كما يجري على الرَّهَانِ.¹

وهذا وقد أَلَفَ الجَّاحِظُ كتاب لم يصل إلينا سماه "نظم القرآن"، وقد أشار إليه في
كتبه، حيث قال: "كما عبت في كتابي في الاحتياج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه".²
وقال في موضع آخر يشير إلى هذا الكتاب: "فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي وبلغت
منه أقصى ما يمكن لمثلي في الاحتياج للقرآن، والرد على كل الطغاة (...). فلما ظننت أنني قد
بلغت أقصى محبتك وأتيتك على معنى صفاتك، أتاني كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتياج لنظم
القرآن، وإنما أردت الاحتياج لغلق القرآن".³

وتطورت الفكرة عند أبي سعيد السيرافي الذي قال: "معاني النحو منقسمة بين حركات
اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في موضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير
وتوخي الصواب في ذلك، وتجنب الخطأ في ذلك، وإن زاغ شيء عن النعت فإنه لا يخلو أن يكون
سائقا بالاستعمال النادر، والتأويل البعيد أو مردودا بخروجه عن قادة القوم الجارية على فطرتهم".⁴
وأطال علماء الإعجاز في هذه المسألة، فتحدث الباقلائي عن النظم في النص القرآني بأنه
ليس له مثال يحتدى عليه، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوعه مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت
النادر والكلمة الشاردة، والمعنى الفذ الغريب والشيء القليل العجيب.

¹ الجاحظ البيان والتبيين، مكتبة الخفاجي، القاهرة، د ط، د ت، ص: 68.

² الجاحظ، الحيوان، ج4، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعرفة، القاهرة، سنة 1384هـ، 1965م، ص: 8.

³ الجاحظ، حجج النبوة ورسائل الجاحظ، تحقيق: إسلام عبد الرؤوف، ط1، ص148.

⁴ المرجع السابق، ص: 85.

كما نجد كذلك القاضي عبد الجبار أكثر وضوحا حينما رأى أن الفصاحة و البلاغة تقومان على ضمّ الكلمات وتقاربهما.

ليأتي بعد ذلك عبد القاهر الجرجاني، ويعطي للنّظم تعريفا على أساس دلالة الأولى، والتي يقصد بها التّأليف والبناء والتّركيب، حيث يقول: "معلوم أنّ ليس النّظم سوى تعليق الكلم بعضها البعض وجعل بعضها بسبب من البعض"..... وذلك "بأنّ تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النّظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء، وكيف جاء وافق، ولذلك كان عندهم نظيرا لنسيج والتأليف والصناعة والبناء والوشي والتعبير، وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح".¹

والمعروف أنّ عبد القاهر الجرجاني لم تكن العلوم البلاغية قد تمايزت، بل كانت المسائل مختلطة، وأدنى نظره في أي مرجع سابق عليه تخرج بهذا الحكم، وكانت الكلمات مثل الفصاحة والبلاغة، تستخدم للدلالة عن امتياز الكلام في التعبير والتأثير .

أمّا بعد عبد القاهر الجرجاني فقد صارت الفصاحة مما توصف به الكلمة المفردة والكلام المتكلم، وصارت البلاغة مما يوصف به الكلام المتكلم، فحسب لأنّه بلوغ الهدف من الكلام لتأثيره في نفس سامعة أو قارئه .

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، سنة 1413هـ، 1992م، ص: 112.

لا يمكن أن يكون بكلمة ، وإنما يكون بكلمة ، وإنما يكون بالجملة التي تفهم معنى كاملاً، ولقد كان حديث الجرجاني عن النَّظْم وتفصيله لأصوله ودراسة كثيرة من الأمثلة والشواهد التي تفرز حديثه عن النَّظْم، ذا أثر بالغ في وضع علم جديد عرف من بعده "علم المعاني"، و ربما يكون كلامه من تفسيره النَّظْم بتوحي معاني النَّحو هو الذي أوحى بهذه التسمية.

والمتتبع لمسيرة النَّقد العربي، يرى أنَّ المسائل التي أثارها عبد الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" حول النَّظْم لم تدرس قبله، ولم تعالج بالطريقة التي قام بها حقاً، إنَّه استفاد أصول النَّحو التي تناولها علماءؤه، ولكن شتان بين دراسة النَّحو لمعرفة الصواب من الخطأ في الأساليب، وبين ربطه بتصوير الجمال الأدبي الذي يقصد إليه الأديب ويشغل هذه الأصول من أجل إحداث صورة أدبية موحية.

وإذا كانت نظرية النَّظْم قد أفادت البلاغة في تكوين علم جديد وهو علم المعاني ، فإننا نجد ناقداً جديداً مثل ابن الأثير : "يفيد أكبر الإفادة في كلام عبد القاهر ، وينشر آراءه في كتابه : "المثل السائر".

ويرجع إليه في أكثر من موضعه، وإنَّ يهمل الإشارة إليه أنه أحياناً ينقل نصوصاً من كلامه كما هي ينسبها إلى نفسه، ومقالته في الصناعة المعنوية من أبين الشواهد على إنَّ تقول وهذا معناه أنَّ ناقداً كبيراً مثل ابن الأثير لم يجدد من الانتفاع بآراء عبد القاهر في النَّظْم لكي يتخذها بياناً لمعرفة صناعة النَّظْم والنثر"¹.

¹ فيصل الأحمر ونبيل دودة، الموسوعة الأدبية، ج2، دار المعرفة، الجزائر، د ت ، د ط، ص: 89.

ولقد كان من أثر نظرية النّظم إن لفت نظر الإمام الزمخشري، فطبق تطبيقا وافيا في تفسيره "الكشاف"، حتى اعتبر أوّل تفسير بياني قائم على إدراك العلاقات بين الكلمات وعلى إدراك روعة الإعجاز في المفردات والجمل، ومن أجل ذلك كانت نظرات الزمخشري عبارة عن صورة تفسيرية تحليلية تطبيقية لنظرية عبد القاهر الجرجاني.

أمّا في التّقد الحديث، فإنّ هنا اعترافات لدى النقاد أنّ عبد القاهر الجرجاني يتلاقى مع كل النقاد العالمين القدامى والمحدثين، الذين يقولون إنّ الكلمات رموز للمعاني، وأننا نفكر بالألفاظ والذين يقولون أنّ الأديب يجب عليه أن يجعل ألفاظه محاكية لتجارب ورمزا لتلك التجارب، وهو ما تدعو إليه أحدث مدرسية في النقد القائم على التذوق المستند على علاقات التركيب.

بل إنّ الناقد الايطالي بندتوكروتشه يكاد يكون متأثرا تأثرا كبيرا لمذهب الجرجاني، فقد اعتدى بالشكل الأدبي ورأى الحقيقة الجمالية فيه في المضمون، ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني، فالشّكل عنده هو النّظم عند الجرجاني، والمضمون عنده هو صورة قريبة من المعنى عند الجرجاني .

وإذا كان عبد القاهر قد حدد العلاقة بين الألفاظ والمعاني في صور النّظم، ورأى أنّه لا اعتداد بغير ذلك لا بالألفاظ وحدها ولا بالمعاني العامة وحدها، فإنّ هذا ما اهتدى إليه النقاد الجماليين الآن الذين يرون أنّ الصورة والمضمون هما وجهها النموذج الأدبي .

والفصل بينهما غير ممكن، فليس هناك مضمون وصورة، بل هما شيء واحد، فالمعاني لها حتى تصاغ وحتى تأخذ شكلها المعين، وتبرز واضحة فيه بكل الخصائص الفكرية واللفظية.

وبهذا تتضح عبقرية ناقد عربي سبق منذ قرون ما انتهت إليه فلسفة الجمال في النّقد الحديث، ومن هنا أصبحت آراؤه ذات قيمة عالمية خالدة. " إنَّ منبه إليه الجرجاني منذ قرون هو ما ظل يبحث عنه النّقد العربي حتى يضل بين المذاهب الكثيرة المتشعبة، حتى اهتدى أخيرا إلى أن السرّ كامن في الأداة للكلمة ووحيتها في الجملة، حتى تؤدي هي وجاراتها معنى وغرضا"¹.

وخلاصة القول أنّ مصطلح النّظم قد امتدى إلى زمن عمر بن الخطاب، لتحدد معالم نظرية الجرجاني المحددة في ثلاثة مناخ:² بلاغية، نحوية، ولغوية، ثم انتهت إلى فخر الدين الرازي، فتحدث عنها في كتابه "نهاية الإيجاز، والذي يدور أنّ النّظم هو توحي معاني النّحو، فقسم بذلك الكلام الذي تتعلق فيه الجمل بعضها البعض إلى ثلاثة وعشرين نوعا.

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، مكتبة الخانجي، سنة 1413 هـ - 1992م، ص: 91.

² فيصل الأحمر ونبيل دودة، الموسوعة الأدبية، ج2، دار المعرفة، الجزائر، د ط ، د ت ، ص: 90.

الفصل الأول

نظرية النظم

المبحث الأول : المفهوم اللغوي للنظم

جاء تعريف مصطلح النّظم في العديد من المعاجم العربية منذ القدم، فأوّل معجم تناول ذلك هو معجم العين للفراهيدي، ثم بعد ذلك توالت تعريفاته في معاجم كثيرة أخرى، منها من اهتم بالألفاظ، ومنها من اهتم بالمصطلح، ولنا في ذلك بعض النماذج حسب الترتيب الزمني لكل معجم منها :

أ/معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي :

نظّم:النّظّم نظّمك خرزا بعضه إلى بعض في نظام واحد، وهو فيه كل شيء حتى قيل :ليس لأمره نظام، أي لا يستقيم طريقته، والنظام: كل خيط يُنظّم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام، والجميع نظّم وفعلك النّظّم والتنظيّم، قال: مثل الفريد الذي يجري على النّظّم، والانتظام: الاتساق، وفي حديث أشرط الساعة وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه، و النّظام:العقد من الجواهر والخرز ونحوهما وسلكه خيطه.

والنّظام: الهدية والسيرة، وليس لأمرهم نظام، أي ليس له هدي ولا متعلق يتعلق به، وتقول: في بطنها نظامان وكذلك نظاما السمكة، وقد نظّمت السمكة، فهي ناظم، وذلك حين يمتلئ من أصل ذنبها إلى أذنها بيضا، والنّظّم دره ونحوه مما ينتظّم.¹

¹الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق: مهدي الخزومي، إبراهيم السمراي، دار ومكتبة الهلال، ج 2، د ط، د ت، ص: 165_166.

ج /معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس الرازي:

في مادة (ن،ظ،م) ما يلي :

نَظَمَ:النون والطاء والميم أصل يدل على تأليف شيء وتكثيفه، ونظمت الحرز نظامًا، ونظمت الشعر وغيره، و النظام: الخيط الذي يجمع به الحرز، و النظامان:من الضب كوشيتان من جنبيه منظومان أصل الذنب إلى الأذن، وانتظمت الدجاجة:صار في جوفها بيض، ويقال:لكواكب الجوزاء:نظم، وجاءنا نظم من جراد:أي كثير.¹

ج/ الصحاح للجوهري :

نَظَمَ: نظمت اللؤلؤ، أي جمعته في السلك والتنظيم مثله، ومنه الشعر ونظمته، و النظام:الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، ونظم اللؤلؤ، وفي الأصل مصدر، وجاءنا ناظم من جراد وهو كثير، ويقال لثلاثة كواكب الجوزاء نظم، والانتظام، الاتساق، وطعنه فانتظمه، أي احتله، والنظامان من الضب كوشيتان منظومتان من جانبي كليته طويلتان، ونظمت الدجاجة إذا صار في بطنها بيض².

د/ لسان العرب لابن منظور :

النَّظْمُ: التأليف نظمُه يُنظَّمُه ونظاما ونظمه فانتظم وتنظم، ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر نظمته، ونظم الأمر على المثل، وكل شيء³.

¹ أحمد بن فارس الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، مج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، سنة 2011م، ص: 567.

² الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقق: أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، سنة 1404هـ، 1984م، ص: 950.

³ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث، ط1، الجزائر، سنة 2008م، ص: 187.

قرنته لأخر أو ضمنت بعضه إلى بعض، فقد نطّمته، والنّظم: المنظوم، وصف بالمصدر والنّظم، ما نطّمته، والنّظام: ما نطّمت فيه الشيء من خيط وغيره، وكل شعبة منه وأصل نظم، ونظام كل أمر: ملاكته، والجمع أنظمة وأناظيم، ونظم الليث: النّظم نظمك الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد، كذلك هو في كل شيء حتى يقال: ليس لأمره نظام أي لا تستقيم طريقته، والنّظام: الخيط الذي يُنظم به اللؤلؤ، أو غيره فهو نظام وجمعه نظم، وقال: مثل الفريد الذي يجري متى النّظم وفعلك النّظم والتنظيّم، ونظم من لؤلؤ، قال وهو في الأصل مصدر، والانتظام: الاتساق.

وفي حديث أشرف الساعة: وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه، النّظام العقد من الجوهر والخرز ونحوهما وسلكه، والنّظام الهدية والسيرة، وليس لأمرهم نّظام أي ليس له هدي ولا متعلق ولا استقامة .

والنّظامان من الضّب: كوشيتان منظومتان من جانبي كليته طويلتان ونظاما الطّبية و انظاماها: كوشيتان وهو خيطان منتظمان بيضا يمتد بجانيها من ذنبها الى أذنها و يقال: في بطنها أنظامان من بيض، وكذلك أنظاما السمكة، وحكي عن أبي زيد: أنظومتا الضب والسمكة، وقد نظمت ونظمت وأنظمت، وهي ناظم ومنظم، وذلك حين تمتلئ من أصل ذنبها إلى أذنها بيضا ويقال: نظمت الضبة بيضا تنظيما في بطنها ونظمتها نظاما، وكذلك الدجاجة أنظمت إذا صارت في بطنها بيض، والنظام: نفس البيض المنظم كأنه منظوم في سلك، والانتظام من الخرز: خيط قد نظم خرزا، و كذلك أنظم مكن الضبة، ويقال: جاءنا نظم من الجراد وهو الكثير ونظام الرسل و أناظمته: ضفرتة، وهي ما تعقده.

ونظم الحبل: شكه وعقده، ونظم الخواص المقل ينظمه شكه وضفره.¹

¹ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث، ط1، الجزائر، سنة 2008م، ص: 187.

هـ. تاج العروس للزبيدي:

نظم: النَّظْمُ: التَّأْلِيفُ وَضَمُّ الشَّيْءِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ وَكُلُّ شَيْءٍ قَرْنَتْهُ بِآخَرَ فَقَدْ نَظَّمْتَهُ.

النَّظْمُ: المنظوم، باللؤلؤ والخرز، وصف بالمصدر، يقال: نظم من لؤلؤ، والنَّظْمُ: الجماعة من

الجراد، يقال جاءنا نظم من جراد، وهو الكثير كما في الصحاح وهو مجاز وأيضاً على ثلاثة كواكب

من الجوزاء كما في الصحاح ونظم، وقيل: ماء بنجد والنَّظْمُ، الثريات على التشبيه بالنَّظْمِ من اللؤلؤ.

قال أبو ذؤيب:

فَوَزُّدُنْ وَالْعُرُوقُ مَقْعَدُ رَأْيِي ضَرْبًا فَوْقَ النَّظْمِ لَا يَتَطَّلَعُ

ورواه بعضهم: فوق النجم، وهما الثريات معاً، والنَّظْمُ أيضاً: الدبوران الذي يلي

الثريات، ونظم اللؤلؤ يُنظِّمُهُ نَظْمًا وَنُظَامًا، بالكسر ونظمه تنظيمًا: ألفه وجمعه في سلك فانتظم

وتنظَّم، ومنه نظمت الشعر ونظَّمته، ونظم الأمر على المثل وله نظم حسن، دُرُّ منظوم، ومنظَّم

وانتظم بالرمح: اختل، وانتظم ساقيه وجانبيه كما قالتا افتل فؤاده، أي ضمَّهما بالسنان.¹

و. معجم التعريفات للشريف الجرجاني:

النَّظْمُ: هي العبارات التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة وهو باعتبار وصفه أربعة

أقسام:

¹ محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: نواف الجراح، سمير شمس، دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، ط1، 2011، ص254.

الخاص والعام والمشارك والمؤول، ووجه الحصر أن اللفظ إن وضع المعنى واحد وخاص أو الأكثر، فإنَّ شمل الكل فهو العام، وإلا فمشارك إن لم يترجح أحد معانيه وإن ترجح فمؤول واللفظ إذا ظهر منه المراد يسمى ظاهرا بالنسبة إليه، ثم إن زاد الموضوع بأن سيق الكلام له، يسمى نصا ثم إن نراد الموضوع حتى سقط باب التأويل والتخصيص يسمى مفسرا ثم إن زاد حتى سقط باب احتمال النسخ أيضا يسمى محكما.

النَّظْم: في اللغة، جمع اللؤلؤ في السلك وفي الاصطلاح: تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: الألفاظ المترتبة المسوقة المعتمدة دلالاتها على ما يقتضيه العقل.¹

¹ عبد القاهر الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، ص: 203.

المبحث الثاني: إرهاصات نظرية النظم

تردد مصطلح النظم كثيرا في كتب العلماء النحاة والبلاغيين قبل الجرجاني بمئات السنين الذي تبلورت على يديه نظرية بلاغية نقدية قائمة بذاتها، لكن هذا المصطلح لم يكن بلفظه، وإنما كان بألفاظ مختلفة وفيما يأتي سأتطرق إلى ذلك المسار التاريخي للمصطلح.

1. سيويه ت 180هـ:

تحدث سيويه عن ائتلاف الكلام، وقد جعل مدار الكلام على تأليف العبارة وعلاقة الألفاظ بعضها ببعض، حيث يرى أنّ وضع الألفاظ في مواضعها دليل على حسن ائتلاف الكلام (النظم)، ووضعتها في غير موضعها دليل على فسادها، حيث قال: "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة فمنه مستقيم حسن، ومستقيم محال ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسأتيك غدا، وأما المحال، فأنت تقض أول كلامك بأخره فتقول: أتيتك غدا وسأتيك أمس، وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فإن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيدا يأتيتك، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأنت تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس".¹

إنّ سيويه في هذا الكلام لم يشير إلى مصطلح النظم ولكنه لميح وأشار إليه بكلمة الاستقامة وكان ذلك انطلاقا من المفردة لضمها في شكل كتل ومجموعات (كلام مفهوم وتراكيب)، منطلقا مما

¹ سيويه: الكتاب، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص 8/1.

تفوه به العرب السليقيون وبذلك كان سيويه أول من أقام للكلام الجيد أسسا من أبنية مفردات اللغة، وتوصل إلى وضع الأسس الأولى للنظرية اللغوية في مسألة حسن الكلام بوضع، ضوابط الكلام من كلام العرب.

2. بشر بن المعتمر ت 210 هـ:

إنَّ بشر بن المعتمر تحدث عن علاقة اللفظ بالمعنى حيث قال في صحيفته: "وإياك والتَّوَعَّرَ فَإِنَّ التَّوَعَّرَ يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراد المعنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فَإِنَّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عمَّا يفسدهما ويهجنَّهما"¹.

ويستأنف: "وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصر إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها والقافية لم تحلَّ في مركزها، وفي نصابها، ولم تصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها، فَإِنَّك إذن لم تتعاط قرص الشعر الموزون"².

إنَّ ما جاء به بشر بن المعتمر إنما يدور حول علاقة اللفظ بالمعنى، فهو يرى في القول الأول على المتكلم أنَّ يبتعد عن التَّوَعَّرَ (الوحشي من الكلام) الذي يسلم إلى التعقيد، ويبحث عن الألفاظ الكريمة للمعاني الكريمة. وفي القول الثاني يتحدث عن قرص الشعر فيرى أنه يجب على الشاعر أنَّ

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخفاجي، القاهرة، د ت، ص 8/7

² المصدر السابق، سيويه، ص 8.

يكون طبيعياً مبتعداً عن الصنعة في كلامه بمعنى أن يضع الكلام في مواضعه، وهذا كله إشارة إلى مصطلح النظم الذي لم يذكره بشر.

3. الجاحظ ت255هـ:

فرّق الجاحظ بين نظم الكلام ونظم القرآن، إنَّ الجاحظ لم يشير هو الآخر إلى مصطلح النظم وإنما أشار إلى الآتي:

"وأجود الشعر ما رأيتُه متلاحم الأجزاء سهل المخارج فيعلم بذلك أنَّه أفرغ إ فراغاً جيداً، وسُبِّك سبباً واحداً. فهو يجري على اللسان كما يجري على الرَّهان"¹

فقد ذكر الجاحظ (التلاحم، والسبب، والإفراغ)، كما تحدث عن اللفظة المفردة واشترط فيه شروطاً هي:

"ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه متخييراً في جنسه، وكان سليماً من الفضول بريئاً من التعقيد حبيب إلى النفوس، واتصل بالأذهان والتحم بالعقول وهشت إليه الأسماع وارتاحت إليه القلوب وخف على ألسن الرواة".

إنَّ الجاحظ يجعل تلاحم أجزاء الكلام وحسن سبكه وإفراغه واختيار ألفاظه وبعده عن التعقيد مما يسهل وصوله إلى النفوس وفهمه، ومن هنا يبرز لنا اهتمام الجاحظ بالنظم.

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخفاجي، القاهرة، ص 8.

4. أبو سليمان بن محمد بن إبراهيم الخطابي ت 388هـ:

تحدث الخطابي عن النَّظْم في كتابه (بيان إعجاز القرآن) وأكمل ما جاء به الروماني لمسألة النَّظْم بمعنى التأليف، وما تخضع له الألفاظ والمعاني من أمور لتمام هذا النَّظْم والتأليف، فعرض الخطابي للعبارة كوحدة متكاملة في لفظها ومعناها ونظمها وكان تركيزه شديداً على موضوع النَّظْم¹. ويرى الخطابي أنَّ كل كلام يقوم على لفظ حامل، ومعنى قائم، ورباط لهما ناظم؛ فهو كلام مستقيم بليغ. وبذلك يكشف الخطابي عن نوع من الإحساس بانتظام عناصر النَّص الأدبي في وحدة خفية، مما يعطي النَّظْم مفهوماً جديداً يزداد وضوحاً مع من جاء بعده.

5. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي ت 403هـ:

اهتم الباقلائي بالنَّظْم وبننون البديع في القرآن الكريم ومعه يبدأ مصطلح النَّظْم النقدي في الظهور إلاَّ أنَّه لم يكن يستند إلى قواعد لغوية أو نحوية فهو يقول عن نظم القرآن: "وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه... على حد واحد في حسن النَّظْم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا"² وبهذا النَّقد الصريح أراد أن يؤكد قضية مؤداها أنَّ الحديث في الإعجاز القرآني لا ينتهي، والقول يتنامى مع الزمان، والمكان، ونجد الباحث فيه وجهاً يتناسب مع سلاسته تفكير العصر وثقافة الجيل الذي يدور الحديث فيه حوله، وهذه نظرة الباقلائي تنبئ عن واسع فكره وإن أخذ عليه بعض الباحثين أنَّه يتهم غيره بالتقصير.

¹ صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، ص: 76-77

² أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 1963، ص 19.

وقد أثبت الباقلاني بالبحث، ومدارسته ووحداية الله بوساطة (الإعجاز البلاغي)، حين أمعن النظر في قوله تعالى: " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"¹.

وبهذه الملاحظة وغيرها استطاع أن يستنبط إشارات الإعجاز من القرآن نفسه مبينا وجوه البلاغة العربية التي دافعت عن حقيقة القرآن وصحة العقيدة محمدا وجوهه:

أ. ما يرجع إلى بلاغة القرآن جميعه.

ب. إنَّ نظم القرآن يخرج عن عادة كلام الجنِّ والإنس، فهو فريد في نمطه ونوعه لهذا صار معجزا.

ت. سهولة القرآن، وخروجه عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر.

6. كلثوم بن عمرو العتابي ت نحو 220هـ:

يرى العتابي أنَّ الألفاظ للمعاني بمثابة الأجساد للأرواح، فينبغي أن توضع موضعها وإلاَّ تغير المعنى وساء النَّظْم.

قال: " الألفاظ أجساد والمعاني أرواح وإمَّا تراها بعيون القلوب فإذا قدمت منها مؤخرًا وأخرت منها

مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما أنَّه لو حول رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رأس أو

رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحلية"²

¹ سورة هود، الآية: 13-14.

² أبو هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق: علي محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،

ط2، دت.

7. ابن قتيبة ت 276هـ:

اهتم ابن قتيبة بالعلاقات النحوية بين ألفاظ العبارة وأفرد باباً أسماه: تأويل الحروف التي ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم

وقد شغل ابن قتيبة بالرد على الطاعنين المخالفين وفكرة النظم عنده بلاغية على ما يظهر من كلامه في كتابه "تأويل مشكل القرآن" ومن ... في بسط مذاهب بلاغية مختلفة دون أن يقف أمام التركيب، وضم الكلام بعضه إلى بعض على ما يقتضيه النحو.

8. إبراهيم بن المدبر ت 279هـ

نراه ينصح الكتاب ويوضح لهم ما يجب مراعاته في الكتابة بما هو من صلب النظم، قال: "فإنما يكون الكاتب كاتباً إذا وضع كل معنى في موضعه وعلق كل لفظة على طبقها من المعنى، فلا يجعل أو ما ينبغي له أن يكتب في آخر كتابه ولا آخره في أوله، فإني سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول: "لا ينبغي للكاتب أن يكون كاتباً حتى لا يستطيع أن يؤخر أول كتابه ولا يقدم آخره"¹

9. المبرد:

البلاغة عند المبرد هي حسن النظم، فقال: "فحق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها"²

¹ حاتم الضامن: نظرية النظم تاريخ وتطور، الموسوعة الصغيرة، دار الثقافة، دط، 1979، ص 17.

² المصدر السابق، ص: 19.

من خلال قوله نستنتج أنه يركز البلاغة على النظم الذي هو حسن الاختيار للألفاظ وانتقاء المعاني ووضعها في سياقها المناسب.

10. الروماني ت386هـ:

حين يتحدث عن التلاؤم فإنه يقص جبه حسن النظم وجودة السبك حتى يخلو في السمع ويخف على اللسان. يقول: "والفائدة في التلاؤم حين الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة"¹

ويتضح حديث الروماني عن النظم عندما يتحدث عن التأليف المتناظر مقارنا بينه وبين الأسلوب المتلائم، وكأنه يتحدث عن النظم الجيد والنظم المضطرب أو المتنافر "ومثل ذلك قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والحروف وقراءته في أقبح ما يكون الحرف والخط، فذلك متفاوت في الصورة وإن كانت المعاني واحدة"².

11. قدامة بن جعفر:

يمثل حالة الائتلاف بين اللفظ والمعنى يجعل المعاني مقابلة للغرض المقصود باعتبارها معاني موجودة في الطبيعة لها صورها في الأذهان فإذا ما طلبها كاتب أو شاع فما عليه إلا أن يختار لها اللفظ المناسب للغرض المطلوب.³

¹ الروماني: النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله، دار المعارف، مصر، دت، ص96.

² المصدر نفسه، ص96.

³ قدامة بن جعفر، نقد الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ، دط، ص171.

12. القاضي عبد الجبار ت 415هـ:

مع القاضي عبد الجبار زاد المصطلح وضوحا وبدأت الأسس اللغوية والنحوية لهذا المصطلح تتشكل بوضوح حيث يرى أنّ اللفظة لا تكون لها قيمة خارج التركيب، فلا تكون فصيحة ذات دلالة إلاّ وهي داخل التركيب، وهذا تحديد منه لم يُسبق له من قبل في هذا المجال. فهو يورد نصّاً لشيخه أبي هاشم يحدد فيه فهمه للفصاحة والنظم: "إنّما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه، وحسن معناه، ولا بد من اعتبار الأمرين، لأنّه لو كان جزل اللفظ، ركيك المعنى لم يعد فصيحاً، فإذاً يجب أن يكون جامعا لهذين الأمرين، وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، لأنّ الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، والنظم مختلف إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة"¹

وأشار أيضاً إلى فكرة توحي معاني النحو بقوله:

"واعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنّما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بدّ مع الضمّ أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضع التي تتناول الضمّ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع"²

¹ الأخصر جمعي، في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، من منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2001م، ص: 171، نقلاً عن القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل في إعجاز القرآن، 16/ 197.

² وليد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، 1402هـ، دمشق سورية، ص16.

كما أنّ مرّد ذلك يعود إلى مراعاة أبواب النّحو المختلفة بالنسبة لكل عنصر من عناصر التركيب اللغوي وأنّ التركيب في هذه الحالة لا يقوم بأداء وظيفته الدلالية إلا إذا كان كل جزء من أجزائه يمثل باباً معيناً من أبواب النّحو المختلفة.

هذا ولم يفت عبد الجبار هنا أنّ يشير إلى موقعية كل عنصر من عناصر الجملة وأنّه لا يمكن أن يقوم بوظيفته على النّحو المطلوب إلا إذا كان موقعه من التركيب معيناً محدوداً وكل ذلك يدل على أنّ عبد الجبار قد أدرك على نحو واضح مفهوم النّظم على النحو الذي أدركه عبد القاهر الجرجاني. من خلال هذا القول يتبين لنا أنّ القاضي عبد الجبار قد أدرك دور النّظم في الفصاحة وإيصال المعنى

المبحث الثالث: الإطار المرجعي لنظرية النظم في الحقول المعرفية

أولاً/ الحقل النحوي:

نظرية النظم كما أشير إليها سابقاً، ولدت بعد مخاض عسير من رحم حقول معرفية متعددة وقد هيأ لهذا التعدد المرجعي لنظرية النظم صورة النضج والاكتمال. التي وضعت بها النظرية عندما وصلت إلى مؤسسها عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، مما يدل على أن هذه النظرية هي خلاصة تراكم معرفي عميق نما ببطء، في الحقول المعرفية المتصلة بها.

وقد تجلت البذور الأولى لنظرية النظم في الحقل النحوي، من خلال ما قدمه سيويه في الكتاب من ملاحظات تتصل في مجملها بفكرة النظم.

يقول سيويه: "هذا باب الاستقامة من الكلام، والإحالة فمنه، مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال الكذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس. وسأأتيك غداً، وأما المحال فإن تنقص أول كلامك بآخره، تقول: أتيتك غداً. وسأأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب، فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه. وأما المستقيم القبيح، فإن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكفي زيدا يأتيك. وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فإن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"¹.

ويتضح لنا من هذا القول أن سيويه يجعل مدار الكلام على تأليف العبارة، وما فيها من حسن وقبح وأن وصف الكلام بحسنه وقبحه، إنما يكون من جهة ما يتوخى في نظمه من أحكام النحو.

¹ سيويه، الكتاب، ج1، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص 8.

لقد كان موضوع النَّحو عند سيبويه، وسيلة من وسائل بيان المعاني بين المتكلم والمخاطب بل وقد ذهب سيبويه إلى أبعد من ذلك حينما رأى أنَّ وجوه النَّحو على هذا المعنى إنما هي خدم للمعنى واتضح له وجوه القياس في تفسير القواعد النَّحوية، لا تثبت قواعدها في مواجهة ما يروم المتكلم إبلاغه إلى المخاطب.

يرى سيبويه أنَّ لكل وجه إعرابي موضعاً يحسن فيه وذلك تبعاً لسياق الكلمات داخل التركيب ومراد المتكلم ومقتضى الحال. فنراه مثلاً يرجع وجه النصب على الجَرِّ في مواضع معينة لأنَّ المعنى هو الذي يطلبه، فيقول في باب (ما يجري على الموضوع لا على الاسم الذي قبله). وتقول: "ما زيد كعمر ولا شبيهاً به، وما عمر كخالد ولا مفلحاً، النصب في هذا جيد لأنَّك تريد ما هو مثل فلان ولا مفلحاً هذا وجه الكلام. فإن أردت أن تقول ولا بمنزلة من يشبهه جررت وذلك قولك: ما أنت كزيد ولا شبيهه به فإنما أردت ولا كشبيهه به".¹

ومما يدل على صور اهتمام سيبويه بأهمية وانتظام المعاني على حسب الأغراض و المقاصد وتبعية النَّحو للمعنى هو ما ذكره في باب الفاعلين الذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به حيث يقول في تعليقه على قول امرئ القيس:

فَلَوْ أَنَّ مَا سَعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي، وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ.²

فيقول فإنما رفع امرئ القيس لأنه لم يجعل القليل كافياً، ولم يرد ذلك ونصب ففسد المعنى.

¹ المصدر السابق، ص: 69.

² المصدر نفسه، ص: 79.

يقول: "إنَّ امرئَ أَلْقِيسَ مع طموحه وبعد همته لا يسعى لأدنى معيشة، ولو أنَّه يسعى لتلك المعيشة

كفاه قليل من المال، وإِنَّمَا كان المطلوب عنده الملك بدليل قوله بعد ذلك:

وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مَائِلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدُ الْمَائِلُ أَمْثَالِي.

ولو نُصِبَ (قليلا) لكان متناقضا مع نفسه " ¹.

ولم يكتفي سيويه في هذا الإطار بذكر مواضيع الحسن و القبح في الكلام، انطلاقا من علاقة

العامل بالمعمول على النحو الذي سبق ذكره، وإِنَّمَا بسط قضايا كثيرة تحت علاقة النحو بالأغراض

والمقاصد التي يراد لها الكلام حتى يجعل ذلك شاملا لكل ما يحصل في الكلام من مظاهر

الحذف، والذكر والزيادة، والحصر، والقصر، والخبر الإنشائي، والتقديم والتأخير وغيره....

يرى الباحثون أنَّ سيويه قد توسع في الوقوف على علاقة الحذف بالمعاني البلاغية، حتى بات

يقرب في توسعه هذا من عمل البلاغيين . حيث تعرض لكافة المحذوفات ملتفتا إلى أسرارها البلاغية

مؤكدًا على ضرورة توفر القرائن الحالية، والمقالية، ليكون الحذف صحيحا مؤديا للمعنى.

وقد أكد في هذا السياق أنَّ الحذف في الكلام مظهر من مظاهر الأسلوب العربي طال جميع أركان

الكلام حرفا وفعلا واسما، بل شمل أحيانا حذف التراكيب، وجمل العلة وقرينة ترتبط بالإغراض

والمقاصد.

¹المصدر السابق، ص: 79.

ويذكر في باب الحذف مثلا حذف الحرف، القسم مع بقاء عملها بغرض التخفيف على

اللسان، حيث يقول:

ومثل ذلك: "الله لتفعلن"، إذا استفهمت، أضمروا الحرف الذي يجري وحذفوا تخفيفا على اللسان، وصارت ألف الاستفهام بدلا منه في اللفظ".¹

ويذكر الجرجاني في هذا المضمرة:

"اعلم أن ليس النظم أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها".²

فنظرية النظم عند الجرجاني تتبع خواص التركيب الكلامي، فمدار أمرها على النحو. وبعبارة أخرى فإن نظرية النظم والبلاغة بصفة عامة، إنما وجبت حجة مشروعيتها في الوجود من حيث هي فنن من أفنان الدراسة اللسانية عامة، والدراسة التركيبية على وجه الخصوص.

ويجعل الجرجاني من مفهوم النظم معادلا لمعاني النحو ويخصص لتناول هذا المفهوم صفحات عديدة من كتابه "دلائل الإعجاز"، ويبين منها إن معاني النحو ترادف التركيب والتعليق، والسياق بأقسام الكلام ضروبا من التصرف. تتجلى بها غيات المتكلم، مستعملا اللغة.

¹ سيبويه، الكتاب، ج1، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، ص:8.

² عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، صححه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1981، ص:81.

ويقول محمدا مفهوم النظم:

"واعلم أنّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها بعض ويبني بعضها بعض وتجعل هذه بسبب ذلك.... وإذا كان كذلك فبتا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبها ما معناه، وما محصوله؟، وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن نعلم إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا، أو نعلم إلى اسمين فتجعل أحدهما خبر عن الآخر، أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيدا له أو بدلا منه، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون صفة أو حالا أو تمييزا أو تتوحي في كلام هو لإثبات معنى، أو يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا فتخل عليه الحروف الموضوعية لذلك، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطا في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف وعلى القياس¹."

والمفاد من هذا القول أنّ معاني النحو تفيد تحديدا الوظائف التي هي داخل المحلات، وإبراز دور

الفعل العامل في فاعله ومفاعيله.

كما في هذا المثال: "ضرب زيد عمرا يوم الجمعة ضربا شديدا تأديبا له".

وعليه فإنّ معاني النحو لا تتمثل في ذكر أقسام الكلام وإيرادها لذاتها، بل إجراءاتها على ذلك النحو

كاشف لبنية الإسناد ولضروب التوسعة.

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 55.

من خلال هذا نرى أنّ الجرجاني قد أعطى أهمية بالغة للنحو وتوخي معانيه، إذ أنّ النحو ليس إذن مسألة هامشية ولا هو بالدخيل المتطفل على الدراسة الأدبية، فهو عمادها ومصدر العملية للصياغة الأدبية.

إنّ النحو عند عبد القاهر نحوان:

نحو: وظيفته خدمة اللغة والتعبير عن مقاصد المتكلمين وغايته أنّ يمكنهم من انتحاء سمت الكلام كما رسمه الوضع والاصطلاح، وأن يعصمهم من الخطأ واللحن وزيف الإعراب.

ونحو: وظيفته خدمة اللغة الفنية الأدبية والقيام بحق المبدعين من أصحاب اللغة، وهم الذين يمتازون من الأوساط بالفكر اللطيفة والفهم الثاقب، وبلطف النظر وفضل الروية، وقوة الذهن وشدة التيقظ. ويمتاز صوابهم بشرف الموضوع وصعوبة المأخذ، فالنحو _ في مستواه الأوّل _ وسيلة تستعملها العامة استعمالاً نفعياً، فوظيفته _ في جوهرها _ وظيفة عملية وهو في مستواه الثاني _ سبيل الخاصة إلى استعمال اللغة استعمالاً لا تكون فيه مجرد وسيلة عملية، وإنما تكون قادرة على أنّ تحرك سواكن الطاقات اللغوية الكامنة، فإذا هي انجازت فنية وأداءً جمالي.

يرى الباحث أنّ "النحويين يختلفان من جهة ارتباطهما بالمعنى، فالمعنى الذي يرتبط بالنحو _ في مفهومه الأوّل _ معنى حقيقي مداره على التصريح إذ يدلّك اللفظ (وحده) على معناه الذي يقتضيه موضوعه في

اللغة".¹

¹ المصدر السابق، ص: 262.

والمعنى الذي يرتبط بالنحو_ في مفهومه الثاني_ معنى مجازي إيحائي، ذلك أنه لا يكشف لك بدلالة اللفظ وحده، ولا يدل عليه اللفظ حسب ما وضع له في عرف اللغة، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً، هو غرضك بمعرفتك من "كثير الرماد"، أنه مضياف ومن "طويل النجاد"، أنه "طويل القامة"¹.

ومن هنا يفرق عبد القاهر بين المعنيين، بحيث يتكلم على "المعنى الأول"، "والمعنى الثاني" ولعل أطرف ما وضع للتفريق بين المعنيين وأحصره عبارتا "المعنى ومعنى المعنى".

وعلى ما ذكره أن يكون النحو نحويين معناه أن النظم نظامي، يتوخى قواعد النحو الغفل الساذج، كما تتجلى في لغة الدلالة الأولى، ونظم يتوخى معاني النحو ما تجلى في لغة الدلالة الثانية فمستوى النظم الأول من مستوى النحو الأول، ومستوى النظم الثاني، من مستوى النحو الثاني والكلام في النظم الأول_ لا يحتاج إلى الفكر والروية ولكن سبيله في ضم بعضه إلى بعضه، "فسبيل من عمد إلى لأل فخرطها في سلك لا ينبغي أكثر من أن يمنعها التفرق وكم نضد أشياء بعضها على بعض لا يريد في نضده ذلك تجيء له منه هيئة أو صورة بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين"².

أمّا النظم في مستواه الثاني فهو القطب الذي عليه المدار والعمود، الذي به الاستقلال، وما كان بهذا المحل من الشرف، وفي هذه المنزلة من الفضل، وموضوعاً هذا الموضوع من المزية... كان حرياً بأن توقظ له الهمم وتوكل به النفوس، وتحرك له الأفكار وتستخدم فيه الخواطر.

¹ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

² عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 80.

فالمقصود بالنظم في نظرية النظم إنما هو هذا الصنف، والنحو الذي يتوخى معانيه هذا النظم، إنما هو نحو وثيق الصلة بالفن والأدب والجمال، ولا علاقة له بإطلاق الأحكام المعيارية، وهذه الخصية هي التي جعلت الجرجاني لا يفصل النحو عن عملية الصياغة الإبداعية نفسها بخلاف الرؤية الأسلوبية الحديثة.

يرى الباحث أن النظم صياغة لا تخرج عن حدود هذه الإمكانيات، والطريق في رؤية عبد القاهر هو أن الظاهرة الإبداعية لا ترتبط بالعدول عن النظام اللغوي وقوانينه النحوية، وإنما ترتبط أساساً باستغلال طاقاته، وذلك أن تختار دون أن تخرج عنه ما يمكنك من أن يكون خطابك جديد متميزاً، ومن أن تصوغ نصاً له خصوصيته وله تفرد.

"إذن فالإبداع هو أن تقول القافية البكر وتجري على قلمك الأسلوب المخترع ووسيلتك في ذلك اللغة العادية، إذ أنه تفجير طاقات اللغة وإمكاناتها النحوية، وهو التأليف في دائرة المسار الفني الأدبي بين اللغوي والشعري، وبين الموضوعي والذاتي، ثم إقامة العلاقة الموحدة بين ما تزودك به اللغة من وسائل وما تزودك أنت به اللغة، والنظم لا يتحقق له وجود إلا داخل السياق الفني"¹.

الفرق بين النحو ومعاني النحو عند الجرجاني:

كانت التفرقة بين النحو وتوحي معاني النحو واضحة في ذهن الجرجاني، فمعاني النحو عنده هي قواعد ثابتة مستقرة لا تحتاج إلى إعادة نظر، أما توحي هذه المعاني في عملية النظم فهي مجال

¹ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق محمود ومحمد شاذلي، دار المدني ط1، القاهرة، 1991، ص: 97.

المزية والحسن وجمال الإبداع والمنافسة، لأنها تقوم على عملية الاختيار وحسن الاستخدام وفق قوانين النحو ومعانيه، وهذه الغاية هي التي تميز بين النحو والنظم.

وهذه العملية في نظر الجرجاني تحتاج من الناظم أن يملك الحسن الأدبي والذوق الفني، إضافة إلى الخبرة الدقيقة في معاني النحو والدربة في أوضاع اللغة، وهذا يتخطى هدف البحث في الخطأ والصواب.

يقول الجرجاني: "إن قلت: أ فليس هو كلاماً قد اطرده على الصواب وسلم من العيب؟ فما يكون في كثرة الصواب فضيلة؟ قيل: أما والصواب كما ترى فلا، لأن لسنا في ذكر تقويم اللسان، والتحرز من اللحن، وزيف الإعراب، فنعتد بهذا الصواب"¹.

ويخلص الجرجاني إلى القول "بضمّ الكلمات لبعضها البعض وفق ترتيب معين، مع تمام معناه واستقامته، وهو الذي ينتج عنه ما يسمى النحو"².

ومن هنا يمكن القول أنّ عبد القاهر ل يجدد النحو، وإنما أعاد الحياة إلى الدرس النحوي حين سلط الأضواء على أبعاد تحديد الدرس النحوي:

أ/معاني النحو، أي معاني البنية الشكلية للغة، والتي على أساسها يشكل المتكلم جملة البنى الشكلية التي تحدد المعنى النحوي، وليس المعنى المعجمي.

ب/ النظم و العلاقات السياقية حيث تبع الإعراب الترتيب الخاص للكلمات.

¹ الجزائر العاصمة، ط2007، 1، ص: 85. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار الثقافة العربية،

² العالمية، لونجمان، القاهرة، ص: 179. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية

ج/ البنى الكلية المرتبطة فيما بينها لتشكيل كلا واحدا بطريقة الارتباط والربط.

يرى لجرجاني أنَّ معاني النَّحو هي معاني جزئية تُؤلف من تضامها معنى واحدا هو

المفهوم، وما يعرف بـ"غرض المتكلم"، وهذه الإشارة لم يسبقه إليها أحد، يقول:

"واعلم أنَّ مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها

ببعض حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنك إذ قلت: ضرب زيد عمر يوم الجمعة ضرب شديدا

تأديب له، فإنَّك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معا كما

يتوهمه الناس".¹

وهو بهذا يرتقي بمفهوم البنية ليعطيه شكلاً جديداً في إطار الجملة، وهو ما يسمى المفهوم

متحصل من تفاعل المعاني الجزئية، الذي يمكن أن يصلح أساس لمفهوم لبنية الكلية للنص.

وعليه فإنَّ عملية بناء التركيب اللغوي تقوم عنده على المراحل التالية:

أ/ الاختيار: أي اختيار الوحدات من مخزونه اللغوي التي يمكن أن تفي بغرضه، بما يتناسب والمعاني

المنبثقة عن الحالة الشعورية التي يعيشها.

ب/ الترتيب: أي تحديد موقع كل واحدة لغوية وفق ما يقتضيه غرض المتكلم، وذلك بأنَّ يجري

عملية تنظيم لها ثم اختياره، على نحو يتلاءم فيه هذا التنظيم مع المحفوظة، والرتب غير المحفوظة، وفق

لترتيب المعاني في النفس.²

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1981، ص: 28.

² تمام حسان، العربية معناها مبناه، الدار البيضاء، 1994، ص: 188.

ج/التعليق: ويتم من خلال:¹

أ/القرائن اللفظية.

ب/ القرائن المعنوية والحالية.

وهذا يدل على أنّ عملية البناء اللغوي عند الجرجاني لا تتم على نحو عشوائي، وإنما تخضع للقوانين النازمة في اللغة، بحيث تشترط أن يكون اللفظ صفة (تستنبط بالفكر، ويستعان عليه بالرواية).

طرائق التعبير عن أهمية النحو:

لقد تبع الجرجاني طرائق أربعة على الأقل:

أولهما: " استعمال ألفاظ تخص هذه الأهمية بالدلالة كأن يقول: إن مدار أمر النظم على معاني النحو"².

- أو يقول: "النظم حقيقته توحي معاني النحو و أحكامه"³.

- أو يقول: "معاني النحو.....محصول النظم"⁴.

فأن يكون مدار النظم على معاني النحو، يدل على ما لهذه المعاني من أهمية بالغة، فهي عماد نظرية النظم وجماعها، وأن تكون حقيقة النظم توحي معاني النحو.

¹المصدر السابق، ص: 188.

²نصر أبو بوزيد، مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في ضوء الأسلوبية، فصول، مج5، ع1، القاهرة، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1984، ص ص: 11_24.

³المصدر السابق، ص: 87.

⁴المصدر السابق، ص: 488.

ثانيهما: الطرائق حد النظم بمعاني النحو كأن يقول: "إنَّ النّظْم هو توحي معاني النّحو".¹

وهذا معناه أنّ ليس للنّظْم شيئاً إلا توحي معاني النّحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم.....وبعبارة أخرى، فإنّ العلة في صحة النّظْم الذي يتوحي معاني النّحو وقواعده هي العلة في بطلان ضده، فإذا عرفنا فاسد النّظْم وعلمنا أنّ هذا الفساد مأتاه التفريط في جنب المعاني النّحوية عرفنا ضده وهو النّظْم الصحيح.

"وعلمنا أنّ هذه الصحة نتيجة لما يتوحي من معاني النّحو، وإذا انتفت المزية في أحد الضدين وجبت في الآخر".²

كما يرى الجرجاني أنّ النّظْم على قانون الاطراد والانعكاس يحقق لغاية من الحد، وهي التمييز بين النّظْم وغيره، بحيث يحصر مفهوم النّظْم فلا يدخل فيه ما ليس له ولا يخرج منه ما هو فيه. **ثالثها:** يتكلم فيها عبد القاهر بأهمية النّظْم، إنّ هو إلا فرع النّحو أصله، وأن لا فضل مع عدمه، ولا قدر للكلام إذا هو لم يستقم له، ومهما كان النّظْم فإنّ النّحو أهم منه وأعظم منزلة وأفخم قدرا وليس للنّظْم فضيلة في ذاته ولكنه فضيلة من فضائل النّحو.

¹ المصدر السابق، ص: 87.

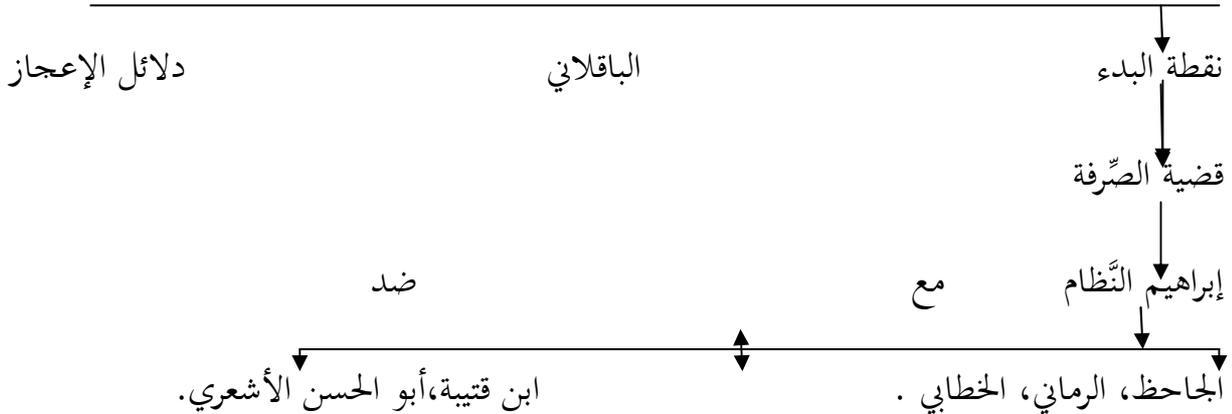
² ابتسام أحمد حمدان، أسس نحوية ولغوية في التفكير البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فضيلة محكمة، ع3، خريف 2010، ص: 24.

رابعها: الطرائق تتمثل في الإبانة عن أهمية النحو بدلالات غير الكلمات على المعنى المراد، وهذه الطريقة مبناها على توظيف معاني النحو، ويتحقق ذلك باستعمال أسلوب القصر¹، نتيجة لما يتوخى من معاني النحو، وإذا انتفت المزية في أحد الضدين وجبت في الآخر".²

ثانيا: الحقلين الإعجازي والبلاغي:

ترى الدراسات الحديثة أنّ نظرية النظم تضل في جوهرها نظرية في الإعجاز اللغوي والبياني للنص القرآني، وإن كانت بمفهومها العام نظرية في بلاغة التركيب اللغوي، يمتزج فيها النحو بالبلاغة امتزاجا لا ترقى فيه إلا لأذواق الرفيعة، والأحاسيس المرهفة، وهي بحد ذاتها نظرية .

عبد القاهر الجرجاني القاضي عبد الجبار المعنى في أبواب التوحيد والعدل



¹المقال السابق، ص: 26.

²أبتسام أحمد حمدان، أسس نحوية ولغوية في التفكير البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصيلة محكمة، ع3، خريف 2010، ص: 24.

لقد فتح ابن سيار النّظام بابًا لم يكن من السهل غلقه أمام كل من تناول موضوع الإعجاز القرآني، وهو القائل: "إنَّ الآية والأعجوبة في القرآن الكريم ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنّظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيه"¹. إنَّ النّظام في هذه المقولة ينكر إعجاز القرآن الكريم القائم في نظمه وتركيبه، وبهذا الإنكار يبطل الإعجاز القرآني من حيث هو مظهر للتحدي، كدليل على النبوة في وقت كانت فيه على مستوى من إتقان اللغة شعرا وخطابة.

ولقد وقع التحدي عندهم في أسمى ما يتقنون، ويحسنون، ويتفاخرون به، فالنّظام شيخ المعتزلة حيث أنكر إعجاز القرآن بنظمه وتأليفه، قد فتح بابا لصراع قوي بين المعتزلة والأشاعرة، فنرى كل فريق يدافع عن مقولاته ومواقفه حيال هذه القضية إمّا مؤيدا أو معارضا. وللمعتزلة في تأييد موقف "ابن النّظام"، من قضية الإعجاز القرآني، ثلاثة آراء مشهورة، رأي يقول بالصّرفة فقط، ويبقى الإعجاز بالنّظم والتأليف، ورأي يجمع القول بالصّرفة، والإعجاز القرآني في النّظم والتأليف، ورأي يخالف لا يرى الإعجاز إلا بالنّظم والتأليف، وأمّا من نفي الصّرفة عن إعجاز القرآن الكريم، فهو رأي أهل السنة بدءا من ابن قتيبة وانتهاء بعبد القاهر الجرجاني².

¹ نقلا عن أبي الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج1، ص:241.

² وليد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، 1402هـ، سنة 1982م. ص: 21.

موقف الجاحظ من الإعجاز القرآني:

لقد أجمع الباحثون أنّ الجاحظ من أوائل المتكلمين الذين أخرجوا أو حاولوا الخروج من مقولات النظام القائل بالصّرفة في باب الإعجاز القرآني، وربما لهذا السبب ألّف كتابه:

"نظم القرآن"، وفي الإشارات المختلفة في مضمون هذا الكتاب، كذا في غيرها في كتب الجاحظ التي وصلتنا ما يدل على أنّ القرآن معجزة بنظمه وبلاغته وقد جاء عنه قوله: وفي الكتاب المنزل الذي على أنّه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر مثله العباد¹، ولكنّه لم يبلغ فيه مبلغا واضحا عندما ما قال بالصّرفة في موضع آخر، حيث وقع الجاحظ عند بعض الباحثين في موضع المنزلة بين المنزلتين، حتى قيل أنّ الباقلاني معلق على كتابه "نظم القرآن":

"وقد صنّف الجاحظ في نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى"².

يقول الجاحظ:

"ولولا أنّ رجلا قرأ على رجل من خطبائه وبلغائه، سورة واحدة، لآتين له في نظامها ومخرجها عن لفظها، وطابعها أنّه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بما أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها"³.

ومثل هذا القول الصريح في إظهار القرآن الكريم بنظمه وتأليفه، قول الجاحظ في مقدمة

كتابه المشار إليه نظم القرآن:

¹ الجاحظ، حجج النبوة، تحقيق: إسلام عبد الرؤوف، ط3، ص287.

² الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 1963، ص: 6.

³ حجج النبوة، تحقيق: إسلام عبد الرؤوف، ج3، ط1، ص: 287.

"فلم أَدع فيه مسألة لرافضي.....ولا لكافر منادي، ولا المنافق مقموع، ولا لأصحاب النَّظام، ولمن

نجم بعد النَّظام، ممن يزعم أنَّ القرآن خلق وليس تأليفه بحجة، وأنَّه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة"¹.

مع أنَّ الجَّاحظ يثبت إعجاز القرآن الكريم بنظمه وتأليفه، إلَّا أنَّه في مواطن أخرى لا يتردد

بالقول بالصرِّفة في إظهار العرب عن مجازات القرآن والإتيان مثله، وله في القول بالصرِّفة رأي واضح

صريح ذكره في كتابه "الحيوان"، في معرض رده على الدهرين، الذين أنكروا مناسب إلى النبي سليمان

من عام العلم بمملكة بلقيس، وقد أتاه الله ملكا عظيما لا يكون لأحد من بعده.

قال الجاحظ:

"ومثل ذلك ما وقع في أوهام العرب، وصرِّفوا نفوسهم عن المعارضة للقرآن الكريم، بعد أن

تخدمهم الرسول صلَّى الله عليه وسلم بنظمه، ولذلك لم تجد أحدا طمع فيه، ولو طمع فيه

لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك، فجاء يأمر فيه أدنى شبهة، إلَّا عظمت القصة على الأعراب

والنساء وأشبه النساء، ولا أَلَّف ذلك من المسلمين عملا، ولا طلبوا المحاكمة والتراضي بعض

العرب، ولا كثر القيل والقال...فقد رأيت أصحاب مسلمة، إمَّا تعلقوا بما أَلَّف² لهم مسلمة من

ذلك الكلام الذي يعلم من سمعه أنَّه إمَّا عدا على القرآن فسلبه، وأخذ بعضه وتعاطى أن

يقارنه، فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغ العباد ولو اجتمعوا"، يوضح الجاحظ أنَّ الرسول صلى الله

عليه وسلم تحدى البلغاء و الفصحاء والشعراء بنظم القرآن وتأليفه.

¹ حجج النبوة نظم القرآن ضمن رسائل الجاحظ، ج3، ص: 287.

² الجاحظ، الحيوان، ج4، تحقيق: عبد السلام هارون، 1384هـ، 1965، ص: 89.

وهناك من يقول أنّ من يعنى في آراء الجّاحظ المتعلقة بقضية الإعجاز القرآني، يرى أنّه وقف موقف وسطا بين القول بالصّرفة، والقول بالإعجاز القرآني، القائم على النّظم والتأليف من جهة ثانية، وقد علّق الرافي عن هذا التردد والتناقض في أقوال الجاحظ بشأن الإعجاز قائلا:

"أنّ رأي الجّاحظ في الإعجاز كمثل أهل العربية، وهو أنّ القرآن في الدرجة العليا من البلاغة من عصرهم في منحول.....ولذلك لم يسلم هو أيضا بالقول بالصّرفة، وإن كان قد أخفاها أو ما ها إليها من عرض".¹

موقف ابن قتيبة من الإعجاز القرآني:

وقد أشار ابن قتيبة إلى فكرة النّظم "بمعنى سبب العبارة، سبب الألفاظ، أو ضم بعضها إلى بعض، في نظام دقيق ومتآلف فيما بينها من المعاني، فيجريان معاً في سلاسة وعضوبة، دون كلفة أو وحشية بحيث تخدم الألفاظ المعاني وتصورها أصدق تصوير، وأشار أيضا إلى عضوبة النعمة الموسيقية وحسن الإيقاع الداخلي بين الآيات"².

وقد وجه النظر إلى الإعجاز القرآن، وبأنّه معجز في نظمه وسمو تأليفه عن سائر تعابير العرب ونظمهم، فيقول:

"وقطع منه بعجز التأليف أطماع الكافرين، وأبانه بعجيب النّظم عن حيل المتكلفين".³

¹ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب، بيروت، د ت ، صص 146_147.

² وليد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، 1402هـ، 1982، ص: 19.

³ محمد زغلول ، البلاغة تطور وتاريخ ، دار الفكر، ص 105.

يوضح الجاحظ هنا جوانب الإعجاز في التأليف والنظم، ويرى أنّها تتعلق بأمور كثيرة أهمها النظم بمعنى سبب الألفاظ في تأليف دقيق، وحسب المقامات والحالات.

ويقول أيضا:

" لكل ضرب من الحديث، ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال".¹

نستخلص أنّ الجاحظ قد توصل إلى هذه الآراء من عنايته الفائقة لنظم القرآن وعنايته الخاصة للفظه ولثقافته الجامعة.

وقد امتدت هذه الدراسات إلى تمثل نشأة وفتوة الدراسات اللغوية، والتي شملت القرن الثاني والثالث الهجري، عكف فيها علماء اللغة في مجال الدراسات اللغوية والقرآنية، في تناولهم طرق الأداء، ونظام الجملة في إعرابها وتركيبها، وفقهها وتصويرها، وإبراز بلاغتها وفصاحتها، وحسن صياغتها، نتركها لتليها مرحلة الشباب والتخصص الحقيقي في مجال الدراسات اللغوية، وهي مرحلة اتسمت بتطورات لغوية جديدة شملت القرن الرابع الهجري.

أبرز جهود قدامة اللغوية:

تناول قدامة بن جعفر قضيتي اللفظ والمعنى من خلال أعمله النقدية، فأعطى اهتماما كبيرا للفظ، وعنايته الفائقة للمعاني، وتنبه لحالات الائتلاف بينهما، جعل الألفاظ صفات، والمعاني نعوتا

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخفاجي، القاهرة، د ت ، ص: 144.

لتمييز جيدها من رديئها، فكانت المعاني عنده أقسام وأنواعا، لها مميزاتا، ونعوتها الكثيرة التي لا تكاد تحصى، نجد هذا واضحا في قوله:

"ولما كانت أقسام المعاني لا تحتاج فيها إلى أن تكون هذه الصفة مما لا نهاية لعدده، ولم يكن أن يؤتى على تعديد جميع ذلك كي يبلغ آخره"¹، فالنظم عند قدامة بن جعفر يمثل حالة الائتلاف بين اللفظ والمعنى، يجعل المعاني مقابلة للغرض المقصود، باعتبارها معاني موجودة في الطبيعة لها صورها في الأذهان .

هذه الآراء قد سبق إليها الجاحظ بقوله: "إنَّ المعاني مطروحة بالطريق يعرفها العربي والعجمي والبدوي والحضري والقريب والبعيد"².

ويضيف قدامة لأقواله السابقة قولا موضحا حالة الائتلاف، مشيرا فيه لعملية المساواة بين اللفظ والمعنى قائلا:

"ومن أنواع ائتلاف اللفظ مع المعنى المساواة، وهو أن يكون اللفظ مساويا للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه... لا يفضل أحدهما على الآخر"³.

فحالة الائتلاف في رأيه هي قضية عقلية بحتة، بحيث يكون المعنى فيها مواجهها الغرض المقصود، وأن تكون الألفاظ أردية للمعاني، قدرا بقدر، لا تزيد عنها ولا تنقص، لتأتي المساواة صحيحة، فهي مسألة حسابية لتحقيق عملية النظم.

¹ قدامة بن جعفر، نقد الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ، د ط ، ص: 27.

² الجاحظ، الحيوان، ج2، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة خفاجي، القاهرة، د ت ، ص: 131.

³ وليد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، 1402هـ، 1982، دمشق، سوريا، ص: 23.

وما يمكن قوله في هذا المجال أنّ أعمال قدامة النقدية قد ساهمت في عملية تطوير الدراسات اللغوية، على الرغم مما اعترها من تأثر بالفكر اليوناني والعربي، أمثال: الجاحظ والأصمعي، فقد حاول قدامة بأعماله إخضاع البلاغة العربية لتلك الأصول.

وقد يستمر صدى الآراء حتى عهد ابن خلدون الذي يقول:

"فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع منها ما يشاء ويرضى، وتأليف الكلام للعبارة عنها، هو المحتاج للصناعة كما قلنا وهو القوالب للمعاني".¹

2/ أبرز جهود المتكلمين:

نشطت في القرن الثالث والرابع الهجري دراسات هامة، تخصصت في دراسة إعجاز القرآن من حيث نظمه، وحاولت هذه الدراسات إدراك حقيقة الإعجاز القرآني، ومعرفة أسرار أسلوبه، والسّر البديع في نظمه ودقة رصفه، بحيث اتخذ المتكلمون لأنفسهم منهجا في البيان لتقريب حقيقة الإعجاز للعقول، واعتبروا لغة القرآن وأسلوبه في أعلى و أرقى طبقة للبلاغة، وأنه المقياس الدقيق لشتى أنواع الأساليب الكلامية.

وفي مقدمة هذه الدراسات أعمال:

علي بن عيسى الرُّوماني:

يُطل علينا في هذا المجال برسائله الثلاث المعنونة باسم "النكت في إعجاز القرآن"، وبحث فيها

إعجاز القرآن البلاغي ضمن قضية الإعجاز بشكل تام.

¹ وليد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، 1402هـ، 1982، دمشق، سوريا، ص: 25.

فقد قسم الروماني الكلام في حديثه عن البلاغة، إلى ثلاثة طبقات: عليا، ودنيا، ووسطى

وجعل الطبقة العليا هي بلاغة القرآن، والطبقة الوسطى وخصها بطبقة البلغاء والفصحاء، والطبقة

الدنيا وهي دون تلك الطبقات، ثم يجعل البلاغة تتفرع لعشرة أقسام.

يقول الروماني في خاصية التلاؤم: "والتلاؤم في الطبقة العليا من القرآن كله، وذلك بين لمن

تأمله".¹

ومما يلفت النظر في دراسة الروماني لفنون التعبير في القرآن، تعمقه في سر جمال

اللفظة، وبجته عن مواطن العبارة في الأسلوب القرآني، وإنَّ هذا الجمال يكمن في القرآن وفنون التعبير

الأخرى، لذلك قارن بين العبارة القرآنية في أعلى مرتبة، وأنَّ هناك تفاوتاً كبيراً بين بلاغة القرآن

وبلاغة البلغاء.

فأعمال الروماني اللغوية هذه لم تكن وحدها في هذا العصر، بل وقفت إلى جانبها دراسات

أخرى مثل دراسة العسكري والأمدي والجرجاني لتعطي للدراسات اللغوية دفعات حضارية وقوية

مستمرة.

جهود الخطّابي اللغوية:

تمثل أفكار الخطّابي اللغوية في كتابه، هذا مرحلة عظيمة في قضية النّظم القرآني والنّظم

بصفة عامة وعناية بعلاقة الألفاظ ببعضها إلى بعض داخل العبارة أو الآية، وقد قسم الكلام ضمن

هذه الاعتبارات إلى ثلاثة أقسام: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم.

¹ محمد زغلول، أثر القرآن، في تطوير النقد العربي، ص: 241، انظر: أحمد مطلوب، ص: 194، القر ويني، شرح وتلخيص، وشوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 105.

وأنَّ اللفظ والمعنى لا يفترقان، لأنَّ كل لفظ عنده مقرون بمعنى خاص في الذهن، ولا يمكن للمعاني أن تقوم بدون ألفاظ، لذلك أفرد بحثاً للألفاظ تناول فيه الحديث عن الفصاحة، كما خصص بحثاً آخر للمعاني تناول فيه الكلام والبلاغة.

"وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشد تلاءماً وتشكلاً من نظمه"¹.

نستشف أنَّ الإعجاز عنده في القرآن عائد لفصاحة لفظه، وحسن نظمه وتأليفه، ولجودة معانيه وصحتها، وإنَّ أسلوبه في أعلى طبقات الكلام وأرفعها.

وأهم الأمور عنده أن يكون النظم للعبارة حسناً كي يبدو الكلام متألماً غير مفكك، وتأتي المعاني معبر عنها بألفاظ تماثلها وتساويها قدرًا بقدر .

وبهذه النظرة الثاقبة يودع الخطابي بين أيدينا مفتاح نظرية النظم التي انتبه إليها القاضي عبد الجبار، وأكدها عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"، وبذلك يكون الخطابي سابقاً لعبد الجبار في معرفة سر الإعجاز بأنَّه عائد إلى النظم.

وعليه نجد دراسة الخطابي كانت ممتدة لدراسة الرماني في المجال اللغوي بصفة عامة، وللإعجاز بصفة خاصة، وأنَّ نظرتهم الخاصة بالنظم جد متقدمة على غيرها من أعمال السلف السابقين له، أمثال الجاحظ، وابن قتيبة....

¹ عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، دار الفكر، ط1،

أعمال العسكري اللغوية:

ما جاء به من آراء جامعة لفنون القول كانت متأثرة إلى حد بعيد بآراء الجاحظ وابن قتيبة والخطابي.

فقد قسم نظم الكلام في بداية كتابه إلى بلاغة، وفصاحة، فتكلم عن البلاغة وخصها بلمعاني، ثم تكلم عن الفصاحة وخصها باللفظ، ورأى أنّ الكلام عبارة عن ألفاظ ومعان، فأولى عنايتهما لكليهما، بوجود علاقة بينهما، وهي علاقة ثابتة.

يقول: "ومن حسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضيعها، وتمكن في أماكنها، ولا تستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة، إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعمى المعنى، وتضم كل لفظة إلى شكلها وتضاف إلى لفظها".¹

يُدلي العسكري برأيه في نظم الكلام وحسن رصفه داخل السياق، وبأنّ تأخذ الألفاظ مواضعها في العبارة لتأدية دلالاتها من الأمكنة التي يجب أن تكون فيها، بحيث تؤدي دورها الاشتقاقي والنحوي، والصرفي والاجتماعي والصوتي، بقدرة فائقة وعلى أتم وجه من الأداء.

¹ أبو هلال العسكري، الصناعتين، ف2، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1371هـ، 1952، ص:

ويقول أيضا: " وهي في الحقيقة دراسة هامة ظهرت آثارها في الدراسات اللغوية تهدف إلى إبراز مكانة الأسلوب القرآني من اللسان العربي والى مدى الكشف عن مآثر أسلوب القرآن في الذوق".¹

الأمدي وعبد القاهر الجرجاني:

ألّف الأمدي كتاب الموازنة في المقارنة بين شعر أبي تمام، وشعر البحتري، وألّف القاضي الجرجاني كتابه الوساطة للحكم بين المتنبي وخصومه، وهما يمثلان أحسن ما وصل إليه النقد في القرن الرابع الهجري، وتصدى الاثنان إلى أبحاث عامة في النقد فضلا عن المقارنة التي ألفها من أجلها كتابيهما إلى أبحاث نقدية لغوية.

فكلاهما حلل ما ظهر في شعر المحدثين من خصائص بلاغية وسوء النظم وضعفه وركاكته . أولهما: إنّ نظم الشعر عند نقاد هذه الفترة إصابة المعنى، وإدراك الغرض بألفاظ عذبة خالية من التكلف والتطويل والإخلال، مع صحة السبك وحسن النظم، وحلاوة النفس وقرب متناول وانكشاف معنى وكثرة ماء، كما أنّه صياغة حلّيت بالبديع ووشحت بالمحسنات في معنى دقيق عميق".²

¹ وليد مراد، نظرية النظم وقيمها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، دمشق، سوريا، 1402هـ، 1982، ص: 93.

² المصدر السابق، ص: 176.

ثانياً: فقد أدرك الأمدي والجرجاني دور اللفظ في التعبير لاعتماد اللفظ على ما يثيره من المعاني في النفس، ثم لما له من صلة بين المعاني المثارة وغيرها من معاني الألفاظ المنظومة في العبارة الألفاظ واهتما بتألف الألفاظ وتقاربها.

يقول أيضاً: "وكانت العرب إنما تتفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى، وصحته وجزالة اللفظ، واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب"¹.

هذا هو النظم المثالي عندهم، وقد لا يتحقق في شاعر واحد، بل هو قدر مشترك يتوزع بين الشعراء، نظم يمكن أن تدر جماله الفني الدوقي بالدربة وبطول الخبرة، لذل فضلوا الشعر البحري واعتبروه مذهب العرب الأصيل، ورفضوا الصلة بين النظم والعلم .

نضوح الفكر اللغوي في القرن الخامس الهجري:

فمن المتكلمين في الإعجاز القرآني خلال هذه الفترة: أبو بكر الباقلائي، والقاضي عبد الجبار ومن المتأدبين: ابن رشيق القيرواني، وابن سنان الحفاجي.

أعمال الباقلائي في مجال الإعجاز:

فقد تناول في نظره الشاملة قضية اللفظ والمعنى، ودورها في الكشف الخلجات النفسية، وما لدور اللفظ من أثر في الوجدان والمخيلة.

فالمدار في بحثه قائم قبل كل شيء على الصياغة والنظم وعلى العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى، وهي نظرة متطورة مهدت لظهور منهج علمي في مجال المقابلة بين اللفظ والمعنى .

¹ الأمدي، الموازنة، تحقيق: أحمد صقر، عبد الله المحارب، دار المعارف، مكتبة الخانجي، ط4، 1994، ص: 241.

يقول: " إنَّ الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي هي في النفوس، وإذا كانت ذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وما كان واضحا في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن".¹

إذن فطريق النظم للكلام واضح عنده قائم على اختيار الألفاظ للمعاني، والهدف من الألفاظ الإبانة والإفصاح عن المعاني، فاختيار اللفظ شرط لأداء الدلالة الواضحة، فالعلاقة بين اللفظ والمعنى تشير بصراحة للصلة الوثيقة بين اللغة والفكر.
ويقول كذلك:

"إنَّه لا يقف عليه إلا من عرف معرفة بنية وجوه البلاغة العربية، وتكونت له ملكة يقيس بها الجودة والرداءة في الكلام، بحيث يعرف مراتب الكلام في الفصاحة".²
نستنج من قول الباقلاني أنَّ نظرية النظم قضية حسية قائمة على الذوق والحسن والدرية في تمييز أصناف الكلام، حتى يلمس المرء الفرق بين مختلف الأساليب وبين أسلوب القرآن.

ب/ أعمال عبد الجبار في مجال الإعجاز:

تناول في كتابه "المغنى في أبواب التوحيد والعدل"، وفي جزئه السادس عشر على وجه الخصوص، مسألة الإعجاز القرآني، مشيرا إلى أنَّ الأسلوب القرآني في المرتبة الرفيعة، من البلاغة والفصاحة. وهي فكرة سبق أن أشار إليها السلف حسبما تقدم، ومن أجل ذلك تناول الفصاحة التي

¹ الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د ت، د ط، ص: 117.

² الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د ن، د ت، ص: 193_276.

يتفاضل بها الكلام على بعضه الآخر، فهي لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر بضم الكلام على طريقة مخصوصة ونظم معين.

يقول: "اعلم أن الذي قدمناه من أن الكلام إنما يدل بالمواضعة، وأن المتكلم به إذا كان حكيمًا، فلا بد متى تجرد للكلام من يريد ما يقتضيه ظاهره، وإلا كان ملبسًا أو معميًا أو فاعلا فعلا قبيحا، وأن هذه الطريقة تقتضي في جميع الكلام أن يدل على حد واحد"¹.

ويعني في كلامه أن الكلمة الواحدة داخل العبارة لها موضع ومكان تؤدي منه دورها، فإذا تقدّمته بموضعه آخر أدّت دورها مخالفا لوجودها داخل نظم العبارة، وفي انتقالها من موضع لآخر ينقص من قدرتها في أداء المعنى الذي كانت هي من أجله، فإذا أقامت كل لفظة داخل نسق العبارة، والتي بدورها تؤكد صورة المعنى الذي تؤديه العبارة المنظومة .

ومن الشروط التي يطلبها عبد الجبار في العبارة، أن يكون اللفظ قدر المعاني، فكلما اختلفت صورة المعنى فإنّ الكلام سيختلف كما ونوعا لا محالة، وهي الصورة التي طلبها في المقابلة بين اللفظ والمعنى.

ولم يقف عبد الجبار عند هذا الحد من التوضيح، بل تعداه إلى وجوه التفاضل بفصاحة التعبير وإلى الحديث عن أبواب النحو وما ترسمه من فروق دلالية في العبارات، فهو لا يريد الحركات الإعرابية فحسب، بل يشير كذلك إلى ما هو أعمق من ذلك، وأعني به نظم الكلام وهو نفس المعنى الذي أكدّه عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز".

¹ القاضي عبد الجبار، المعنى في أبواب التوحيد والعدل، ج17، تحقيق: أمين الخولي، دار الكتب، ط1، القاهرة، 1380هـ، 1960، ص:276.

قال عبد الجبار: "إن المعاني لا تتزايد و إنما تتزايد الألفاظ".¹

من الواضح أنّ عبد الجبار لم يجعل للفظ صفة ثابتة من حيث هي لفظ مفردة، ولم يجعل لها درجة ثابتة في الفصاحة. لأنها تكون في موضع أفصح منها في موضع آخر.

وقد وقف طويلاً عند قضية الفصاحة حيث جعلها مقابلة لفكرة النظم عند الأشعرية والتي اقترب بها كثير من أفكار عبد القاهر الجرجاني، مدعماً أفكاره بآراء جد متقدمة.

يقول: "واعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بدّ أن يكون لكل كلمة صفة. وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضع التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي هو مدخل فيه، وقد تكون بالمواقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع".²

يشترط عبد الجبار في الفصاحة شروطاً تتحقق في اللفظ والمعنى، وما ينبغي أن يتصف به كل عنصر، أولها جزالة اللفظ وحسن المعنى، وأن يكون لكل كلمة صفة وموضع داخل صياغة العبارة مرتبطة بمعاني النحو والإعراب لتتمكن من أداء الدلالة.

أعمال المتأدبين:

وتبرز أعمال المتأدبين في المجال اللغوي في منتصف القرن الخامس الهجري بآراء حد، متقدمة على سابقتها، ساهمت في تطوير الدراسات اللغوية، وتوضيح العلاقة المبنية بين اللفظ والمعنى على أيدي ابن الرشيقي القيرواني، وابن سنان الخفاجي .

¹ انظر: دلائل الإعجاز، ص: 41_176.

² المرجع السابق، ص: 119_197.

من جهود ابن الرشيقي القيرواني اللغوية:

وجد ابن الرشيقي القيرواني أنَّ اللفظ والمعنى متلازمان ،كتلازم الأرواح في الأجساد الحية، إذ اللفظ جسم روحه المعنى، وما يتصّف به أحدهما يعد وصفا للأخر، وما يعتري الجسم من علل وأمراض تنعكس على الروح والحيوية، فإذا وصف اللفظ بالغرابة أو الإبدال، كان وصفا للمعنى الجاثم وراءه، وكذلك الشأن في المعنى إنْ وصف بالوضوح أو الغموض كان كذلك وصفا للفظ الذي يعرضه ويجلوه، فليس اللفظ والمعنى شيئين منفصلين عن بعضهما، بل هما مترابطان ترابط الروح بالجسد والثوب بمادته، يقول: "اللفظ جسم روح المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته".¹

بمعنى إنْ لم يبرز المعنى في أحسن حلة من اللفظ الجيد، لم يكن للمعنى قدر، فالمعنى صورة واللفظ كسوة، ومن هنا نجد ابن الرشيقي يقف وقفة المتبصر الحاذق في هذه القضية، ليعطي اللفظ قدره في مجال التعبير، والمعنى حقه في مجال المقابلة.

من جهود ابن سنان لخفاجي اللغوية:

ومن الجهود التي اهتمت باللفظ والمعنى نذكر ابن سنان لخفاجي بجهوده اللغوية من خلال كتابه "سرّ الفصاحة"، وهو المعاصر لعبد القاهر الجرجاني، وجد ابن سنان بتفسير الفصاحة وما تنطوي عليه، وما تحويه من صور البيان والبديع، وما لها من دور هي معرفة نظم الكلام، وبيان خصائصه الجيدة والرديئة، في معرفة بلاغة القرآن الكريم فروقا واضحة بين الفصاحة والبلاغة.

¹ ابن الرشيقي القيرواني، العمدة، باب اللفظ والمعنى، ج1، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، د ط، د ت، ص:

ومن أقواله: "إنَّ الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها لتأخذ القسط من الوصف وبوجود أضعافها تستحق الإطراح والذم".¹

يعني أنَّ سر الفصاحة عند الخفاجي، كامن بحسن اللفظ، وجودة المعنى، وفي صور الكلام، وبهذه الجهود اللغوية يكون قد ساهم بدوره في تطوير الأعمال اللغوية التي استمرت بنموها في القرن الخامس الهجري.

الإعجاز في نغم القرآن:

إنَّك إذا قرأت القرآن الكريم قراءة سليمة، وتلوته تلاوة صحيحة، أدركت أنَّه يمتاز بأسلوب إيقاعي، ينبعث منه نغم جميل ساحر يبهر الألباب. ويشرق الأسماع، ويسيل الدموع من العيون ويستولي على الأحاسيس والمشاعر، وأنَّ هذا النغم يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار، والفواصل السريعة، ومواضيع التصوير والتشخيص بصفة عامة.

وملاحظ دائماً في بناء النَّظم القرآني، أنَّه يتنوع تنوع موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه.

يقول السيد قطب: "على أنَّ النسق القرآني قد جمع بين مزايا الشعر والنثر جميعاً، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة، عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر والموسيقى الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، والتقفية التي تغني عن القوافي، وضم ذلك إلى خصائص التي ذكرنا فشانَّ النثر والنَّظم جميعاً".²

¹ ابن خفاجة، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1982، ص: 65.

² سيد قطب، التصوير الفني في القرآن د ط، القاهرة، 1973، ص: 86.

تأمل الصياغة القرآنية في جمالها وصدقها وإعجازها ، وتأمل الصياغة البشرية في رداءتها وتفككها وسماحتها ، وتأمل الصياغة القرآنية في قوة تأثيرها ، وقدرتها على التصوير.

قال الله تعالى: "يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش".¹

شبه القرآن الكريم الناس يوم القيامة بالفراش المبثوث، في ضعفهم وضالتهم وتهافتهم، وشبه الجبال "بالعهن"، "الصوف"، المنفوش في هشاشتها وخفتها.

مشهدان رائعان رسمتهما الريشة الإلهية، فأجادت، وأعجزت، وسحرت، وأدهشت.

قوله عز وجل: "وفجرنا الأرض عيوناً".²

التفجير للعيون في المعنى، وواقع على الأرض في اللفظ، كما أسند هناك الاشتغال إلى الرأس وقد حصل بذلك معنى الشمول هاهنا، وذلك أنه قد أفاد الأرض التي صارت عيوناً كلها، وأن الماء كان يفور من كل مكان فيها، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فليل: "وفجرنا عيون الأرض" أو "العيون في الأرض"، ولم يدل عليه، ولكن المفهوم منه أن الماء قد فار من عيون متفرقة في الأرض، وتجبس من أماكنها فيها".³

من هذا النص يتضح لنا أن عبد القاهر الجرجاني يرجع جمال الاستعارة وشرفها وروعيتها في القرآن الكريم إلى نظمها العجيب البديع.

¹ سورة الفارعة، الآية: 4_5.

² سورة القمر، الآية: 17.

³ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية، وفايز الداية، دار قتيبة، ط1، دمشق، 1983، ص 79.

من روائع التشبيه في القرآن الكريم:

قال الله تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، لَا يُقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا".¹

شبه القرآن الكريم أعمال الذين كفروا في ضياعها، وذهابها إلى غير عودة بهيئة رماد، تذروه الرياح وتذهب به بددا، إلى حيث لا يجتمع أبدا.

تأمل كلمة "رماد" إنها توحى بخفة الوزن، وتأمل "اشتدت" فإنها توحى بسرعة الرياح وتأمل كيف أبرز هذا التشبيه بديع نظم الصورة فيه المتحركة كأنك تراها وتلمسها.

قال الله تعالى: "وَحُورٌ عَيْنٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ"²

شبه القرآن الكريم الحور العين باللؤلؤ المكنون في الصفاء والنقاء والهدوء والصيانة .
إن اللؤلؤ فيه الصفاء والنقاء، وهو أحجار كريمة من شأنها أن تصان ويحرص عليها.

قال الله تعالى: "وَالْقَمَرُ قَدَرْنَا هِ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ".³

شبه القرآن الكريم الهلال في آخر الشهر حين يصير دقيقا نحيفا محدوبا بالعرجون القديم، تشبيه إلهي عجيب، يصور للعين القمر كما تراه، ويصوره للنفس كما تحس به .

¹ سورة إبراهيم، الآية: 18.

² سورة هود، الآية : 41.

³ سورة يس ، الآية: 29.

من روائع الاستعارة في القرآن الكريم:

قال الله تعالى: "وَأَيُّهُ لَهْمُ اللَّيْلِ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ".

استعير في الآية الكريمة (السلخ)، وهو كشط الجلد عن الشاة ونحوها لإزالة ضوء النهار عن الكون قليلا قليلا، بجامع ما يترتب كل منهما، من ظهور شيء كان خافيا، فبكشط الجلد يظهر لحم الشاة، وبغروب الشمس تظهر الظلمة التي هي الأصل والنور طارئ عليها يسترها بضوئه، ثم اشتق من السلخ "نسلخ" بمعنى "نزىل".

وهذا التعبير الفني يسميه علماء البلاغة "الاستعارة التصريحية التبعية".

استعارة رائعة وجميلة، تعكس الضوء والظلام والحياة، وكأئهما جيشان يقتتلان، قد أنهزم أحدهما، فولى هاربا، وترك مكانه للأخر.

قال الله تعالى: "وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ"¹.

استعير في الآية الكريمة خروج النفس شيئا فشيئا لخروج النور من المشرق عند اشتقاق الفجر قليلا قليلا بجامع التابع على طريق التدرج، ثم اشتق من التنفس بمعنى خروج النفس، تنفس بمعنى خروج النور من المشرق عند اشتقاق الفجر.

¹سورة التكويد، الآية: 18.

استعارة قد بلغت من الحسن أقصاه، وتربعت على عرش الجمال بنظمها الفريد، إنها قد خلعت على الصبح الحياة، حتى صار كائنا حيا يتنفس، بل إنسانا ذا عواطف وخلجات نفسية.

قال الله تعالى: " إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ " ¹.

استعير في الآية الكريمة "الطغيان" لا كثرة الماء بجامع الخروج عن حد الاعتدال والاستعلاء المفرط في كل منهما.

ثم اشتق من الطغيان "طغى" بمعنى كثر.

استعارة فريدة، إنها تصور الماء إذا كثر وفار واضطراب الطاغية الذي جاوزه حده، وأفرط في

استعلائه

من روائع الكناية في القرآن الكريم:

قال الله تعالى: " نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ " ².

لقد كنى القرآن الكريم في هذه الآية بكلمة "الحرث"، عن المعاشرة الزوجية.

إنَّ هذه الآية الكريمة والفريدة مما انفرد به القرآن الكريم فهي لطيفة ودقيقة، راسمة، مصورة مؤدبة مهذبة، فيها من روعة التعبير وجمال التصوير، ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن إنها عبرة عن المعاشرة الزوجية ، وتنطوي تحت معانٍ كثيرة تحتاج في التعبير عنها إلى آلاف الكلمات.

¹ سورة الحاقة، الآية: 11.

² سورة البقرة، الآية: 113.

هي تشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجته، وبين ذلك النبت الذي يخرج الحث هو ذلك النبت الذي يخرج الزوج، و ما لكليهما من تكثير وعمران وفلاح، كل هذه الصور والمعاني تنطوي تحت "الحث".

قال الله تعالى: " فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ".¹

هذه الآية الكريمة كناية عن عدم العناد عند ظهور المعجزة، أي لا تعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة، كناية تحمل أسمى عبارات تحمل أسمى عبارات الروعة والتصوير ولطافة الإيجاز، إنها عبرة عن العناد عند ظهور المعجزة بالنار العظيمة، وهذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفير وقوة التأثير.

قال الله تعالى: " فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفِ الْمَأْكُولِ".²

كفى القرآن الكريم "بالعصف المأكول" عن المصير فإن الورق إذا أكل انتهى حاله إلى ذلك.

¹ سورة البقرة، الآية: 14.

² سورة الفيل، الآية: 5.

الفصل الثاني

نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني

المبحث الأول: جهود عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم

لقد تحددت معالم النَّظْمِ واتضحت قسماته على يد عبد القاهر الجرجاني دون غيره، لأنَّ النَّظْمَ قبل عبد القاهر لم يكن مقصوداً عن عمد أو مدروساً بطريقة مباشرة، وإنما هو شيء عفوي نابع من ملاحظات العلماء حين يؤخذون بجمال الشعر أو الإعجاز في القرآن الكريم في داخل هذا النطاق فحسب. أمّا عند عبد القاهر فهو عمل مدروس ومحور يدور حوله كتاب دلائل الإعجاز كله، وهو القصد من تلك الدراسة الواسعة التي أغمضت على أكتاف النحو وعلى تماسك لبناته حتى أنه يرجع كل جمال النَّظْمِ إلى مراعاة أحكام النحو.

وعلى هذا النَّحو يمكن تلخيص أبرز النقاط التي وردت في كتاب عبد القاهر "دلائل الإعجاز" في الإيجاز التالي:¹

نظم الكلام:

1. الألفاظ أوعية للمعاني وخادمة لها.
2. ليس المقصود بالنَّظْمِ ضم الشيء إلى الشيء كيفما اتفق، بل لا بد فيه من تتبع آثار المعاني واعتبار الأجزاء مع بعضها.
3. لا نظم ولا ترتيب الكلام حتى يتعلق بعضها البعض.
4. لا بدّ في النَّظْمِ من أن تتلاقى معاني الكلمات على الوجه الذي يقتضيه العقل.

¹ الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، جعفر دك الباب، مطبعة الجليل، دمشق، ط1، 1400هـ-1980م، ص112.

5. ليس في النَّظْم إلاَّ أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النَّحو أيُّ أنْ تتوخى فيه معاني النَّحو.

6. المهم معرفة مدلول العبارات النحو لا العبارات نفسها.

7. الاستعارة وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النحو.

8. لا ينكر تعلق الفكر بمعاني الكلم المفردة أصلاً ولكن الفكر لا يتعلق بمعاني الكم مجردة عن معاني النحو.

الفصاحة والبلاغة:

أ. الفصاحة والكلمة المفردة:

1. لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، بل تتفاضل في

حسن ملائمة معنى اللفظة لمعنى جارتها لذا قد تكون اللفظة في غاية الفصاحة في موضع

وغير فصيحة في مواضع أخرى.¹

2. معنى الفصاحة في أصل اللغة هو الإبانة عن المعنى وحين توصف الألفاظ المفردة

بالفصاحة فالمقصود بذلك أنَّها في اللغة أثبت وفي استعمال الفصحاء أكثر.

3. الكلم قسمان: مؤتلف: وهو الاسم مع الاسم، والفعل مع الاسم، وغير المؤتلف:

كالفعل مع الفعل، والحرف مع الحرف.

¹ المصدر السابق، ص 114.

ب. الفصاحة والكلام:

1. الفصاحة تكون في المعنى والمزية التي يستحق اللفظ من أجلها الوصف بأنه بليغ عائدة في

الحقيقة إلى معناه.

2. تحدث الفصاحة في الكلم بعد التأليف أي بعد ضمها إلى بعض في الجملة والفصاحة لا

توجد في اللفظ مقطوعة من الكلام، الذي يدخل فيه بل موصلة بغيرها من حيث المعنى

فالمعول عليه في الفصاحة والبلاغة هو نظم الكلام.

3. لا يمكن أن تأتي مزية حسن الكلام من جانب العلم باللغة، بل إنَّها تأتي من حسن

الاختيار ومعرفة مواضع فروق المعاني في النَّحو لدى النَّظم والتأليف، لذا فلا تجب المزية

في الكلام لمعاني النَّحو أنفسها بل تجب لمواقع بعضها من بعض أو لأغراض والمعاني التي

يوضع لها الكلام.

4. الصَّنعة التي تقتضي الحسن في الكلام.

5. العلاقة بين الشكل والمعنى علاقة جدلية لا انفصام فيها إذ لا يجوز أن نأخذ بعين

الاعتبار جانبا واحدا مهما فقط ونهمل الجانب الآخر.

6. الفصاحة والبلاغة وتخير اللفظ عبارة عن خصائص ووجوه تكون عليها المعاني الكلامية

وأغراضها وعن زيادات تحدث في أصول تلك المعاني.¹

¹المصدر السابق، ص: 115.

7. تختلف الصنعة في الكلام عن الصنعة في الأعمال الصناعية ولا سبيل أن تجيء إلى معنى

بيت من الشعر أو فصل من النثر فتؤديه بعينه وعلى صياغته وصنعتة بعبارة أخرى.

8. الكلام نوعان:

- نوع تصل منه إلى الغرض بدلالة المعنى وحده المعبر عنه باللفظ، وهو الإخبار بالحقيقة

كما في "خرج زيد" و"انطلق عمرو"¹.

- نوع لا تصل منه إلى الغرض بدلالة المعنى وحده المعبر عنه باللفظ، بل بدلالة ثانية

وهو الكناية والمجاز.

لذا فالكلام الفصيح قسمان: قسم تعزي المزية والحسن فيه إلى المعنى المعبر عنه باللفظ

كما في الكناية والمجاز، وقسم تعزي المزية والحسن فيه إلى النظم الذي هو توفى معاني

النحو وأحكامه وفروقه.

ث. الفصاحة وربط الجمل:

1. تتجلى الفصاحة في معرفة ربط الجمل ببعضها البعض معرفة (الفصل والوصل)، ولمعرفة ذلك

لا بد من معرفة ارتباط الجملة بالموقف أو المقام الذي يقال فيه الكلام.

2. يستوجب ذلك بيان السامع وتحيد ما يعرف هو ما يطلب معرفته في ذلك الموقف أو المقام.

3. يؤدي ذلك إلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين السؤال والجواب وحالات ذكر السؤال

أو اضماره.

¹ المصدر السابق، ص 116.

4. تعريف البلاغة:

البلاغة هي وصف الكلام بما يلي: حسن الدلالة وتمامها فيما كانت له.

يتم ذلك بتوافر عاملين هما:

- أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته

- أن يختار للمعنى اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له.

ج. معاني الكلام:

1. الكلام خير وأمر ونهي واستفهام وتعجب.¹

2. لا يكون الخبر حتى يكون مخبريه ومخبر عنه وينقسم الخبر إلى إثبات ونفي.

3. لا بد للخبر من مخبر يصدر عنه ويكون موصوفا بالصدق إن كان صدقا وبالكذب إن

كان كذبا.

4. ليس للخبر صفة للفظ ولكن حقيقة الخبر هي الحكم بوجود المعنى أو عدمه، ويسمى

عدم المعنى أو انتقاؤه عن الشيء نفيا.

5. الخبر وجميع الكلام معانٍ توصف بأنها مقاصد وأغراض وأعظمها شأنُ الخبر.

6. إنَّ المتكلم لا يقصد أن يعلم السامع معاني الكلم المفردة التي يكلمه بها، بل يقصد أن

يعلم السامع بها شيئا جديدا لا يعلمها.

¹ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق وتعليق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت،

7. إنَّ ارتباط الكلمات ببعضها وفقاً لمعاني النَّحو أيُّ للمعاني ذات الدلالات الفعلية يعكس

ارتباط التفكير باللغة.

8. الجملة هي أصغر بنية نحوية تعتبر كلام تاماً يمكن السكوت عليه لاشتمالها على المسند

والمسند إليه في أبسط صيغة لمها مجردين عما سيتعلق بهما من كلمات.

9. الإثبات والنفي بحد ذاتهما معنى لذا فإنَّ معنى الخبر هو معنى منفصل عم معنى المخبر

والمخبر عنه.

ح. الخبر:

يُميز عبد القاهر الجرجاني نوعين من الخبر:¹

1. خبر هو جزء من الجملة وهو نوعان:

- خبر المبتدأ نحو "زيد منطلق"

- الفعل "خرج زيد"

2. خبر ليس بجزء من الجملة هو الحال "جاءني زيد راكباً"

فلاحظ مما تقدم أنَّ عبد القاهر الجرجاني يسعى حثيثاً إلى تأكيد الارتباط الشديد بين اللفظ

والمعنى، فتلعب الألفاظ دوراً مهماً بكل ما تملكه من مقومات خلال تعبير معين بدلالاتها لتؤدي

دورها في خدمة المعنى... فكتاب دلائل الإعجاز بما تضمنه من نظام للجملة العربية، هو شرح لنظرية

النَّظم وصلتها بالإعجاز القرآني من خلال استخدامه معاني النحو استخداماً منطقياً بتقريره في كل

¹ المصدر السابق، ص 122.

فصل من فصول الدلائل أنّ لا سبيل لمعرفة الإعجاز إلا بالنظر إلى الكتاب الذي ضمته نظرية النظم مع استقصاء وتأمل.

ويخلص عبد القاهر الجرجاني من هذا النوع إلى وضع نظريته ويحدد المراد من النظم فيقول: "اعلم أنّ النظم ليس إلاّ وضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها"¹.

ويؤكد عبد القاهر الجرجاني ما تقدم بقوله: "فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا - وخطؤه- إن كان خطأ- إلى النظم ويدخل تحت الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له"².

ويرى عبد القاهر أنّه يمكن الوصول بهذه النظرية "النظم" إلى الأسس التي بفضلها بها كلام كلاما ثم يتعاضم هذا الفضل ويزداد حتى يصل إلى الغاية التي لا تدرك وهب الإعجاز فوضع بذلك أساسا موضوعيا لنقد الأدب نقدا تحليليا معللا وقفز به إلى المنهجية المنضبطة، حتى إنّك لتجده يصل بعقله الناقد وذوقه الرفيع وإحساسه المرهف وقدرته البارعة على النقد والتحليل والتعليل إلى ما وصل إليه النقاد وعلماء اللغة المحدثون.

لقد نظر الجرجاني فرأى من العلماء من يرجع الفصاحة إلى اللفظ ومنهم من يرجعها إلى المعنى فاحتشد للرد على الفريقين في حماسة وعنف مستخدما كل مهارته في الحجاج والمجادلة والقدرة على

¹ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 81.

² المصدر نفسه، ص 82، 83.

الإقناع فحمل على الفصاحة إلى تلاؤم الحروف في الألفاظ وردّها إعجاز القرآن إليه، لأنّ ذلك يؤدي إلى نظم الألفاظ على وجه لا تقصد به الفائدة ثم يكون معجزاً.

يقول: " وإنّ تعسف متعسف في تلاؤم الحروف فبلغ به أن يكون الأصل في الإعجاز وأخرج سائر ما ذكره في أقسام البلاغة من أن يكون له مدخل أو فيما له كان القرآن معجزاً كان الوجه أن يقال له: إنّه يلزمك على قياس قولك أن تجوز أن يكون هاهنا نظم للألفاظ وترتيب لا على نسق المعاني ولا على وجه يقصد به الفائدة ثم يكون مع ذلك معجزاً وكفى به فساداً".¹

إذن فمعاني النحو عنده معانٍ إضافية تقوم على قوانين النحو وأصوله ولكن تتجاوزها إلى ما فيها من إضافات إلى أصل المعنى وفروق تتفاضل بها الأساليب...

ب و ومن ثم ينتهي عبد القاهر بعد ذلك إلى الغاية التي وقف كتابه عليها وهي أن إعجاز القرآن في نظمه على نحو مخصص ناشئ من معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيقول: " فإذا ثبت الآن أنّ لا شك ولا مزية في أنّ ليس النظم شيئاً غير توحي النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم تثبت من ذلك أنّ طلب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه لم يعلم أنّها معدنة وموضعه ومكانه وأنّه مستنبط له سواها وأنّ لا وجه لطلبه فيما عداها غار نفسه بالكاذب من الطمع ومسلم لها إلى الخداع"²

¹ الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، د. جعفر دك الباب، مطبعة الجليل، دمشق، ط1، 1425هـ، 1980م، ص60.

² المصدر السابق ص391 وانظر كتاب في البلاغة العربية علم المعاني، محمود نخلة، دار العلوم العربية، بيروت، ط1، 1410هـ-1990م من ص19 إلى 39.

المبحث الثاني: منهج عبد القاهر في تحليل النصوص:

إنَّ منهج عبد القاهر الجرجاني في تحليل النصوص قائم على أساس مفهومه اللغة فإذا كان قد اعتبر أنَّ سر الجودة والرداءة في أي عمل أدبي كامن في لغة الشعر أو الكاتب من خصائص فنية معينة في صياغتها فإنَّه بذلك يردنا إلى المنهج اللغوي الذي سبق أحكامه من طبيعة العلاقات التي تتولد من دلالات الصياغة اللغوية وفعاليتها الخاصة، وخصائص النظم هي في الحقيقة جزء لا يتجزأ من معاني النحو¹.

وعلى هذا الأساس من هذا المفهوم الناضج للنحو وعلم المعاني طبَّق عبد القاهر نظريته في تحليل النصوص واستخراج مكوناتها، فعند تحليله للآية الكريمة: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر وقيل بعدا للقوم الظالمين"² فقد أرجع عبد القاهر جمال هذه الآية الكريمة لخصائص معينة في نظمها وترتيبها واستخدام اللغة فيها على نحو معين.

ولقد حدد ثمانية مواضع كلها من معاني النحو متى أدركت بالذوق الصحيح أدرك معه الفطمة في الآية الكريمة، وهذه المواضع هي:

1. أن نوديت الأرض ثم أمرت.

2. أن كان النداء بـ"يا" دون "أي"

3. إضافة الماء إلى الكاف.

¹ خالد بن ربيع الشافعي، قسم اللغة العربية، كلية المعلمين في جازان، ص: 28

² سورة هود، الآية 44.

4. أن نادى الأرض ثم أمرها بما يخصها ثم نادى السماء وأمرها بما هو من شأنها كذلك.

5. استخدام المبني للمجهول في "وغيض الماء".

6. التأكد والتقدير في "وقضي الأمر"

7. إضمار السفينة في قوله: "واستوت على الجودي"

8. مقابلة قيل في الفاتحة بقيل في الخاتمة.¹

فما هو ملاحظ نجد أن مكانة اللفظة من الساق يمنحها فصاحتها وجمالها، ومجمل المزاي والخصائص التي رسمت ملامح الصورة في هذه الآية الكريمة لم تأت إلا عن طريق النظم.

فسرّ الجمال إذن يعود إلى ترتيب ألفاظها، وتناسق دلالاتها واستخدامها على نحو خاص.

ندرك ذلك كله بأذواقنا فقد أظهر الجرجاني عناصر الجمال في الآية بأسلوبه اللغوي التحليلي فتجلت المعاني في الإيحائية التي أرسلتها الألفاظ، ومع البناء الهندسي لها، وبتوخي معاني النحو وضعنا أمام صورة تجلت فيها آيات الجمال.

ولقد اعتمد عبد القاهر في منهجه التطبيقي على أساس مهم هو إدراكه الذوقي لكلّ المفارقات التي تكون في الاستخدام اللغوي للكلمات، وقد منحته ثروته اللغوية وإلمامه الواسع باللغة القدرة على الوعي بما تحمله الكلمة، من ظلال مختلفة من المعنى بالقياس إلى السياق التي وردت فيه، فمضمون الكلمة عنده يقل أو يكثر بحسب علاقاتها بالموكب المتحرك الذي يشير فيه الكلمة مع ما تقدمها وما تلاها من ألفاظ، وإلى جانب الذوق والإحساس يجب أن يكون هناك ذكاء لمّاح يدرك

¹ أنظر دلائل الإعجاز: ص45، ص46.

بين العبارات من الفروق الدقيقة التي تمتاز بها العبارات وتختلف المعاني، ويؤمن عبد القاهر بأنَّ هذا الذوق الفطري لا يمكن أن يكتسب... وإنَّ عدم هذا الذوق الموهوب فلا جدوى من التحدث معه.¹

وهذا المنهج الذي يفسر القيمة في الأدب بما يكون في اللغة من علاقات هو المنهج الذي تلتقي فيه فلسفة اللغة بفلسفة الفن، ودعوة إلى الالتزام بالمنهج اللغوي في دراسة الأدب ونقده تلتقي من وجهة النظر الحديثة فهو يؤمن إيماناً قوياً بأنَّ الذوق المصفى هو الإحساس الضروري إدراك الجمال ومعرفة أسبابه وأنَّ ذلك طبع موهوب لا بد منه لمن يريد أن يميز بين النصوص جيدها ورديتها وأن يفرق بين الحسن في صورة أخرى.

إنَّ قيمته ترجع إلى جملة من الخصائص التي تميزه عن غيره من مناهج النقد يمكن إجمالها فيما يأتي:
1. أنه أقرب المناهج إلى طبيعة الأدب وذلك إذا فهمت اللغة بمعناها الرحب الغزير الذي لا ينفصل فيها اللفظ عن المعنى ولا الصورة عن التعبير والفكر عن الإحساس ولا النحو عن المعاني والبلاغة.

2. أن التوحيد بين اللغة والشعر سوف يلزمنا بالضرورة بالارتباط بالنص الذي أمامنا والتماس كل الخصائص التي نستخلصها ونستنبطها من العلاقات التي تنشأ بين الكلام وبعضه وبعض.

¹ خالد بن ربيع الشافعي، قسم اللغة العربية، كلية المعلمين في جازان، ص: 31.

3. أنَّ النقد اللغوي بطبيعته نقد منهجي وموضوعي فليس الناقد في هذه الحالة مجرد مستمع بالأثر الفني أو ناقل للإحساسات التي يشعر بها وإنما هو ناقد يعطيك الأسباب المعقولة لاستمتاعك بما يحلل من عناصر وبما يكشف من خصائص لا تخرج عن العلاقات اللغوية.¹
4. ارتباط المنهج اللغوي بالدراسة المستمرة لتطور اللغة وأساليبها وإمكانياته وعلاقاتها بالصورة والخيال والموسيقى والوعي التام بقدرة الشاعر على خلق العالم اللغوي الخاص به والحذر من أساليب الذاكرة أو الأساليب المدرسية المصنوعة أو القوالب الجامدة.

¹ أنظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر) من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ط2، 1993م، ص 426، ص435.

المبحث الثالث: أركان نظرية النظم وأسسها عند عبد القاهر الجرجاني

تقوم نظرية النظم على أربعة أركان لا غير وهي التقديم والتأخير، والحذف، والفروق، والفصل والوصل، وإذا كان الجرجاني قد وضع نظريته ليؤكد على أن ترتيب الكلام في أي إبداع إنما يكون بحسب الأهمية، فإن ترتيب أبوابه على الشكل الذي جاءت عليه في الكتاب هو مهم أيضا ويعتمد على الأولوية التي يراها لكل ركن.

أولا/ التقديم والتأخير:

يبدو أن نظرية النظم التي يقترحها الجرجاني تفترض أن إنتاج الكلام يتم في الذهن أولا على هيئة تركيبية ما، وهي العملية التي تسبق أية عملية أخرى، وهي تتم عن طريق تصور هيئة للكلام الذي يراد من خلالها إيصالها لفكرة ما، وتلك الهيئة تفرض شكلا تركيبيا معيناً ينبنى على أساس من تقديم كلمة ما وتأخير أخرى ليكون وقع الكلام أمضى أو على الحد الأدنى، لكي تصل الفكرة كما يريدتها كاتبها إلى المتلقي بالضبط، وهذا ما يفرض وضع تقديم وتأخير في مقدمة الأبواب التي تعالج مسألة إنتاج الكلام عموماً، لقد وضع الجاحظ اللفظ أولاً في ترتيب بيانه وذلك لأنه يعتقد بأن المسألة تتم باختيار اللفظ الفصيح أولاً وهو أهم ركن عنده¹.

وأما الجرجاني فقد جعل من مسألة الترتيب الذهني والتركيب للكلام المسألة الأولى التي يمكن أن تتم في الذهن ولذا جعلها في بداية ترتيبه لأبوابه، "وبعد أن يضع المؤلف تلك الصورة على الورق، يقوم بوضع بعض الترتيبات اللازمة عليه، لكي تكون بالصورة المثلى، إذ من الممكن أن يتم بعد ذلك كل

¹مجلة الأنبار للعلوم الإسلامية، المجلد الأول، ع1، آذار، 2009، ص: 1.

من الحذف والفصل والوصل، وبالنسبة للتقديم والتأخير فقد استبعد من أمامه منذ البداية التقسيم الذي اتبعه في أسرار البلاغة على ما يفيد وما لا يفيد¹.

وهكذا يتدأ الجرجاني تقسيمه لأبواب التقديم والتأخير على منحى آخر، وهو تقسيم مشوب ببعض الإرباك لا يمكن لنا أن نجد أي تقسيم آخر، وهو التقسيم الذي طرحه في بداية كتابه عن حديثه بشكل عام عن أشكال التعلق التي يحدث بها نظم الكلام ، وهي تعلق الاسم بالاسم، وتعلق الفعل بالاسم، وتعلق الحروف بهما.

أ/ تقديم اسم على آخر أو تأخيره عنه:

وهو ينقسم على تعلق المعرفة بالمعرفة "زيد منطلق" و "المنطلق زيد" وفي هذا التقديم والتأخير يتم تغيير حكم كل واحد منهما ف "زيد" في الجملة الأولى مبتدأ و "المنطلق" خبرا له.

وفي في الجملة الثانية أصبح "المنطلق" مبتدأ و "زيد" خبرا له، وهو تقديم لا على نية التأخير كما أسماه الجرجاني والنحويون قبله، "وهو أن تنقل حكم المفردة من واحد إلى آخر وتجعلها في باب مختلف، وبإعراب مختلف فالفرق كبير بين الابتداء والإخبار، وهو فرق لم يكن ليوجد ضمن إمكانات اللغة لولا فائدة ما، و هذه الفائدة هي العناية والاهتمام على أننا يجب أن نفسر ونوضح طريقة العناية والاهتمام هذين².

¹ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار الثقافة ، الجزائر العاصمة، ط1، 2007، ص: 63_65.

² عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، د ط، د ت، ص:

والقسم الثاني هو تعلق المعرفة بالنكرة كقولنا "زيد منطلق" و"منطلق زيد" وهو تقدم على نية التأخير فمن غير الممكن الابتداء بالنكرة "منطلق" ولذا لا يمكن جعلها مبتدأ ويجب أن تظل خبرا سواء تقدمت أو تأخرت".¹

"زيد" في الجملة الأولى مبتدأ و"منطلق" خبر له. وفي الجملة الثانية ظل زيد مبتدأ مؤخرا وظل "منطلق" خبر له .

ب/ تقديم الفعل أو الاسم وتأخيرها:

وهو ينقسم بحسب أنواع الأسماء والأفعال إلى أقسام:

1/ بحسب أنواع الاسم:

فإذا كان الاسم معرفة فإن تقدم الاسم عليه أو تقديمه هو على الاسم يبرز بالناية والاهتمام أيضا فإذا قلنا: "زيد منطلق" فقد جعلنا زيد مبتدأ، وجعلنا الجملة الفعلية خبرا له، وإذا قلنا: "ينطلق زيد" فقد جعلنا الجملة فعلية فعلها "ينطلق" وفاعلها "زيد".²

في الجملة الأولى أردنا أن نوضح أن زيد هو من يكون منه الانطلاق، بعد ثبوت الفعل، بينما الجملة الثانية نريد أن نثبت الفعل الانطلاق لزيد لا الكتابة أو غيرها.

وإذا كان الاسم نكرة فإنه لا يجوز بقاء النكرة هاته على حالتها فيجب عندئذ تعريفها أو تخصيصها بالوصف أو بالإضافة مثل: "ينطلق الرجل" أو "الرجل ينطلق".
وعند وصفه نقول: "رجل طويل ينطلق" و"ينطلق رجل طويل".

¹المصدر السابق، ص: 84.

²المقال السابق.

وفي الحالتين فإننا نقدم ما يكون تقديمه أولى بسبب اهتمامنا وعنايتنا بتقديمه فضلا عن رغبتنا بتأخير الثاني أيضا عناية لأمره بان يكون مؤخرا لأننا لا نريد الحديث عنه أو لأنه لا يمكن أن يكون بنفس الأهمية الجزء التي يمتلكها الجزء المقدم.

2/ بحسب أنواع الفعل :

الأفعال كلها (الماضي، الحاضر، المستقبل) لها أهمية نفسها إذا تقدمت، وبنالها عدم الاهتمام إذا تأخرت كما هو الحال في كل أشكال التقديم والتأخير، لأنه الأصل الذي يجري عليه هذا الفن. على الرغم من أنها يمكن أن تخرج إلى معانٍ ثانية عند بعض حالاتها، فإذا قلنا: "زيد منطلق" و"انطلق عمرو"¹ فإننا في الجملة الاسمية الأولى جعلنا الأهمية لزيد دون غيره من المنطلقين، وأردنا الحديث عن الانطلاق. وفي الجملة الفعلية قدمنا الفعل لأننا أردنا الحديث عن الانطلاق الوقع من عمرو لا عن عمرو نفسه، على الرغم من أننا أردنا أيضا عن انطلاقه ولكنه يأتي في مرتبة ثانية بالنسبة إلى الحديث عن الانطلاق.

3/ الحرف وتعلقه بالاسم والفعل:

وهنا قاعدتان أولهما أن الحرف لا يدخل على الاسم أو الفعل على انفراد بل يدخل إمّا على جملة فعلية أو على جملة اسمية، وثانيهما أنه لا يمكن أن يكون الكلام من جزء واحدا فقد يسبق الحرف بعض الأسماء أو بعض الأفعال فيكون لوجودها أثر في تقرير معنى الحرف، وما يهم هنا دخوله على الأسماء أو مباشرته لها. وهو على ثلاثة فنون:

¹المقال السابق .

أولهما: وقوع الحرف بين اسمين ويكون ذلك في العطف مثل: جاء زيد وعمرو".

ثانيهما: أن يقع الحرف بين الفعل والاسم مع مباشرته للاسم، وهي حروف الجر كقولنا: "مررت بزيد".

وثالثها: أن يتصدر الحرف صدر الكلام فيتعلق إما بجملته اسمية أو فعلية كقولنا: "ما زيد نائم"، "إن جاءني زيد أكرمته".

ثانيا/ الحذف:

إنَّ الحذف والذكر يتعلق بمفردات يتم به تعديل وضع البنية تلك، وتوجيهها لتكون أبلغ ولذا فهي عملية تالية للعملية الأولى بل عملية توجيهية.

أ/ حذف الاسم وذكره:

يذكر الجرجاني في باب الحذف قائلا: "هو باب دقيق المسلك عجيب الأمر شبيه بالسحر فإنَّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة"¹.

أول أنواع الأسماء المحذوفة طبعا المبتدأ والخبر، وهو في الحقيقة أكثر تأثيرا في المتلقي ذلك أنَّك حينما تبشر الخبر في القراءة تبدأ في التفكير في المحذوف السابق عليه.

ومنه قوله تعالى: "سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا"²، والتقدير هذه سورة أنزلناها وقد حذف منها المبتدأ للدليل يدل عليه.³

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص: 9.

² سورة النور، الآية: 1.

³ أبي هشام الأنصاري، قطر الندى، مكتبة الخانجي، مصر، القاهرة، د ط، 1971، ص: 77.

يرى الجرجاني أنّ حذف الخبر دليل يدل عليه أيضا قوله تعالى: " أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا"¹.

أي وظلها دائم وهي أماكن يجوز فيها الحذف والإبقاء، وهي المواضع التي ركزها عليها

الجرجاني.

ومنه قول الباحثي يمدح المعتز:

شُجُو حُسَّادِهِ وَغَيْظَ عَدَاةٍ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعُ وَاِع²

والتقدير أنّ يرى مبصر محاسنه ويسمع واع أخباره وأوصافه، يقول أنّ المشكلة تكمن في أنّ

المبصرين يرون أفعاله وحسناته، وأنّ السامعين يسمعون بأخبار هذه الأفعال، ولكنّه لم يذكر الأفعال

والأخبار وتناسها ليقول بأنّ السمع والبصر كافيان ليؤكد على أحقية الخلافة للمعتز، ولو ذكر

الباحثي المفعولين، لم يبق للكلام شعرية يمكن أن يتصف بها.

ب/ حذف الفعل:

لم يذكر الجرجاني حذف الفعل أساسا واقتصر في بحث الحذف على المبتدأ والمفعول به من

بين جميع أنواع الحذف، قال ابن هشام بخصوص حذف الفعل في باب الاشتغال:

"يجوز في الاسم المتقدم أن يرفع بالابتداء وتكون الجملة بعده في محل رفع على الخبرية وأن

ينصب بفعل محذوف وجوبا يفسره الفعل المذكور فلا موضع للجملة حينئذ لأنّها مفسرة"³.

¹ سورة الرعد، الآية: 35.

² ديوان الباحثي، مج: 1142، والقصيدة برقم 499، في مدح المعتز، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ط1، 1972.

³ أبي هشام الأنصاري، قطر الندى وبل الصدى، مكتبة الخانجي، مصر، د ط، 1971، ص: 79.

ومثاله: "زيد ضربته" ويجوز "زيدا ضربته" بتقدير: ضربت زيدا ضربته، ومن الملاحظ هنا بأن المحذوف يكون محذوفا وجوبا إذا استعملنا حكم النصب فقط مع الاسم الأول وأما إذا رفعناه فلا مشكلة حينئذ في الجملة.

ج/ حذف الحرف:

لم يذكر الجرجاني أيضا حذف الحرف مع أنه فيه بعض الأمور التي يمكن أن تقدر بعض الفوائد للتحليل البلاغي ومنه مثلا: حذف ربّ كقول امرئ القيس:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْحَى سُدُورَهُ
عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لَيْتَلِي

"وحذف بعض حروف الجر في بعض المواضع، أمنا عن اللبس قياسا وسماعا"¹، وهو النمط الوحيد الذي يتوفر على قدرة بلاغية لطيفة، وهذا ما أسماه الجرجاني مبدأ التناسي فالقارئ يقرأ النص ويعتقد بأن القراءة بدون حرف الجر هي قراءة ممكنة.

ثالثا/ الفروق:

وضع الجرجاني عنوانا غريبا لهذا الباب وهو الفروق في الخبر وكان يقصد بذلك الخبر بشكل عام سواء كانت جملة إنشائية أم خبرية. ولذا يقسم الخبر إلى نوعين هما: "الخبر الذي يكون جزءا من

¹المرجع السابق، ص: 162.

الجملة لا تتم الفائدة بدونها وهو خبر المبتدأ في الجملة الاسمية والفعل في الجملة الفعلية، وهو الأصل في الخبر أو في الفائدة¹.

والقسم الثاني من الخبر هو كل الباقي من أنماط الكلام، وعلى رأسه الجملة الحالية، وهو الخبر الذي لا يكون جزء من الجملة ولكنه زيادة في خبر آخر سابق عليه يأتي الحال ليوضحه ويزيد عليه كقولنا: "جاء زيد راكباً".²

رابعاً/ الفصل والوصل:

فالفصل والوصل يعتبرهم الجرجاني الركن الأخير في نظرية النظم وفي عملية الإنشاء الكلامي، فبعد أن يكمل المؤلف في اختيار الجمل ووضعها في موضعها، ينبغي أن يفكر في علاقاتها فيما بينها، فيما إذا كانت متساوية أو متوازية، وفيما كانت متشابهة أو متناقضة، فتجري عمليتي الفصل والوصل على هذه الأسس وهكذا يكون الانتقال مرحلياً من التقديم والتأخير داخل الجملة الواحدة لكي تنتج الفكرة السليمة بنيتها الصحيحة.

وما يؤكد هذه الفكرة قول عبد القاهر الجرجاني: "أنّ العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 126_122.

² المصدر نفسه، ص: 122.

أسرار البلاغة ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الإعراب الخالص والأقوام طبعوا على البلاغة وأتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بما أفراد".¹

ومن المعلوم أنّ الفصل والوصل يمكن أن يقع بين الجمل الفعلية، وبين الجمل الاسمية، وبين شبه الجمل وليس لدينا غير هذه الأشكال الثلاثة من التركيبات النحوية. وهي تتفق تماماً مع الاسم والفعل والحرف.

أسس نظرية النظم:

لم يكن "عبد القاهر الجرجاني" بد وبين يديه مقاييس في تحليل بنية النصّ الأدبي، وفصاحته من أن يعيد التأسيس. شأنه في ذلك شأن كل ذهن عبقرى يجد نفسه في ملتقى طرائق التحليل المتنوعة للظاهرة الواحدة، فكان منه أن وضع مفهوماً جديداً للنظم لم يسبقه إليه أحد من قبله. ويقوم النظم عند الجرجاني على:

1. توخي معاني النحو:

إنّ النحو نظام اللغة وقانونها الصارم، وهو الواقي من الخطأ ويرى الجرجاني بأنّ النظم لا يحصل إلاّ بترتيب الألفاظ التي هي خدم للمعاني وخاضعة للنحو، وتوخي النحو يقصد به توخي تلك المعاني التي لا تخالف المنطق العقلي، ولا اللغوي، وتوخي النحو يعني مراعاة الذوق الدقيقة في مراعاة التأليف، فينظر مثلاً في الخبر وضروبه ووجوهه مثل القول: "زيد منطلق، زيد ينطلق، ينطلق زيد

¹. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط ، د ت ، ص:

منطلق زيد، المنطلق زيد، زيد هو المنطلق، زيد هو منطلق¹، فيتم النظر في الخبر و الوجوه التي يقتضيها، والشرط وحالته، والحال و الوجوه التي تراها فيه مثل قولك: "جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، وجاءني وهو يسرع، وجاءني وقد أسرع"²، ومعرفة موضع كل منها ومتى يجوز استعماله وهكذا يتبين أنّ النّظم يقوم أساساً على معاني النحو وبدونه فلا قيمة لنّظم ولا استقامة له.

كما يرى الجرجاني أنّه من عوامل مراعاة النّحو؛ عامل التقديم والتأخير هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن واسع التصرف جيد العناية لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أنّ راقك ولطف عندك أنّ قديم فيه شيء وحول اللفظ عن مكانه إلى مكان.

2. لا فصاحة للفظة المفردة:

وهذا ما تكرر في كلام الجرجاني غير ما مرة وهذا بمراعاة العلاقات النحوية التي تفيدها في الجمل، وهو ينكر وجود جمال اللفظة خارج نطاق النّظم، وهذا يتضح من خلال جمال اللفظة في مكان وقبحها في مكان آخر.

قول الباحثي:

أبي وإن بلعنتني شرف الغنى أحققت من ريق المطامع اخدعي

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص:

² المنتقى الدولي الأول في المصطلح النقدي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، يومي 09 و10 مارس 2011.

وقول أبي تمام:

يَا ذَهْرٍ قُمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْحَجَتْ هَذَا الْأَنَامُ مِنْ خَرْقِكَ

فترى كيف أنّ لفظة الأخدع كانت جيدة في قول البحتري، وقبيحة في قول أبي تمام، وعليه فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي مجردة ولا مفردة (الجانب المعجمي)، وهذا لا يدل على حذاقة اللغة بقدر ما يدل عليه معرفة ضم الكلمات بعضها إلى بعض، والجرجاني موقفه في النظم ثابت قائم على المعنى ويرفض تفاضل اللفظ مفردا، ويرى أنّ الألفاظ المنظومة لاحقة للأفكار فهو يترك الترتيب لمرحلة لاحقة بعد أن تكون المعاني مقدرة في النفس وهذا تصريح بأولوية المعنى.¹

يقول الجرجاني: "وإنّ العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في

المنطق"².

نستنتج أنّ الجرجاني يؤكد على أنّ يكون اللفظ تابع للمعنى في سياق نفس السياق، فهو يرى أنّ العبرة في مدلول العبارات لا في العبارات نفسها، وعليه فالمعاني تتزايد وإنما تتزايد معلق بالألفاظ والربط بين اللفظ والمعنى ولا يكون إلا عن طريق معاني النحو واحترام قواعده.

¹ جودت فخر الدين، شكل القصيدة العربية في النقد العربي في القرن الثامن الهجري، منشورات دار الآداب، بيروت، ط1، 1984، ص: 53 .

² المرجع السابق، ص44.

نظرية النظم تقوم على أساس المعاني إذ لا قيمة للألفاظ المفردة؛ إذ هي تابعة للمعاني لاحقة لها لا يتم التعبير دون مراعاة معاني النحو، يقول الدكتور: "فالمعنى هو كيفية النظم على عكس ما كان يعتقد من أن المعنى يوجد ما قبل النظم يستدعى عاريا ويؤدي بهذه النسبة أو تلك"¹.

راح الجرجاني في مواضع عديدة من "دلائل الإعجاز" يرد على الذين قالوا بتقدم اللفظ دون معرفة المعنى، ومن ذلك يتضح بجلاء تفريق الجرجاني بين اللفظ وبين صورة المعنى، وبشكل خاص حينما يفسر قول الجاحظ "المعاني مطروحة في الطريق"²

ويرفض الجرجاني القسمة التي تداولت بين النقاد قبله وهي اعتبار الشعر لفظاً ومعنى لا ثالث لهما. فقد عاب هذا على أولئك النقاد وعلى الأخص ابن قتيبة، و اعتبر الصورة مع اللفظ والمعنى ووهي تعبير عن النظم؛ إذ لا يوجد في نظره معانٍ عارية، إنما هناك معانٍ خاصة هي الصورة، فهو يرى لا وجود لمعنى دون لفظ، وبذلك يقترب من توحيد اللفظ بالمعنى في حيز الدلالة"³

ومن خلال هذا نستنتج أن كل من الجرجاني وابن قتيبة يتفقان على ثنائية اللفظ والمعنى، إذ لا يمكن الفصل بينهما.

3. النظم والجانب العقلي والنفسي:

بما أن اللغة عند الجرجاني هي المنطق و التصور الذهني أو هي ما يقوم به المتكلم والمخاطب من علاقات فإنَّ النظم قائم على التفكير والتروي ويقول الجرجاني : "وجملة الأمر أنه لا

¹ المرجع السابق، الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص302.

² المصدر السابق، ص284.

³ جودت فخر الدين: شكل القصيدة العربية، ص60.

يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصفة، وإن لم يقدم فيه ما قدم، أو ولم يؤخر ما أخر، و بدأ بالذي ثنى أو ثنى بالذي ثلث به لم تحصل لك تلك الصورة و تلك الصورة"، وعليه فالفكرة تكون قبل النطق بها والجانب العقلي هو العامل الأساسي في عملية النظم¹.

4. التأليف بطرق التعلق:

ويقصد بالتعلق الإسناد فلا فعل دون فاعل، فالجرجاني يعد النحو هو النظم ولا نظم دون توخي معاني النحو، ونقد الجاحظ حين قال بأن الشعر صناعة فرد عليه بأن الصنعة تهتم بالشكل فقط ولا يمكن للنظم أن يقوم على اللفظ فقط، ويصح أن تقول أن التأليف بطرق التعلق تنتظمها معطيات داخل الجملة بشكل تام متكامل ليحصل النظام اللغوي، و يكون ذلك بترتيب المعاني في النفس أولاً ثم التعليق على الأصوات والألفاظ وما تؤديه من معاني ويليه ترتيب الكلم ثم اعتماد معاني النحو.²

5. اللفظ والمعنى:

تعد قضية اللفظ والمعنى من المشاكل المهمة في علم الجمال الحديث وشغل بها النقاد القديم قبل أن يعالجها النقاد الحديث، وقد تحدث فيها النقاد على المعاني الجمالية الموضوعية التي تعد من أسس الحكم على العمل الأدبي من الناحية الفنية، وقد أولى النقاد العربي القديم كبيراً اهتماماً بالمسألة وانقسم النقاد فيها فرقا وأقساماً: أصحاب اللفظ، أصحاب المعنى، ثم الذين جمعوا بينهما عبد القاهر الجرجاني ممن نص على وجوب اتحاد المعنى بالمعنى، وامتزاج الصورة بالمادة، وتكافؤ الشكل مع

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 284.

² المصدر نفسه، ص 140.

المضمون، مرد ذلك أنه نشأة لغوية وكانت له عناية فائقة باللغة والنحو حتى لقب بعبد القاهر النحوي.

إنَّه أوَّل ما يعترضك في هذا النَّص الذي بين أيدينا قوله: دليل على أنَّ الإمام ينهج منهجا جدليا يشبه بالمنهج الجدلي عند المتكلمين وهذا طبيعي لأنَّه نشأ في بيئة كلامية صرفة منهجها سبط آراء المعارضين ثم الرد عليها ويتبع ما سبق قوله:¹ "وذهب الشيخ" ويقصد به أبو عمرو لشيبياني واستعمل "ال" التي تعطيه الوقار والاحترام.

إنَّ أوَّل ما يتوقف عند القاهر الجرجاني في نص الجَّاحظ أمرين:

1. اعتبار الجاحظ أنَّ سبيل الكلام هو سبيل التصوير والصناعة "إنَّما الشعر صناعة وضرب من التصوير"²

وهو في نظر عبد القاهر الجرجاني التصاق صرف بالألفاظ والجانب الشكلي من الكلام حيث أنَّ ذلك سلب للمزية والفضيلة لأنه محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر إلى مجرد معناه.

2. قول الجَّاحظ: المعاني مطروحة في الطريق إذا انطلقنا من أنَّ الجَّاحظ أستاذ لعبد القاهر فهنا أنَّه يناصر وليس متعصبا ولا مبالغا كما يذهب البعض.

¹ عبد العزيز عبد المعطي عرفة: تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، ط1، 1983، ص06.

² المرجع السابق، ص197.

ونلاحظ أنه يردد نفس الكلام في كتاب البيان والتبيين قائلاً: "كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات"¹

لقد اعتبرت كتب البلاغة والتقد أن الجاحظ من أنصار اللفظ ولكن عبد القاهر الجرجاني عندما درس كشف النقاط عن رأيه (الجاحظ) فنسب إليه في البداية كما نلاحظ في النص أنه من أنصار اللفظ ثم أضاف إليه كلمة "النظم" وهو شيء لم يقل به الجاحظ وما ذلك إلا نابع من منهجية الجرجاني التعليمية التي تهدف أن توصل إليك تدريجياً.

فأوضح الجرجاني أنه ليس من أنصار اللفظ، إذ الجاحظ يرفض أن يكون حسن الكلام من لفظه ولا في معناه بل في تنسيقه وتركيبه وفي تراصه ويتضح ذلك من قوله:

" والشعر صناعة وضرب من التصوير"²

فالمعاني مطروحة في الطريق ولكن الفرق يرجع في الصياغة فالمسرح الواحد ولكن الصور تعدد وتختلف باختلاف الصياغة فالمعاني واحدة لا تتجدد وإنما تصاغ بأحاسيس ومعاناة جديدة.

إنَّ الحديد في هذه الأحاسيس والمعاناة هو "الأنا" لأن شكلها منفرد وبيئتها خاصة ومعاناتها مستقلة ثم التعبير عن مثل هذا لا يجب أن يكون مثله.

عبارة الجاحظ نرى فيها توهم كلها، وأنَّ الفضيلة في جانب الألفاظ عندما يستقيم وزنها وتكون سهلة المخارج جيدة السبك ويكون الأديب في هذه الحال كمن يقوم بالصنع وتخير الألوان لتناسب بعضها البعض، أمَّا المعاني فهي مطروحة في الطريق.

¹ الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخفاجي، القاهرة، دط، دت، ج1، ص144.

² المصدر السابق، ص 145.

وقد أوضح الجرجاني الصرفي مجيء عبارة الجاحظ عما وردت فيه بأنه لما كانت المعاني إنما تتبين بالألفاظ وأن لا سبيل لترتيبها وجمع شملها إلا ترتيب الكلام في نطقه فكُنُوا على ترتيب المعاني بالألفاظ، ثم بالألفاظ بحذف الترتيب. فالمراد من قوله: "ذهب الشيخ إلى استحسان المعاني"¹ هو استحسان أبي عمرو الشيباني لقول من قال:

لا تَحَسَبَنَّ المَوْتَ مَوْتُ البَلَى إِنَّمَا المَوْتُ سُؤْالِ الرِّجَالِ
كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنْ أَخَفُّ مِنْ ذَاكَ لَدَلُّ السُّؤَالِ

ذلك أن ليس تحت هذين الشيعين شيء يستحق أن يستحسن وإنما تحيز لهما الشيخ لما في البيتين من معنى الوعظ والتنفير من ذل السؤال "فالمعاني التي حكم الجاحظ بإطراحها في الطريق هي أصول المعاني"² المشتركة بين جمل الناس عربهم، وعجمهم، وبدويهم ومدنيهم، ومن سوء التقدير أن يخطر بأوهام أحد الناس أن الجاحظ يسوي بين المعني كلها عند الناس جملة وهذا ما أورده عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز.

أما جودة السبك فهذه هي الصناعة والصياغة والنسج والتصوير كلها أمور عائدة إلى المعاني، لا إلى الألفاظ فهو حين يرتب معانيه في نفسه ويصورها للمستمعين في ألفاظها تخرج مسبوكه فتظهر فيها صناعته، وصياغته، نسجه وتصويره، فإن أحسن ترتيب المعاني في النفس حسنت تبعاً لها وإن أساءت لك أساءت هذه فإتاما الألفاظ على أقدار المعاني.

¹ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 51.

² الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخفاجي، القاهرة، ج 3، د ط، د ت، ص 132.

ومنه نستنتج أنّ عبد القاهر الجرجاني قد بين أنّ كلام الجّاحظ ليس على ظاهره وحجته أقوى وأجمع من هذر بعض الباحثين فتطرّق في كلام الجّاحظ ومقدار صلته بالفصاحة أولاً في مقدار صلته بالألفاظ.

ومنه نستخلص أن للنّظم خصائص هي في الحقيقة جزء لا يتجزأ من معاني النّحو ففي قوله تعالى: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ"¹

يرجع عبد القاهر الجرجاني جمال الآية إلى المواضيع التالية:

1. أن نوديت الأرض ثم أمرت "يا أرض ابلعي"
2. أن كان النداء بـ"يا" دون "أي" يا أرض— يا سماء
3. إضافة الماء إلى الكاف: ماءك.
4. أن نادى الأرض وأمرها بما يخصها وما هو من شأنها كذلك.
5. استخدام المبنى للمجهول في لفظة "وغيض"
6. التأكيد والتقرير في "وقضي الأمر".
7. إظهار السفينة في قوله: "واستوت على الجودي"
8. مقابلة قيل في الفاتحة مع قيل في الخاتمة

¹ سورة هود، الآية 44.

وهكذا نفتخر بأنَّ شيخنا الفاضل وما وصلت إليه العقلية الغربية مع اللسانيات التوليدية في إطار ما سمَّوه بنظرية "تماسك النَّص".

والملاحظ أنَّ عبد القاهر الجرجاني اعتمد في ذلك على الذوق الناضج السليم الممتاز، والقريحة الوقادة التي لا يمسهها ماس إلاَّ من شحن من كبريائها لكي يدرك أسرار الجمال، إن المعنى يتألم ويتظلم إذ لم يؤد بالعبارة الصحيحة، فذوقه علمي مما جعل نظريته تتجاوز لحظة ولادتها.¹

¹ خالد ربيع الشافعي، قسم اللغة العربية، كلية المعلمين، جازان، ص: 30.

الفصل الثالث

نظرية النظم وأفاقها في الدراسات الحديثة

مقارنة بين عبد القاهر الجرجاني ونعوم تشو مسكي

المبحث الأول: النظرية السياقية للاستعارة وتمثالاتها في كتابات عبد القاهر الجرجاني

ترتكز النظرية السياقية للاستعارة على أنّ الاستعارة عملية خلق جديد في اللغة، وداخل لغة فيما تقيمه من علاقات جديدة بين الكلمات، وبها تحدث إذابة لعناصر الواقع لميعاد تركيبها من جديد وهي في هذا التركيب الجديد كأثما منحت تجانسا، كانت تفتقده، وهي بذلك تبث حياة داخل الحياة التي تفرق أنماطها الرتيبة. وبهذا تضيف وجودا جديدا أي تزيد الوجود الذي تخلقه علاقات الكلمات بواسطة تشكيلات لغوية عن طريق تمثيل جديد له.

"بحيث تصبح الاستعارة هي العنصر الذي لا بدّ منه لربط سياقين، ربما يكونان بعيدين جدا أو على الأقل في النهج العادي للحياة غير مرتبطين" ¹.

إنّ النظرية السياقية تعطي أهمية كبرى لعملية الفهم الاستعاري، وذلك بالرجوع إلى السياق والقرينة وتعد السياقية دلالية، من حيث الروح والمعنى، وهكذا تختلف عن النظرية الانفعالية وعن النظرية الشكلية في رفضها الاعتماد على التشابه فقط، وعن النظرية القصصية في رفضها التفسير المنطقي بالاعتماد على المبادئ المتمثلة في التفسير والتأويل، وتتفق النظرية السياقية مع النظرية التفاعلية بتركيزها على أنّ اختلاف المفهوم الاستعاري، يتعلق باختلاف السياقات والقرائن التي تدخل في بنية ذلك المفهوم، ولكنها لا تعرض نظرية المواقع المشتركة التي تحدث عنها ماكس بلاك ².

¹ رجاء العيد، فلسفة البلاغة بين التقنين و التطور، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1979، ص 157.

² أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صفاقس، سنة 1998م، ص: 90.

وقد تحدث أنصار النظرية السياقية عما يسمى بـ"عالم الكلام" وذلك أثناء ردهم على أصحاب النظرية الاستبدالية للاستعارة الذين فشلوا في تحديد بعض المصطلحات، التي تكلموا عنها وبخاصة المعنى الحرقي للكلمة.¹

وهناك طريقتان رئيسيتان تتبعهما الكلمات في اكتساب معانيها المتعددة، الطريقة الأولى يمكن توضيحها بالكلمة الإنجليزية "عملية"، هذه الطريقة تبدأ بمجرد حدوث التغيير في تطبيق الكلمات واستعمالها، ثم يتلو ذلك المتكلمين بالحاجة إلى الاختصار في المواقف والسياقات التي يكثر فيها تكرار الكلمة بشكل ملحوظ، ومن ثم يكتفون باستعمالها وحدها للدلالة على ما يريدون التعبير عنه.

ويقابل هذا الطريق التدريجي إلى تعداد المعنى طريق آخر قصير، يتحقق في الاستعمال المجازي فمثلا المعنى الحقيقي للكلمة هو "طير لكركر"، أما المعنى المجازي فهو آلة رفع الأثقال أي ما تعرف بالرافعة، والمعنى الحقيقي للكلمة "أسد" هو الحيوان المعروف، أمّا المعنى المجازي فهو "إنسان الشجاع" على سبيل الاستعارة.²

إنّ هذه اللاحدودية هي القانون الأول في اللغة، وهي تشير إلى مرونة اللغة وحركتها، إذ أن الكلمات تستخدم بطرق مختلفة، لتعبر عن تجارب جديدة ومتنوعة، فتحدد المعنى الذي تشير إليه الكلمة يعتمد بشكل كبير على معرفة حقل تلك الكلمة أو البيئة الخاصة بها، إذ توجد حقول وبيئات فنية مختلفة ومتعددة.³

¹ ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، سنة 1975م. ص: 115.

² المرجع نفسه، ص: 115.

³ المرجع نفسه، ص: 116.

وعليه أنّ كل حقل من الكلمات والمصطلحات، طرقة الخاصة به من التحويل والتغيير، وتكون الجمل ذات معنى إذا كانت تعمل وفق للافتراضات الضمنية لذلك الحقل، وتلك البيئة الفنية الخاصة بتلك الجمل والكلمات.

ويطرأ التغيير بالنسبة للاستعارة بشكل أساسي على صفة الكلمة ومجالها، وهكذا فإنّ الصبغة أو الخاصية التي تطبق على كلمة، ما قد تنفصل بشكل فعال عن الحقل الأصلي، الذي تنتسب إليه أصلاً، وتطبق وتستخدم في حقل غريب منظم ومرتب، وبتالي فإن هذه الكلمة تحمل معها إعادة تكييف وفق للظروف والحقائق، ولكي تتأقلم مع بقية الشبكة المشكّلة للكلمات الأخرى في ذلك الحقل الغريب.

لقد أيّد نيلسون كندمان المدخل السياقي لدراسة الاستعارة، وذلك أثناء حديثه عن الاستعارة في كتابه الموسوم "لغة الفن"، وبين أن الاستعارة هي إعطاء كلمة قديمة ذات معانٍ وخصائص جديدة وتحدث عما يسمى بالزمرة التي تنتسب إليها الكلمات، في بنائها الجديد، والحقل أو العالم الأصلي الذي ترتد إليه الكلمات. والذي يتكون من مجموعة من المصطلحات تجمعها على الأقل صبغة أو خاصية مشتركة واحدة.¹

وحاول يوربان أن يحدد مفهوم المعنى الحرّفي، وذلك لتسهيل عملية التفسير الاستعاري من جهة واستنباط طريقة معينة للوصول إلى المعنى الاستعاري من جهة أخرى.

¹ أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، سنة 1998م، ص: 94.

وقد طبقت هذه الطريقة على نظريته الثلاثية للمعنى وهي¹:

1. التعبير، وهو الكلمة أو الكلمات.

2. المعبر عنها بالشيء

3. الكلام المشترك، الاتصال

وعليه فإنَّ أنصار النظرية السياقية للاستعارة يرون أنَّ الكلمة لا يمكن أن تفهم إلاَّ من خلال الساق وعلاقتها مع الكلمات الأخرى؛ وللسياق أهمية كبيرة في تحديد المعنى وتوجيهه، ومعظم الكلمات من حيث المفهوم المعجمي دالة على أكثر من معنى واحد، فالذي يحدد هذه المعاني ويفصلها، هو السياق في مورد النَّص.

إنَّ القضية تحت الدرس قد تم التعبير عنها بموجب نوع معين من القوة الالكلامية دون غيره، ويكون السياق في الحالات الثلاث هذه ذا علاقة مباشرة، بتحديد ما يقال حسب المعاني المرتبطة المتعددة التي تحملها الكلمات.²

وترتبط بقضية الفهم الاستعاري و علاقته بالسياق قضية أخرى أثارها كريس في كتابه حول المعنى وفهمه، وهذه قضية التضمين، إذ إن معنى الكلمة الواحدة أو الجملة، قد يتضمن معنى آخر مرتبط بالمعنى الأول ومتداخلا معه.

ويلاحظ أنَّ جزءاً كبيراً من الاهتمام الذي أثارته كتابات كريس عن حالات التضمين ينشأ عن قدرته الإيضاحية، لمجموعة متنوعة من الظواهر التي تقلق علماء الدلالة الشكلي، وتشمل هذه الظواهر

¹ المقال السابق، ص: 96.

² جونز لينز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، مراجعة: نبيل عزيز، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1987، ص222

التفسير المجازي، وأفعال الكلام غير المباشر، والتناقضات.... فمثلا عند النظر إلى جملة: "محمد أسد"، يلاحظ أنها سليمة التركيب من الناحية الدلالية، وأن القضية التي تهدف التعبير عنها، ليست تناقضا، إنَّ لـ: محمد أسد "تفسيرا حرفيا غير تناقضي، وإن استخدمت كلمة "محمد" لتشير إلى إنسان بل هناك أنواع متعددة من الظروف الاعتيادية، قد تطبق فيها "محمد أسد".

إشارة إلى "رجل أو ولد" لتأكيد قضية صادقة، فعلى سبيل المثال قد يقوم محمد بدور الأسد في تمثيله من الحيوانات، وعندئذ تكون القضية "محمد أسد".

ويؤكد ريتشارد على أن الشكل لا يمكن الشعر أن ينفصل عن المضمون، ومن أراد أن يقرأ الشعر فلا بد أن يضع هذه الحقيقة في ذهنه، إذ أن الشاعر يوسع من معنى المصطلحات و يزيد في تفاعلها، ويرى أنَّ الاستعارة تعني وجود فكرتين لشيئين مختلفين يعملان معا: المشبه، والمشبه به، هما مرتكزان على فكرة أو عبارة مشتركة بينهما، وينتج المعنى نتيجة التفاعل بين الحدين والشيئين.¹

وقد أوجد أوجدن وريتشارد في مثلهما الأساسي المشهور أن هناك ثلاثة عوامل تتضمنها أية علاقة رمزية وهي:²

العامل الأول: الرمز نفسه وهو عبارة عن الكلمة المنطوقة المكونة من سلسلة الأصوات المرتبة معينا.

¹ المقال السابق، ص: 96.

جونز لا ينز، ترجمة: عباس صادق الوهاب، مراجعة يونيل عزيز، دار الشؤون الثقافية، بغداد، سنة 1987م، ص: 236 وما بعده، دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة: يونيل يوسف عزيز، سلسلة أفاق عربية، بغداد، سنة 1985م، ص: 34. ميشال زكريا² الألسنية "علم اللغة الحديث" المبادئ والأعلام، المؤسسة الجامعية، بيروت، سنة 1983م، ص: 73.

العامل الثاني: المحتوى العقلي الذي يحضر في ذهن السامع حينما يسمع الكلمة وهذا المحتوى العقلي قد يكون صورة بصرية أو صورة مهزوزة، أو حتى مجرد عمليات الربط الذهني طبقا للحالة المعينة، وهذا ما أسماه هذان العالمان بالفكرة أو الربط الذهني .

العامل الثالث : الشيء نفسه الذي ارتبط ذهنيا بشيء آخر، وهذا الشيء قد سمياه المرتبط ذهنيا، وقد أوضحت العلاقة الحاصلة بين هذه المصطلحات الثلاثة بصورة مثلث¹ .

ولقد ميز ريتشارد بين الاستعارة اللغوية والاستعارة العقلية، والاستعارة العقلية، وبين أن الاستعارة ليست فقط انحرافا لفظيا، لكلمات معينة، إنما هي كذلك تفاعل بين السياقات المختلفة يقول: "إن النغمة الواحدة في أية قطعة موسيقية لا تستمد شخصياتها و لا خاصيتها المميزة لها إلا من النغمات المجاورة لها، وإن اللون الذي نراه أمامنا في أية لوحة فنية لا يكتسب صفته إلا من الألوان الأخرى التي صاحبتة و ظهرته معه"².

ورأى هريت أنّ القوة التي تمنحها البلاغة في الأسلوب تظهر أولا بطريقة رصف الكلمات، ثم بعلاقتها بالفكرة، هذه العلاقة نفسها هي التي تعطينا القدرة على العرض أو التعبير .

وهكذا فالاستعارة ليست منفصلة عن اللغة، بل لها علاقة عضوية منبثة داخل البناء اللغوي، وعلى ذلك نستطيع أنّ نصف الاستعارة بأنها "الأم الأبدية للكلام" بمعنى أن هذا الخلق الجديد الذي يتخلف بواسطتها تشكل في معماريته أنماط متعددة "تمتزج" و "تتوحد"، ومن خلاله

¹ أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، جامعة صفاقس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1998، ص 98 .

² أحمد عبد السيد الصاوي، فن الاستعارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ص: 126.

تتحول الأشياء إلى كينونة خاصة تظل بنا إلى مطلات جديد، وعن طريق الحدس حيناً، وعن طريق الخيال حيناً آخر.¹

إنَّ معالجة لفظة "الاستعارة" ودلالاتها يقتضي مراعاة ظروف و مناسبات استخدامها، أو مراعاة الأفكار، والأحداث، والمشاعر، أو القصد الموجود عند مستخدم اللفظة، إذ أن قواعد الكلام تدلنا على كون هذه التعابير واجية الاستعمال كالاستعارات. بالإضافة إلى أن قواعد اللغة تحدد وتقرر بأن بعض التعابير لا بد أن تعد استعارية، ولا يستطيع المتكلم أو المستمع أن يغير من هذه القواعد كثيراً إلا أن الكثير من قواعد اللغة تسمع كثيراً بالتغيرات الشخصية، والخلق الفردي، وثمة تعابير كثيرة تكون الدلالة فيها معدة لتغيرات استعارية، انطلاقاً من نوايا الكاتب، إذ أنَّ القواعد الموجودة لا تستطيع فك النصّ المستغلف بسهولة، ولا تستطيع تزويدنا بمعلومات كافية لمعرفة ذلك المجاز، أو تلك الاستعارة دون اللجوء إلى نوايا المتكلم فعندما دعا تشرشل و موس و لينين، في تعبيره المشهور {تلك الأداة} فإنَّ نعمة الصوت ونظام الألفاظ والأرضية التاريخية تساعد في الكيفية التي يمكن أن تفسر بواسطتها الاستعارة".²

ومن المهم القول أنه ليست ثمة قواعد ثابتة ونهائية، تحدد الكثافة التي يجب أن تعطى لتعبير خاص ولكي نعرف قصد المتكلم من الاستعارة، فلا بد من معرفة كم هو جاد في استخدام "بؤرة الاستعارة"، هل هو مقتنع بأن يأتي بمرادف تقريبي للكلمة المستخدم؟ أم يريد استخدام الكلمة لكي تخدم غرضاً خاصاً هنا دون الاهتمام بالمعاني الأخرى التي يمكن أن تثيرها؟.

¹ أحمد عبد السيد الصاوي، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ص: 158.

² أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سنة 1998م، ص: 106/107.

إنَّ الأمر يكون سهلاً عندما يكون الكلام شفويًا، أمَّا في العملية الكتابية، فإنَّ الأمر مختلف. إنَّ عبد القادر الجرجاني قد أكد قبل ريتشارد وغيره من النقاد الغربيين المعاصرين على أهمية السياق الذي وجدت فيه الاستعارة، وبين أن المبالغة التي تدعى للاستعارة ليست في المعنى نفسه الذي يقصد إليه المتكلم ولكن في طريق إثباته للمعنى وتقريره إياه، ورأى أن المحاسن التي هي السبب في النظم وهي الاستعارة و التمثيل، والكناية، وضروب المجاز لمختلفة، تشكل عناصر التصوري للمعنى، وهذه المحاسن التي ينشأ عنها النظم تشكل العلاقات الأسلوبية بين الألفاظ وهي موطن البلاغة وهو ما عبر عنه بالنظم.

فلا تكون للكلمة مزية إلاَّ بحسب موقعها من الكلام وتآزر دلالتها مع جاريتها الداخلة معها في تركيب لأنَّ الكلمة قد تفتح في موضع وتحسن بنفسها في موضع آخر، الذي يحدد ذلك هو السياق ولا شيء غيره، وهل تجد أحدا يقول: "هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمتها معناها لمعاني جاريتها، وفضل مؤانستها وهل قالوا: "اللفظة متمكنة ومقبولة، وهل في خلافها قلقلة ونايبة ومستكرهة إلا وغرضهم إن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق عن سوء التلاؤم وإن الأولى في الثانية في معناها وإن السابقة لم تصلح لأن تكون لفظا للتالية في مؤداها".¹

وهكذا يؤكد عبد القاهر الجرجاني على أهمية اختيار الكلمات بطريقة نظمها، ويرى أنه ليس من فضل أو مزية إلا وحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم.

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، صححه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، سنة

ويلاحظ أنّ النَّحو عند عبد القاهر الجرجاني، ليست قواعد شكلية بحتة، وليس مجرد تقدير إعراب أو بيان صحة الكلام أو خطئه فحسب، وإنما وسيلة الشاعر الفنان لإبراز الصور الذهنية والمعاني التي تأتلف داخل السياق، فالنَّحو علم يكشف عن المعاني التي هي ألوان نفسية، ندركها من وجوه استعمال الكلام.

ومنه الفروق التي تبدو بين استعمال وآخر من خلال ارتباط بعضها البعض، بحيث تجمع لتشكيل معاني نسيجا من المشاعر الإنسانية والصور الذهنية والأحاسيس الوجدانية، فالفكر لا يتعلق بمعاني الكلام مفردة، ومجردة عن النَّحو فلا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم المفردة، ومجردة عن النحو، واعلم أنني لست أقول: "إنَّ الفكر لا يتعلق بمعاني الكلمة المفردة أصلا، ولكني أقول: انه لا يتعلق بما مجردة من معاني النَّحو وتوخيها فيها وأن أردت أن ترى ذلك عيانا، فاعتمد إلى أي كلام شئت وأزل أجزاءه عن موضعها وضعها يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل في : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل " : من نبك قفا حبيب ذكرى ومنزل"¹، ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها؟

فالصواب والخطأ لا يعودان إلا إلى النَّظم ، ويدخلان تحت هذا الاسم فليست بواجب شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النَّظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا هو معنى من معاني النَّحو، قد أصيب به موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف لمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك لصحة، وذلك الفساد

¹ المصدر السابق، ص: 70/69.

وتلك المزية، وذلك الفضل إلى معاني النحو وإحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويصل
بياب من أبوابه.¹

ويؤكد الجرجاني هذه الفكرة في حديثه عن المجاز والحقيقة، ولا يرى أنّ المجاز في مقابله الحقيقة
فما كان طرقا فيا احدهما من لغة أو عقل فهو طريق آخر، ففي قولنا "زيد أسد"، فإن طريق كون
الأسد حقيقة في اللغة دون العقل، وإذا كانت اللغة طريقا للحقيقة فيه، وجب إن تكون هي أيضا
الطريق في كونه مجازا في المشتبه بالسبع إذا أجرينا اسم الأسد عليه، فقلنا رايتا سدا، نريد رجلا غيره
في بسالته عن الأسد في إقدامه وبطشه".²

وهكذا يرى الجرجاني إنّ الأسد قد التحم في الخيال في المشبه "الرجل"، فالمتكلم يجري اسم
الأسد على الرجل المشبه بالأسد على طريقة التأويل والتخيل، فهنا قد ادعينا للرجل الأسدية حتى
استحق بذلك أن يجري عليه اسم الأسد، وهنا يكون الحديث عن الشجاعة إذ أنّها من اخص
أوصاف الأسد وأمكنها.

يرى عبد القاهر الجرجاني أنّ المعنى الذي وضع "فعل" لا يتصور الحكم عليه بالمجاز أو حقيقة
يسند إلى الاسم، وهكذا فمحال أن يكون المجاز في دلالة اللفظ وإنما المجاز في أمر خارج عنه، ولا
يمكن نسبة المجاز إلى معناه وحده، وهو إثبات الفعل، فيقال هو إثبات فعل على سبيل المجاز، إذ لا

¹ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، صححه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، سنة 1978م، ص:
314.

² المصدر نفسه، ص: 358.

يأتي ذلك بعد ذلك بعد ذكر الفاعل لان المجاز أو الحقيقة إنما يظهر ويتصور من المثبت والمثبت له والإثبات¹.

وعليه فلا يمكن الحكم بأن هناك مجازا وحقيقة عن طريق العقل إلا في جملة من الكلام لأن ذلك يشبه الصدق والكذب فكما، يستحيل وصف الكلمة المفردة بالصدق والكذب وأن تجري ذلك في معانيها معرفة غير مؤلفة فيقال: "رجل _ على _ إنفراد _ كذب أو صدق، كذلك يستحيل أن يكون هنا حكم بالمجاز أو الحقيقة و نحو العقل إلا في الجملة المفردة"².

وأكد أيضا على مثل الالتحام السابق بين المشبه والمشبه به قد أتى من تفاعل بعض الصفات الموجودة في الأسد والرجل، والتي تشكل القاسم المشترك بينهما، فعندما نصحح بالمشبه في قولنا "زيد أسد" فإن التصريح يأتي أن تتوهم أنه من جنس المشبه به، فيستحيل أن يظن المستمع أنا المقصود هو الأسد؛ وأكثر ما يمكن أن يدعى تخيله في هذا أن يقع في نفسه من قولنا: "زيد أسد"، حال الأسد في جراته وإقدامه وبطشه، فأما أن يقع في ذهنه أنه رجل و أسد معا بالصورة والشخص فمحال. وهكذا فإن قصد التشبيه من هذا النحو من الكلام واضح من مقتضى الكلام، ومن حيث الموضوع.

حتى إن لم يحمل عليه كان محالا، فالشيء الواحد لا يكون أسدا ورجلا، وإنما يكون رجلا وبصفة الأسد، فيما يرجع إلى غرائز النفوس والأخلاق، أو بخصوص الهيئة كالكراهة في الوجه.

¹ المصدر السابق، ص: 359/360.

² عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز صححه وعلق حواشيه، محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1981م، ص: 362.

ويلاحظ الجرجاني أنَّ الاستعارة غامضة في بعض الأحيان وخاصة عندما يسقط ذكر المشتبه، حتى لا يعلم من أول الأمر وبمجرد اللفظ أننا أردناه.

ومثال ذلك قولنا: "عنت لنا ظبية" ونحن نريد امرأة، "ووردنا بحرا"، ونحن نريد ممدوحا ففي هذا النحو من الكلام، نعرف أن المتكلم لم يرد ما الاسم موضوع له في أصل اللغة بديل الحال، أو إفصاح المقال بعد السؤال، أو بفحوى الكلام وما يتلوه من الأوصاف، فمثلا ممكن أن نستدل أن الشاعر بقوله :

تَرْنَحُ الشَّرْبُ وَاغْتَالَتْ حُلُومُهُمْ شَمْسُ تَرَجُلُ فِيهِمْ ثُمَّ تَرْتَحُلُ

قد أراد مغنية، وذلك من خلال ذكره الشرب، واغتيال الحلوم والارتحال... ولو قال ترحل شمس ولم يذكر شيئا غيره من أحوال الآدميين، لم يعقل قط انه أراد امرأة إلا بأخبار مستأنف، أو شاهد آخر من الشواهد، وهكذا فان الشيعي لتبس أحيانا حتى على أهل العلم والإدراك، كما روي أنَّ عدي بن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط في قوله تعالى: "حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود" وحمله على ظاهره. وقد روي انه قال لما نزلت هذه الآية أخذت عقالا اسود وعقالا ابيض فوضعتهما تحت وسادتي فنظرت فلم أتبين، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إنَّ وسادك لطويل عريض إنما هو الليل والنهار".¹

وخلاصة ذلك أنَّ اللفظة المستعارة لا تخلو من أن تكون اسما أو فعلا، فإذا كانت اسما كاسم جنس أو صفة، فإذا كان اسم جنس فإننا نراه في أكثر الأحوال التي تنقل فيها محتمل أن يكون

¹ المصدر السابق، ص: 278 / 279.

للأصل، وبين أن يكون للفرع الذي من شأنه أن ينقل إليه . فإذا قلنا " رأيت أسدا " صلح هذا الكلام لان نريد به أننا رأينا واحدا من جنس السبع المعلوم .

وجاز أننا نريد شجاعا باسلا شديد الجرأة ... والذي يمكن أن يفصل لنا بين الفرضين هو شاهد الحال . وما يتصل به الكلام من قبل وبعد ، أي أن السياق له أهمية كبرى في هذه الحالة .¹
وبين الجرجاني أن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظر والوقوف على كنهه.

ويلح الجرجاني على فكرة النظم والصياغة وأهميتها بالنسبة للاستعارة² ، ويضرب لذلك مثلا

قول الشاعر : اللَّيْلُ دَاجِي كَنَفًا جَلْبَابُهُ وَالْبَيْنُ مَحْجُورٌ عَلَى غَرَابِهِ

ولا يرجع الحسن في هذه الاستعارة بأن الشاعر جعل الليل جلبابا وجحر على الغراب، ولكن في آن وضع الكلام الذي ترى فجعل الليل مبتدأ، وجعل داج خبرا له، وفعلا لما بعده، وهو الكنفان أضاف الجلباب إلى الضمير الليل ولأنه جعل ذلك البين مبتدأ، وأجرى محجورا خبرا عنه وان اخرج اللفظ على مفعول يبين ذلك أنك لو قلت :

وغراب البين محجور عليه أو: قد حجر على غراب البين، لم تجد له هذه الملاحظة وكذلك لو قلت قد دجى كنفنا جلباب الليل لم يكن شيئا.

¹ المصدر السابق،ص: 278.

² المصدر نفسه،ص: 209.

وهكذا يلاحظ أنه لا قيمة للاستعارة إلاً بحسن موقعها من الجملة وغالبا ما يضيف النظم إليها جمالا إذ كان استعمالها دقيق الصياغة، مثال ذلك الاستعارة في الآية الكريمة "واشتعل الرأس شيباً" ويقف الجرجاني عند هذه الآية ويناقشها من عدة جوانب هي¹ :

1 أن الناس عندما يذكرون الآية السابقة لم يزيدوا على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ولم يرو المزية موجبا سواها، وليس الأمر على ذلك وهذه الروعة التي تدخل على نفوس عند هذا الكلام مجرد استعارة .

يقول :فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها، إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى ،بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير،وتجدها قد ملحت ولطفت، ويلاحظ أن القيمة الفنية في الاستعارة، التشبيه، المجاز، الكناية، عند الجرجاني ليست لها من حيث هي كذلك، بل من حيث القدرة كل منها على الامتزاج والانصهار بغيرها من عناصر التعبير الأدبي. ففي صورة ابن المعتز :

وإني على إشفاق عيني من لعدا
لتجمع ميني ثم أطرق.

لم يجعل الميزة والجمال لأنه جعل النظر "يجمع"،ولكن خصائص فنية أخرى أوجدتها الصياغة في هذه الاستعارة، إذ قال في أول بيت "وإني" ،حتى دخل اللام في قوله :لتجمع، ثم قوله "ميني" ، ثم لمكان

¹ أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة صفاقس، سنة 1998م، ص: 125.

"ثم" في قوله، ثم أطراف، وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف، وهي اعتراضه، بين ان وخبرها بقوله "على إشفاق عيني من لعدا".¹

ويوضح الجرجاني مرة أخرى أهمية النظم و دوره في تبيان أسرار و دقائق استعارات و أنّ الهزة أو الأريحية التي تسببها الصورة أولاً و أخيراً للصياغة فذا ما نظرت إلى قول الشاعر²:

فَأَسَلْتُ لَوْلُؤُ مِنْ نَرْجَسٍ وَسَقَّتْ وَرَدًا وَعَضَّتْ عَلَى الْعَنَابِ بِالْبَرْدِ

فرايته قد أفادك أنّ الدمع كان لا يحرم من شبه اللؤلؤ والعين من شبه النرجس شيئاً، فلا تحسن أنّ سبب الحسن الذي تراه و الأريحية التي تجدها عنده أنّه أفادك ذلك فحسب، و ذلك أنّك تستطيع أنّ تجيء له صريحا فتقول: فاسلت دمعا كأنه اللؤلؤ بعينه من عين كأنها النرجس حقيقة ثم لا ترى من ذلك الحسن شيئاً، و يلاحظ أيضا إنّ اشتعل للشيب في المعنى وان كان هو الرأس في اللفظ و اسند إلى ما اسند إليه، يبين أنّ الشرف كان لأنّ سلك فيه هذا المسلك و توحي به هذا المذهب أنّ تدع هذا الطريق فيه، و تأخذ اللفظ فتسندة إلى الشيب صريحا فتقول: اشتعل شيب الرأس و الشيب في الرأس، و يعود السبب في ذلك إلى إنّ اشتعل يفيد مع المعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول، و أنّه قد شاع فيه و أخذه من نواحيه، و أنّه قد استقره وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيئاً، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به لا وهذا ما لا يكون إذ قيل: اشتعل شيب الرأس، أو شيب في الرأس، بل لا يوجد اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة .

¹ دلائل الإعجاز، ص: 79/78.

² المصدر نفسه، ص: 345.

المبحث الثاني : أثر نظرية النظم على فكر المحدثين

كم هي كثيرة تلك الدراسات التي تناولت عبد القاهر الجرجاني و نظريته في النّظم وكم حملت هذه الدراسات آراء متباينة مرة و متفقة مرات عدة، و لما تضاربت الأفكار حول فكرة النّظم منذ أن

تنبه الشيخ محمد عبده، لكل من كتاب دلائل إعجاز "و أسرار البلاغة" وأخذ منهما دروس في رحاب جامع الأزهر وأعتبرهما أولى بالدراسة من المتون وشروحها وحواشيها، كما اتسما به من دراسة عميقة للنصوص الأدبية، تقرب القارئ من تذوقه البلاغة بأسلوب سهل وبسيط ولا صلة لهما بالجدل العقيم الذي لا نتيجة له، وكان أثر تدريسهما أن خرجا مطبوعين مصححين إلى الوجود .

الدكتور مندور و عبد القاهر :

يقول الدكتور مندور في كتابه الميزان الجديد: فالدلائل يشتمل على نظرية النظم في اللغة وتطبيقات على تلك النظرية، و أما الأسرار فهي أقرب إلى الفلسفة الفطرية في اللغة والتطبيق فالأدب فن لغوي، فنظرية عبد القاهر الجرجاني في اللغة تتماشى مع ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء، فقد قرر عبد القاهر ما قرره علماء اللغة اليوم من رمزية اللغة، "و يقرر عبد القاهر في آخر كتابه دلائل أمرين هامين في ميدان اللغة بأن الألفاظ لا توضع و لا تستكمل لتعيين الأشياء المعينة بذواتها، وهذه هي النظرية الرمزية في اللغة"¹.

يتضح من هذه الأفكار أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل هي مجموعة من العلاقات وعلى هذا الأساس بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوي .

والدكتور محمد مندور هو أول من لفت الانتباه إلى الأسس اللغوية لمنهج الجرجاني قائلاً " و في الحق أنّ عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ في

¹ محمد مندور ، الميزان الجديد ، ج1 - نخضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع يناير 2004 ص 141 .

أهميته، مذهب يشهد لصاحبه بالعبقرية لغوية منقطعة النظير، وعلى هذا الأساس المذهب كون مبادئه في إدراك دلائل الإعجاز في القرآن، وفي النثر العربي و الشعر العربي على سواء " ¹.

ولقد كشفت الدراسات أنّ مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا إلى أيامنا هذه، و هو مذهب العالم السويسري فردناند سوسير حين استخدم المنهج اللغوي فيولوجي في نقد النصوص، لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات (système de rapports).

عبد القاهر و ميخائيل نعيمة: يقول ميخائيل نعيمة في كتابه "الغريال" على الأديب أنّ يجعل ألفاظه محاكية تجاربه، و رمز لتلك التجارب و عليه أن يجمع بين مقدرته في التعبير عما في نفسه بذلك الرمز، و بين مقدرة ذلك الرمز نفسه على ثقل تجاربه إلى القراء فما وظيفة الألفاظ في الأدب إلا أن تكون رمزاً للأفكار" ².

وقد بحث المفكر الألماني "خنت" بحثاً مبتكرة في نظرية الرمزية اللغوية وفي هذه العلاقات يتحدد فيها أهمية اللفظ بانضمامه إلى لفظ آخر، بحيث يكون بينهما صلة معنوية، كأن يكون الثاني خيراً عن الأول أو فاعلاً له أو ما يشابهه على ذلك، فاللفظ و المعنى لا يمكن أن انفصلهما عن بعضهما إنهما وجهان، أو صورة لعملة واحدة أو وجه لصورة واحدة وهذه نظرية الكثيرين من النقاد واللغويين، و هنا لم يغفل عبد القاهر الجرجاني أهمية المعاني الثانوية ودلالاتها التصويرية في النص الأدبي

¹ المرجع السابق، ص: 142.

² ميخائيل نعيمة، الغريال، دار الفكر، -بيروت- ط 15 سنة 1991 ص 127

أو داخل نظم نثري أو شعري فهي تعطي الأسلوب دلالاته الموضوعية و تمنحه قيمته العلمية وكثيراً من المقومات .

محمد عبد المنعم خفاجي : يذكر في مقدمته دلائل الإعجاز و أسرار البلاغة، فضل عبد القاهر الجرجاني بالجهود الصادقة التي بذلها في التأليف بين قواعد النحو العربي و بين آراء أرسطو العامة في الجملة و الأسلوب، و الفصول و قد وفق عبد القاهر فيما حاول توفيق يدعو إلى الإعجاب، كما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال، أن عبد القاهر بنظريته اللغوية، وبقيمتها اللغوية العلمية، كان صاحب فضل سبقت الإشارة إليها في البحث عن العلاقة القائمة بين اللغة و الفكر .

عبد القاهر و سيد قطب : يقول سيد قطب معترفاً بفضله : " و لكن لعبد القاهر فضب عظيم في تقريره هذه القضية"¹ و يقصد بهذه القضية جمال التصوير الفني في القرآن الكريم .

فقد كانت هذه النظرية محل اهتمام سيد قطب، فأوحت له بأفكار و أعمال فنية رائعة لإدراك الإعجاز القرآني و جمال سحره و بيانه، و يقول سيد قطب في طريقة عبد القاهر أثناء عرضه لقضايا اللفظ و المعنى : "و إنّنا لنحتسب أنّ عبد القاهر قد توصل إلى رأي حاسم حين انتهى في دلائل الإعجاز إلى أن اللفظ وحده لا يتصوره عاقل أن يدور حول بحث من حيث هو لفظ، إنّما من حيث دلالاته يدور البحث فيه، وأن المعنى وحده لا يتصور عاقل أن يدور حول بحث من حيث هو

¹ سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ص 21 انظر دلائل الإعجاز ص 69 و 162 دار الفرقان ، عمان ط 1 1403 هـ

خاطر في الضمير ... و أن المعاني مفيدة في تحديد النظم الذي يؤدي فيه، فلا يمكن أن يختلف النظام ثم يتحد المعنى تمام الإتحاد"¹.

بمعنى أن طريقة عبد القاهر في الأداء حاسمة في تصويره الفني، و إن اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى، و ربط طرق الأداء ربطاً لا يجوز لحديث بهذه المعاني والألفاظ كل على انفراد.

عبد القاهر و الدكتور أنيس : ويشيد الدكتور إبراهيم أنيس بفضل عبد القاهر وعلمه في كتابه أسرار اللغة بقوله: " حيث نحاول البحث عن نظام الجملة العربية في كتب القدماء من اللغويين نراهم يشيرون إليه في ثنايا كتبهم إشارة سريعة، تكاد تنتظم في معظم أبواب النحو والبعض من فصول البلاغيين"².

إنَّ كل لغة من لغات الإنسانية جمعاء تخضع لنظام معين في ترتيب كلماتها، فيخضع هذا الترتيب في الجمل و العبارات، فإذا أختل هذا النظام في ناحية من نواحيه لم يحقق الكلام الغرض أو الإفهام، فإذا نظمت المفردات بذلك الترتيب المعين سرت فيها الحياة، و عبرت مكون الفكر وما يدور في الأذهان، وليست اللغة في حقيقة أمرها إلا نظاماً من الكلمات التي ارتبطت بعضها ببعض ارتباطاً و ثقياً تحتضنه قوانين معينة لكل لغة .

عبد القاهر وصبحي صالح : و يشيد الدكتور صبحي صالح بأعمال عبد القاهر الجرجاني في كتابه "مباحث في علوم القرآن" ولقد كان الإعجاز القرآني خليقاً أن يثير في الحياة الإسلامية، مباحث على

¹ المصدر السابق، ص 194

² إبراهيم أنيس : أسرار اللغة ، مكتب لأنجلو مصرية ، ط6 مصر 1978 ص 184

جانب عظيم من الأهمية، ليتصدى بها العلماء للكشف عن وجوه البلاغة القرآنية، و عن أسلوب القرآن الفذ في التصوير و التعبير، و بذل أولئك العلماء جهود مشكورة، و قاموا بمحاولات ضمنية ... و لكنهم وقفوا غالباً عند النص الواحد إلى أن وصل عبد القاهر الجرجاني الأمر إليه فكان ذوقاً للأسلوب القرآني " ¹

هكذا نجد أن أفكار صبحي صالح كغيره من اللغويين المعاصرين، لم يستطيعوا تغيير جواهر عبد القادر في نظرتهم إلى الإعجاز القرآني و رمزيتهم الجمالية .

عبد القاهر و الرافي: تأثر مصطفى صادق الرافعي بآراء عبد القاهر الجرجاني في داخل نظرية النظم وكتابه " دلائل الإعجاز " أثناء دراسته و عنايته بالنظم الموسيقي في القرآن، فأخذ عن الجرجاني فكرة تركيب الكلام و تألفه داخل إطاره العام فيقول: "فمن هنا تعلق بعضه على بعض وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة، هي صفة إعجازه في جملة التركيب كما عرفت" ²

لقد حرص الرافي على الأصل اللغوي في الإعجاز لأنه كان آخذ نفسه بالكشف عن أسرار النظم الموسيقي في القرآن، و عني الرافي عناية كبيرة بالنظم القرآني " فرأى أنه مما لا يتعلق به أحد ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه، ترتيب حروفه باعتبارها من أصواتها ومخارجها و مناسبة بعض ذلك لبعض مناسبة طبيعية، في الهمس والجر والشدة والرخاء و التفخيم و الترفيق" ³، ويرى الرافي أن القرآن نمط في القوة و الإبداع، و أن مرد ذلك إلى روح التركيب التي تنعطف عليها

¹ صبحي صالح ، مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، ط 1 - بيروت - 1977 م ص 35

² الرافي : تاريخ آداب العرب . ج 1 ، مكتبة الإيمان ط 1 ، 1977 م ص 115

³ المرجع السابق، ص 116

جوانب الكلام الإلهية، وهذه الروح، على حد تعبيره، لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن بما أنفرد نظمه .

وهكذا كانت أعمال عبد القاهر الجرجاني ميداناً لغوياً للباحثين اللغويين المحدثين والمعاصرين وزاد علمياً يرجع إليه كل باحث عن حقيقة نظام لجملتنا العربية ونظامها الذي تخضع له وإلى الجملة والآية القرآنية، ليستمد منها دفعة جديدة في مجال البحث العلمي وسيبقى التصوير الفني هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآني، ليعبر عن الصورة الحسية عن المعنى الذهني و الحالة النفسية وما للكلام من أهمية .

محمد مبارك: يتطلع محمد المبارك إلى آفاق جديدة تناسب حياتنا العلمية والفكرية في لغتنا العربية بأساليب أكثر دقة مما كانت عليه، لتكون قادرة على تحديد المعاني، وقادرة على تصوير المشاعر والأحاسيس بدقة تامة، فيقول: "و نحن اليوم بحاجة للتحرر من آفاق كصور الانحطاط في ميدان اللغة و العودة إلى خصائص العربية، في استعمال اللفظ الخاص والعام، كل في موضعه اللائق ومكانه المناسب له، فحياتنا العلمية تحتاج إلى دقة التعبير و تحديد المعنى، وحياتنا الفنية في حاجة كذلك لتصوير مشاعرنا وأحاسيسنا ومشاهد حياتنا إلى هذه الدقة"¹.

وتذكرنا هذه الدعوة إلى التطلع بآراء عبد القاهر الجرجاني من خلال نظريته بقوله " وأعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر و يغمض المسلك في توخي معاني النحو التي عرفت أن تتحد أجزاء

¹ محمد مبارك: فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر ص 198 .

الكلام و يدخل بعضها في لفظ و يشتد ارتباط ثان منها بأول، و أن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً¹

فتطلعات محمد مبارك كانت لها الإجابة الطيبة عند عبد القاهر بآرائه الفذة، التي مازالت صالحة لعصرنا اللغوي، حول بذل الجهود للوصول إلى أسلوب رفيع ودقة في التعبير واستعمال اللفظ الدقيق للمعنى المطابق له دون زيادة أو نقصان.

يقول: "إن مفردات كل لغة من اللغات تعطي صورة الوجود لأهل تلك اللغة، إن مفردات اللغة العربية تدل على أن العرب صنفوا الوجود تصنيفاً شاملاً دقيقاً، يدعو إلى الدهشة و التعجب ويدل على المستوى الفكري الراقي عند العرب، فلما وصلت إليه لغة أمة من الأمم"².

يتوضح من آراء محمد مبارك أنه يركز على اللغة و تفاعل اللفظ مع المعنى، إضافة إلى دقة التعبير لتوحي إلى السامع الصورة الخاصة التي تقترن معها المعاني، و تحديد المقصود و هذا دليل على بلوغ أصحاب تلك اللغة درجات عالية في دقة التفكير .

إبراهيم مصطفى: يرى الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتاب "إحياء النحو" أن عبد القاهر الجرجاني أعطى تصوراً جديداً للبحث النحوي في كتاب دلائل الإعجاز" فلم يهتم بأواخر الكلام و علامات الإعراب، بل بين أن للكلام نظاماً، وأن رعاية هذا النظم وإتباعه قوانينه هي السبيل إلى الإبانة

¹ عبد القاهر الجرجاني -دلائل الإعجاز - تأليف محمد رشيد رضا - دار الكتب بيروت ، لبنان ص 94. ص 171

² عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تأليف: محمد رشيد رضا، دار الكتب، بيروت، لبنان، ص 212.

والإفهام، و أنه إذا عدل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهوماً معناه، و لا دال على ما يراد منه "1 .

وانتهى الأستاذ إبراهيم مصطفى إلى أنّ الذي شغل الناس عن نظم عبد القاهر أمران هما :

أولهما : الحالة التي كان عليها العلم والعلماء في القرن الخامس الهجري حيث كانت العقول قد أكتفت باجتزار و تقليد الأفكار المسبقة و الحلول الجاهزة، فلم تقبل أي إبداع أو تجديد .

ثانيهما : المذهب الذوقي الذي ركز عليه عبد القاهر لسير أغوار اللغة و معرفة مكوناتها، فقد تنبه الحس اللغوي لرنّة الأساليب، و ضبط خصائصهما في زمن غلبت العجمية بغلبة الأعاجم، و وقف العلماء من علم العربية عند ظاهر اللفظ لا يبلغ بهم الحس اللغوي، أن يتذوقوا مذاق عبد القاهر الجرجاني، و لا أن يدركوا ما أدرك .

و عليه يؤكد الأستاذ إبراهيم مصطفى "أنه قد آن لمذهب عبد القاهر الجرجاني أن يحيا، و أن يكون هو السبيل للبحث اللغوي ."

الدكتور درويش الجندي : عرج الدكتور درويش الجندي بعد ذلك للحدّث عن نظرية النظم الجرجانية مبيناً أسسها ومعالمها شارحاً أهدافها المتمثلة² في :

- بيان أن جوهر الكلام هو المعنى القائم في النفس.

¹ بشرى تاكفراست - الدراسات الحديثة و نظرية النظم عند القاهر الجرجاني ، نشرت هذه المقالة بمجلة جامعة ابن يوسف العدد الرابع ، مراكش - المغرب - سنة 2005 م

² بشرى تاكفراست - الدراسات الحديثة و نظرية النظم عند القاهر الجرجاني ، نشرت هذه المقالة بمجلة جامعة ابن يوسف العدد الرابع ، مراكش - المغرب - سنة 2005 م

- ربط البلاغة بالإعجاز .

و الجديد في هذا البحث أنه استعان بالبحوث الأكاديمية في تفسير نظرية النظم وربط هذه النظرية بتلك البحوث ربطاً وثيقاً .

الدكتور ماهر حسني فهمي: في " كتابه المذاهب النقدية " يتعرض لنظرية النظم، فيتحدث عن قضية اللفظ و المعنى من حيث نشأتها و أهميتها، و يؤكد أن مقاييس القدماء النقدية كانت مبنية على أساس موقفهم منها"، ويعتبر عبد القاهر، إماماً للمذهب التصويري، و هو يبني رأيه هذا الأساس من قول لعبد القاهر في الأسرار، يربط فيه التصورات والتخييلات، و يعتبر ذلك بذرة المذهب التصويري عنده، ويشير كذلك إلى الصفة التحليلية في منهجه، و كيف تطور النقد العلمي العربي على يده، وعبد القاهر الجرجاني كان رائداً في فهمه لطبيعة الصورة، ولكن من الشطط عده رائداً لمذهب أدبي، على ما ندركه من مفهوم المذهب في أيامنا هذه"¹ .

محمد خلف الله: اعتبر محمد خلف في كتابه من الوجهة النفسية في دراسة الأدب و نقده "كتاب الدلائل"، بحثاً في أسلوب تأليف الكلام و نظمه، و ترتيب معانيه، و ما يعرض لهما من مظاهر معنوية، محاولاً أن ينقل الاهتمام من جانب اللفظ إلى جانب المعنى، و يشير إلى أن عبد القاهر متلجلج في هذه القضية، بينما يقوم "الأسرار" على فكرة أن مقياس الجودة الأدبية تأثر الصورة البيانية في نفس متذوقها .

¹ المقال السابق .

وهو جزء من تفكير سيكولوجي أعم يطبع الكتاب بطابعه عن طريق "الفحص الباطن" وتأکید الجانب النفسي أي الطريقة النفسانية التي يسميها المحدثون "التأمن الباطني"، و يعتقد محمد خلف الله فضلاً يدرس فيه تأثير عبد القاهر في بعض نواحي تفكيره البلاغي و النقدي بالثقافة الإغريقية، ولاسيما بحوث أرسطو ... و يوجد أهم نواحي التي تعرض لها كتاباه: "الشعر والخطابة"، لكي يرى أي مدى تأثر بهما عبد القاهر، ويختم بحثه قائلاً "غير أن هذا التأثير لا ينافي الأصالة، و لا ينفي عن عبد القاهر صفة العالم المبتكر ولا يقلل من أهمية نظريته التي لم يسبقه سابق إلى عرضها، و تحقيقاً و أفراد موضوعها بالدرس، كما يفرد العالم الحديث موضوعاً معيناً للبحث والتنقيب في رسالة خاصة"¹، و بالتالي فمنهج عبد القاهر الجرجاني و طريقة تأليفه من أبرز المعالم في الدراسات العربية النقدية .

الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي: أَلَّف كتاباً في نظرية النظم الجرجانية تحت عنوان: معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني أستهل به فصل عن عبد القاهر ونظرية النظم مؤكداً أن المتبع لمؤلفات عبد القاهر في الرسالة الشافية والدلائل و الأسرار يلاحظ قلة الشواهد و الآيات القرآنية و تحليلها، و هذه الملاحظة قد وقف عليها الأستاذ أمين الخولي، إذ حكم لعبد القاهر بالبلاغة و الأدب في كتابه الأسرار و لكنه يأخذ عليه في كتابه "الدلائل" أنه لا يتحدث في قضية الإعجاز بكثير و لا قليل، بل يستشهد بالقرآن على سنية كافية، و كأنه يتحري ترك ذلك لما تشعر به من قلة الشواهد القرآنية في كتابه هذا قلة ظاهرة .

¹ بشرى تاكفرست - الدراسات الحديثة و نظرية النظم عند القاهر الجرجاني ، نشرت هذه المقالة بمجلة جامعة ابن يوسف

العدد الرابع ، مراكش - المغرب - سنة 2005 م

الدكتور أحمد علي دهان: تناول الدكتور أحمد علي دهمان الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجاً و تطبيقاً بغية تطبيق الوقوف على كيفية دراسة عبد القاهر للصور البلاغية في ظل نظرية النظم و تبيان طبيعتها، لذا بدأ بالتفتيش عن الأساس النظري لفكر عبد القاهر اللغوي و البلاغي ليختم بتقويم منهجي لمنهج عبد القاهر الجرجاني بين القدماء و المحدثين، عن طريق الربط بين الجانبين النظري و التطبيقي¹، لأن هذا الربط يعطي قيمة كبرى للدراسة لتبرز الأصالة، وتوضح جوانبها، و لاسيما عندنا قد تثبت مثل عبد القاهر الذي لم يقف فكره النقدي عند التنظير وحده، و إنما تجاوزه إلى التذوق و التحليل، للوصول إلى القيم الفنية في الأثر الأدبي، و ردها إلى عناصر في صياغته و نظمه .

نظرية النظم و لسانيات النص :

بدأت إرهابات لسانيات النص على يد العالم اللغوي "هاريس" في بداية منتصف الثاني من القرن الماضي، ثم تطورت الدراسات على يد العالم الهولندي "فان دايك"، و ظل هذا العلم في تطوره حتى أصبح حقيقة راسخة على يد "ديوجراند" و "درسيلر" في الثمانينات من القرن العشرين².

¹ المقال السابق .

² أحمد عفيفي، نحو النص : اتجاه جديد في دراسة النحو العربي - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة 2004 م ، ص 279 .

حيث حدد هذان الأخيران معايير سبعة ينضبط من خلالها النص، و يتأكد دور الربط من خلالها لتحقيق ما يطلق النصية، و هذه المعايير هي : الربط، التماسك الدلالي، القصديّة المقبولة الإخبارية، الموقفية، التناص .

محمل القول أن نظرية النظم هي المعين الذي استشفى منه علماء النص أفكارهم حيث تتقارب أفكار النظريتين إلى حد كبير "فإن من يقرأ دلائل الإعجاز يخلص إلى أن الجرجاني وهو يناقش مسألة الإعجاز و البلاغة و الفصاحة، كان لديه منطق أساسي و هو أن النص كي يحقق تأثيره لابد من مراعاة عملية التواصل و مكوناتها المحدودة في ثلاثة عناصر هي: المبدع، النص المتلقي".¹

وبعد انجاز المبدع لمهمته يكون النص، أو الخطاب حلقة وصل بين المبدع و المتلقي، الذي لا يمكن النظر إليه على أنه متلقي واحد، و إنما هي قراءة من بين القراءات المختلفة، تتعامل مع الخطاب بحسب آفاقها و مداركها و لعل هذا من الأسباب التي تجعل النص يخترق الزمان و المكان . إنَّ الجرجاني لامس جانباً مهماً من مباحث الدلالة يرتبط بالجانب التداولي، وهو المتلقي الذي يبذل جهداً في فك شفرة المعاني من خلال الاستدلالي العقلي على المعنى المقصود، و هذا ما يجعل المتلقي طرفاً مساهماً في بناء النص من حيث تأويله و بيان دلالاته.

¹ أحمد منادي . التلقي و التواصل الأدبي دار الكتب العلمية، د ط، د ت ، ص 183.

ويقول الجرجاني مخاطباً القارئ: "و جملة ما أردت أن أبينه لك أنه لا بد لأي كلام تستحسنه من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة و علة معقولة"¹، هذا و أولى علماء النص اهتماماً بالغاً بالمتلقي، فإذا كانت البنية الكبرى للنص ذات طبيعة دلالية و كانت متعلقة ومشروطة بمدى التماسك الكلي للنص فإن الذي يحدد إطارها هو المتلقي، لأن مفهوم التماسك ينتمي إلى مجال الفهم والتغيير الذي يضيفه القارئ على النص، و تحتاج العلاقة بين النص و القارئ إلى إيضاح ليهم اتجاهات تحليل النص فيه من خلال اهتمامها بعملية القراءة، لهذا فإنه ينبغي للقارئ أن يركز قراءته على إدراك العلاقات بين المستويات المتعددة للغة .

فبنية النص في نظر الباحثين لغوية منطوقة في المقام الأول، غير أنها مرتبطة في استمرارها وتحقق دلالتها بأركان التواصل التواصل، وهي المنتج أو المنتجون و المتلقي أو المتلقون، و التفاعل بين الطرفين من خلال عملية المتلقي، ذلك المكون الذي يضمن استمرار النص أو تتابع سلسلة الاتصال أو انقطاعها عند نقطة محددة أو في موضع بعينه و يشترط في التتابع تحقق المغزى وإذا فقد النص أي عنصر من العناصر انحارت بنيته، غير أنها تبقى قائمة مختلفة بدلالاتها المحددة .

وعن انسجام النص و اتساقه سبق الجرجاني المحدثين في التفريق بينهما، و إن كانت التعارف متناثرة هنا وهناك في كتابه و هي نفس المبادئ التي اعتمد عليها علماء النص، إذ نجد هال يداي في كتابه " إتساق في اللغة الإنجليزية " الذي نشره سنة 1976م يتناول وسائل اتساق النصوص، وجدت كلها عند الجرجاني و هي : الإحالة، الاستبدال، الحذف و الاتساق المعجمي .

¹ عبد القادر الجرجاني - دلائل الإعجاز ، تصحيح و تعليق محمد رشيد رضا - دار الكتب العلمية - بيروت . لبنان د ط ،

وعن وسائل انسجام يشير فان دايك إليها من خلال كتابة النص والسياق الصادر سنة 1976م، وهي تطابق الذوات و العلاقات " التضمن و الجزء والكل والملكية" والتطابق الإجمالي ولعل أكبر تطابق بين ما جاء به الجرجاني، و ما أتى به علماء النص في الانسجام هو كتاب "تحليل خطاب" لمؤلفيه: براون و يول الذي نشر عام 1983 م، إذ ركز هذان الباحثان على وظيفة اللغة في أنها للإخبار و التأثير في المتلقي، وهو الأمر الذي نؤكد له لاحقاً أنهما أشار إلى مبادئ الانسجام ألفنا إيجادها عند الجرجاني وهي: "المقام والتأويل المحلي والتشابه والترابطات بين الجمل"، وقد تحدث الجرجاني عن العنصر الأخير مطولاً تحت عنوان "الوصل و الفصل"، و اعتبر هذا العنصر مسألة عظيمة في قوله: "أعلم أنه ما من علم من علوم اللغة العربية أنت تقوله فيه خفي غامض ودقيق صعب وأعلم إن هذا الباب أغمض وأخفي وأدق و أصعب"¹.

ويذهب إلى أن ملاك البلاغة هو إتقان الفصل و الوصل حول ما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها و المجيء بها منثورة، تتألف واحدة منها بعد الأخرى.

و يقوم هذا المبدأ عنده على أساسين نحوي و معنوي .

الأساس النحوي : نقصد به انطلاق الجرجاني من مجموعة من القواعد والقيود النحوية التي بلورها النحاة من أجل ضبط العطف و يمكن إيجازها فيما يلي: "عطف المفرد على المفرد يرى الجرجاني أن

¹ المرجع السابق: ص 187

فائدة العطف في المفرد هي أن يشرك الثاني في إعراب الأول، و أنه إذا اشترك في إعرابه فقد أشركه في حكم ذلك الإعراب أي أن الواو والعاطفة تنقل الحكم الإعرابي إلى الثاني¹.

- عطف الجملة على الجملة : يميز الجرجاني بين حالتين الأولى أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب ولا إشكال في هذه الحالة ، أما الحالة الثانية هي عطف الجملة على الأخرى لا محل لها من الإعراب مثل "زيد قائم و عمر جالس" ، يعلق الجرجاني على هذا المثال قائلاً : "و لا سبيل إلى ادعاء أن الواو أشركت الثانية في الإعراب ، قد و جب للأولى بوجه من الوجوه"².

نستنتج أن الجرجاني ينطلق من عطف المفرد على المفرد كأصل يبين غاية عطف الجملة على الجملة خاصة تلك التي لها محل من الإعراب .

الأساس المعنوي : معنى الجمع: اقترح الجرجاني في هذا المبدأ لتفسير العطف الحاصل بين جملتين لا محل لهما من الإعراب، إذا لما كان العطف بين جملتين ، هو وجود حكم مشترك بينهما، و الحكم في هذه الحالة منعدم "اقترح الجرجاني البحث عن علة تبرر العطف و قد وجدها فيما يسميه "معنى الجمع" و المثال الذي ضربه "زيد قائم و عمر جالس" ، على أن مبرر العطف، هو إما أن زيدا كائن بسبب من عمر، و إما زيدا و عمر كالنظيرين أو الشريكين بحيث أن عرف السامع مع حال الأول عناه أن يعرف حال الثاني"³.

¹ المرجع السابق: ص 186

² المرجع نفسه : ص 173

³ المرجع نفسه...دلائل الإعجاز ص 171

"النظير والتشبيه و النقيض هذا المبدأ متصل في حقيقة بالأول وغير مستقل عنه وهو يجوز للعطف معنوياً حين امتناعه معيارياً هذا المبدأ خاص بما يسميه الجرجاني (الإخبار عن الأول و عن الثاني والقيود المجوز بالعطف هنا إما أن يكون الخبران شبيهين أو نقيضين أو نظيرين قياس العطف على شرط و الجزء) مما يقل نظر الناس فيه أمر العطف أنه قد يؤتى بالجملة ولا تعطف على ما يليها و لكت تعطف على جملة بينها، و بين هذه التي تعطف جملة أو جملتين"¹.

على هذا النحو ينتقل الجرجاني من عطف جملتين متجاوزتين إلى عطف جملتين مفصولتين ويسلك في معالجة هذا النوع الثاني طريقتين أولهما قائمة على الشرح، والثانية على القياس (قياس العطف على الشرط و الجزء).

هذا عن الوصل أما الفصل فقد تحدث الجرجاني عنه كثيراً إذ اهتم بالعلاقة الخفية القائمة بين الجمل الممثلة للخطاب، و هي علاقة لا تعتمد على رابط شكلي ظاهر، و قد أورد الجرجاني أمثلة من القرآن الكريم ، ليوضح هذه العلاقة .

نظرية القرائن :

لفظ (القرائن) مأخوذ من الفعل الماضي "قرن"، وجمعها قرائن، وله معاني كثيرة منها : الوصل والجمع، والشدة، والربط، والمصاحبة، و التلازم، والالتقاء، الروابط، فيقال : قرن الشيء بالشيء : وصله، وقرن الشيء بالشيء² ، والقريفة عند الجرجاني بمعنى الفقرة، و في اللغة : فعيلة بمعنى:

¹ المصدر السابق : ص 144

² إبراهيم أنيس ، المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية - مكتبة الشروط الدولية ط 4 سنة 2004 ص 730

المفاعلة، مأخوذة من المقارنة، و في الاصطلاح : أمر يشير إلى مطلوب،¹ فهي عندما تكون دليلاً فلأنها المصاحب أو القرين للمراد، و وجودها يدل على وجود الملازم أو المصاحب لها أو الموصول بها أمّا معنى القرائن فهو تقريباً يدور حول هذه المعاني، و مدى ارتباط الكلمات بعضها ببعض سواء أكان ذلك داخل الجملة أم كان داخل السياق، و يرشح هذا المعنى أو ذاك وجود قرينة دالة على المعنى المقصود لفضيلة كانت مادية أو معنوية، و بين النحويين ذلك عند حديثهم عن الإسناد أو التلازم، أو التعدية .

أو عند حديثهم عن الأبواب النحوية نحو: المبتدأ والخبر والفاعل والجار والمجرور والإضافة والتوابع، ولذا نجد حديثهم عن القرائن متناثراً في أبواب متعددة، فما تكاد تجد باباً إلا لقرينة ذكر فيه سواء باللفظ صراحة أو بما يدل عليه.

وللقرائن النحوية خمسة مصادر، و هي النظام الصوتي، و النظام الصرفي، والنظام النحو ودلالة السياق، والدلالة الحالية "Pragmatique"، فالنظام الصوتي عند تمام يقدم للنحو أصوات مثل حركات الإعراب الثلاث و السكون، وأما الصرف فيقدم أصل الوضع وأصل الاشتقاق والعدل عن أصل الوضع، والصيغ الصرفية، ومعانيها والميزان الصرفي، وإحصاء حروف المعاني والأدوات، فيكون الصرف بذلك مصدر قرينتي البنية والأداة .

وأما النحو فهو علم العلاقات فلا يتناول المفردات إلا من حيث علاقاتها بالمفردات الأخرى في الجملة، و تلك هي علاقة النظام والترتبة و الربط، و قرينة السياق التي تكشف علاقات المعنى سواء

¹ عبد القاهر الجرجاني ، معجم التعريفات ، تحقيق : محمد صديق المنشاوي - دار الفضيلة ، مجلد 1 (د.ت) (د،ط) ص 146

داخل الجملة الواحدة أو بين عناصر الجملة المختلفة، فهذه القرينة هي المعينة على وضوح المعنى في قوله تعالى: (و إذا اعتزلتموهم و ما يعبدون إلا الله) ¹، إذ إن التركيب في ذاته لا يمنع أن تكون "ما" في قوله "و ما يعبدون" نافية، و لكن قرينة السياق التي تتمثل في قوله تعالى قبل ذلك مباشرة (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة) ²، تدل على أن "ما" موصولة و "أن" إلا المعنى "غير" أو "من دون".

وأما القرينة الحالية فهي من خارج الكلام لأنها دالة الوضع السائد أثناء التكلم، هذا الوضع قد يكون حاضراً أو ماضياً، مروياً رواية صحيحة، صريحة من الماضي أو متصيلاً من أحداث التاريخية أو مواقع جغرافية أو علاقات اجتماعية، ففي قوله تعالى: (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) ³ لا يمكن أن يستفاد من التركيب الذي كان يؤذي الآخر، ولكن قراءة السيرة النبوية تدل على إيدائهم إياه فالسيرة هي القرينة .

وقد قسمت القرائن إلى الحالية ومقالية، أو لفظية ومعنوية، ويمكن تقسيمها إلى ما هو أكثر تفصيلاً وإن كان في الإمكان ردها إلى الحال والمقال ⁴.

انطلاقاً من القرائن لفظية ومعنوية يقول تمام حسان : وإنما ينبغي لنا أن نتصدى للتعليق

النحوي بالتفصيل تحت عنوانين أحدهما: "العلاقات السياقية" أو ما يسميه الغريون La relation syntagmatique ، والثاني هو "القرائن اللفظية" ⁵.

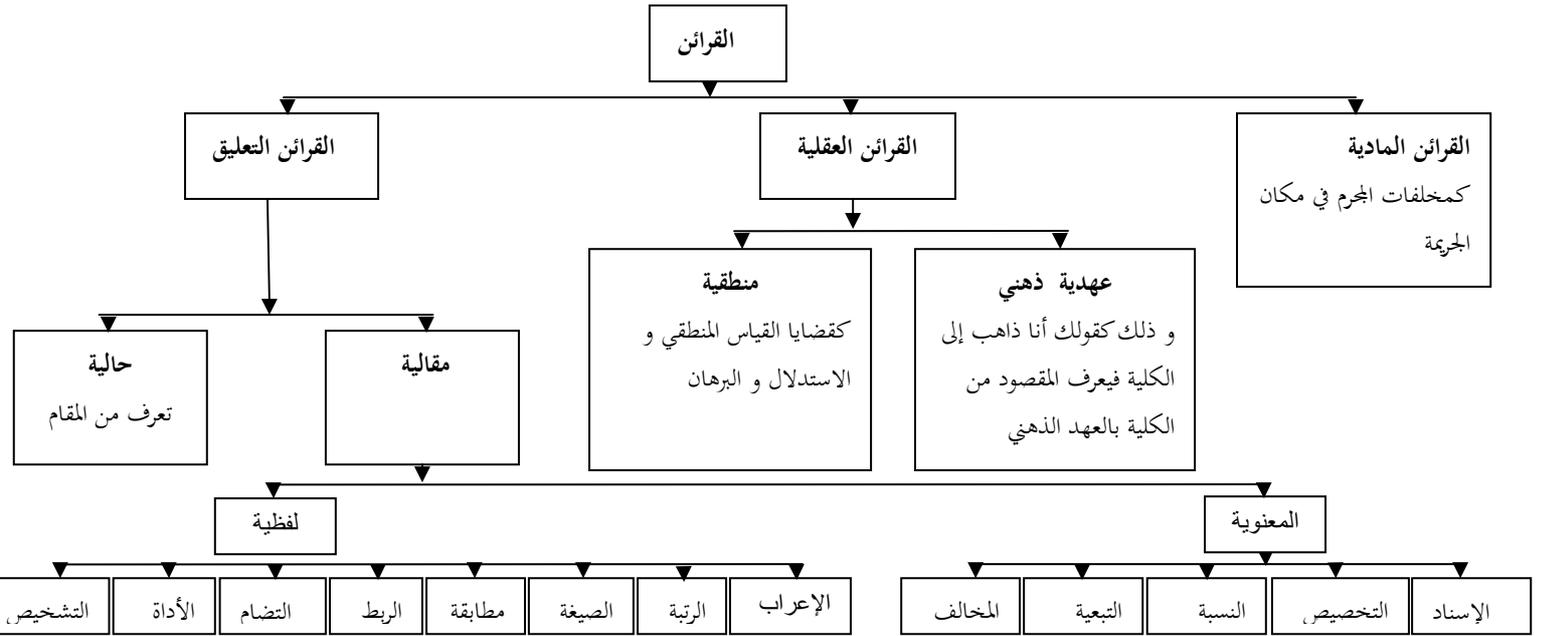
¹ سورة الكهف : الآية 17

² سورة الكهف : الآية 15

³ سورة الأحزاب ، الآية 48

⁴ ابن عودة بالقاسم ، سير النحو عند تمام حسان - مجلة الباحث العدد ص 186

⁵ تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، دار الثقافة ، دار البيضاء ، سنة 1994 ص 186



وللتعليق النحوي من جهة القرائن المقالية نوعان: "القرائن اللفظية والقرائن المعنوية، القرائن

المعنوية هي العلاقة التي تربط بين عنصر من العناصر الجملة وبين بقية العناصر، و تشمل القرائن

المعنوية: الإسناد التخصيص، النسبة، التبعية، المخالفة، والقرائن اللفظية هي عنصر من عناصر

الكلام يستدل به على الوظائف النحوية¹."

و تشمل القرائن اللفظية: الإعراب، والرتبة، الصيغة، المطابقة، الربط، التضام، الأداة، التنعيم.

القرائن في ضوء نظرية التعليق و السياق :

"و التعليق عند عبد القاهر الجرجاني هو المركزية في النَّحو العربي"²، وهو الإطار الضروري

لتحليل النَّحو أو الإعراب، و هو يحدد معاني الأبواب النحوية في السياق وتمييز العلاقات بينهما

بصورة وافية نافعة في تحليل النحوي لهذه المعاني الوظيفية النحوية ووسيلة في تلك القرائن .

¹ تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ، دراسة لغوية و أسلوبية للنص القرآني ، دار عالم الكتب - ط 1 ، 1413 هـ ، 1993

م ص 7

² المصدر السابق، اللغة العربية معناها و مبناها ، ص 189

ويعد تمام حسان أن الكشف عن العلاقات السياقية أو التعليق كما يسميه عبد القاهر الجرجاني هو الغاية من الإعراب¹، و مصطلح السياق قد ورد في التراث العربي، إلا أنه يستعمل استعمالاً "سياقية" مختلفة و قابلة لتعدد المفاهيم، و أمّا السياق عند العرب المحدثين فهو يستعمل مقابلاً للمصطلح الإنجليزي (Contexte) الذي يراد به: المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية أو غير اللغوية .

قال هال يداي (Halliday): "إن السياق هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، و النص الآخر لا يشترط أن يكون قولياً، إذ يمثل البيئة الخارجية للبيئة اللغوية بأسرها، وهو بمثابة الحيز الذي يربط التمثل اللغوي ببيئة خارجية"².

و رأى تمام المقصور بالسياق التوالي ومن ثم ينظر إليه من ناحيتين: "أولاهما توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبب والسياق من هذه الزاوية يسمى سياق النص "والثانية توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي و كانت ذات علاقة بالاتصال"³.

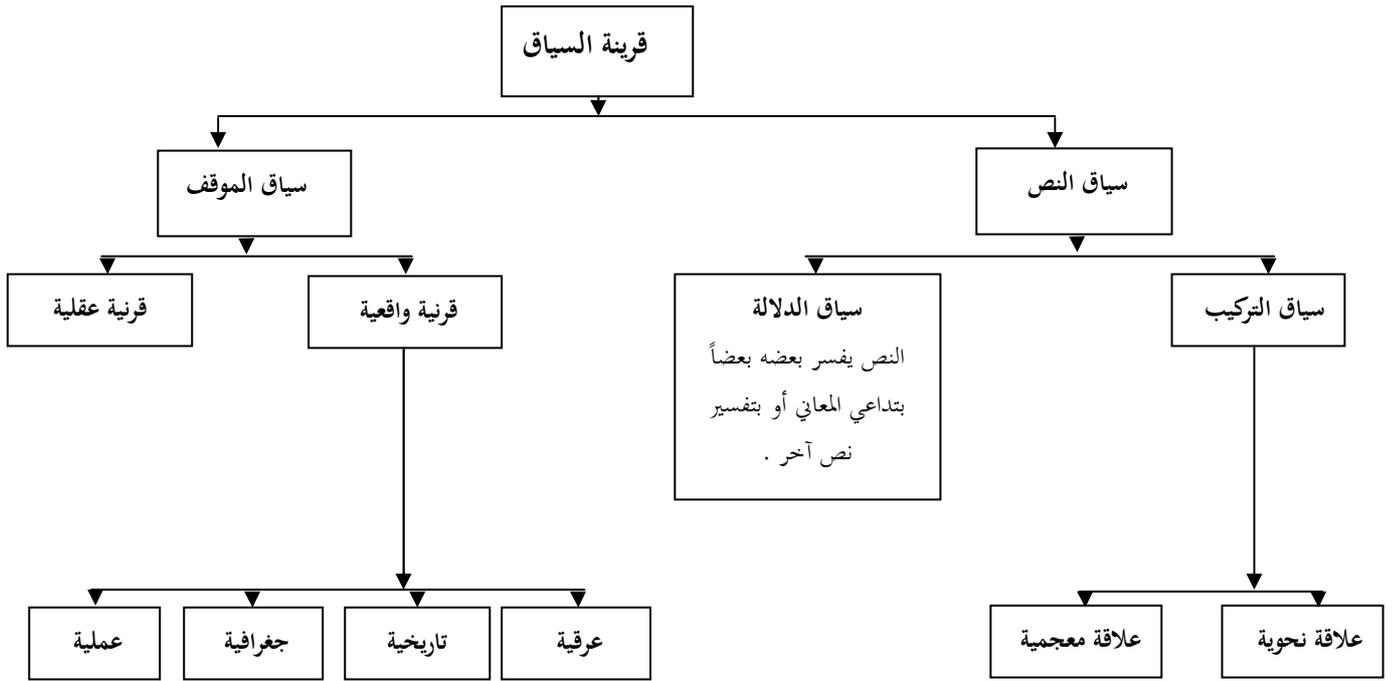
ومن هذه الناحية يسمى السياق : "سياق الموقف".

ويوضح تمام حسان أن قرينة السياق على النحو التالي :

¹ المصدر نفسه ص 181

² يوسف نور عوض - علم النص و نظرية الترجمة - دار الثقة للنشر و التوزيع - مكة المكرمة 1410 هـ ص 29

³ المصدر السابق ، ص 190



و في ضوء ما سبق يرى تمام أنّ سياق النّص إمّا أن يكون قربنة تركيبية أو دلالية، والأولى

قوامها العلاقات النحوية والمعجمية، و الثاني قوامها العلاقات النصية أما سياق الموقف فإما إن

يكون قربنة واقعية وعقلية، والواقعية مبنها على العرف أو أحداث التاريخ، أو مواقع جغرافية أو

العلاقات العملية في إطار الموقف الذي حدث فيه الكلام، أما العقلية فإنها تنشأ عن تداعي المعاني

بحيث يثير بعضها البعض في تسلسل منطقي .

و يعرف السياق عند فريث (A.R Firth) ¹ يسمى *contexte of situation*

يرى أنّه بناء مجرد و مجموعات من فئات.

إنّ نظرية العامل هي من فكرة النّحو العربي، و أوّل ظهورها منذ سيبويه، الذي ثبت أوصولها

و مدّ فروعها وأحكامها إحصائياً، بحيث أخذت صورتها التي تثبتت على مر العصور، و في دراسة

أصول النّحو أن هذه النظرية بنيت على فكرة القياس والعلة، والعلة كانت من فكرة أرسطو .

¹ بحث مقدم للمشاركة في المؤتمر ، المصطلح اللساني الحديث عند علماء اللغة العرب المعاصرين "التأصيل و التقريب" جامعة مؤتة - المملكة الأردنية الهاشمية في الفترة من 29.04 إلى 02.05 . 1429 هـ الموافق على : 05 . 07 . 2008 م ص 7

قال تمام حسان في مقدمة كتابه اللغة العربية معناها ومبناها : "رأى عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز يتكلم في النظم والبناء، و الترتيب والتعليق، و كلها أمور تتصل بالتراكيب أكثر منها تتصل بالمعاني المفردة"¹.

نظرية العامل و تضافر القرائن :

ينظر تمام أنه "إذا كان الفاعل مرفوعاً في النحو فلأن العرف ربط بين فكريتي الفاعلية والرفع دون ما سبب منطقي واضح"²، و قد جاءت هذه الحركة في نمطية اللغة على هذه الصورة لأن العرف ارتضاها، و الشرط الوحيد في كل ذلك أن يكون هناك ارتباط تام بين اختلاف الحركات واختلاف الأبواب النحوية التي يرمز إليها أي أن يراعي في الفرق بين باب الفاعل وباب المفعول مثلاً: أن يعبر عنه بفرق شكلي يظهر الحركات الإعرابية الدالة على الفاعل وبين الحركة الإعرابية الدالة على المفعول .

أ- الإسناد: الإسناد عند علماء اللغة العربية هو ضم كلمة إلى أخرى على وجه يفيد معنى تاماً³، و مفهوم الإسناد عند تمام في تحديد المعنى النحو بالعلاقات السياقية "هو العلاقة الرابطة بين المبتدأ و الخبر ثم بين الفعل والفاعل، أو نائبه، تصبح عند فهمها وتصورها قرينة معنوية على أن

¹ تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها - الدار البيضاء ، سنة 1994 ، ص 12

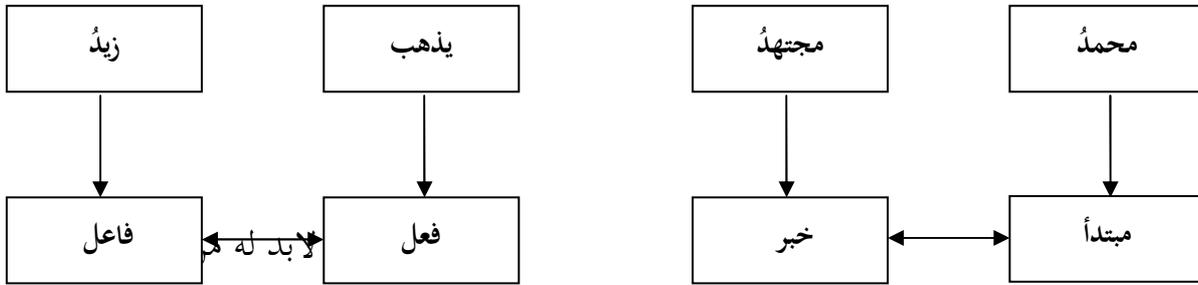
² المصدر نفسه ص 20

³ مجمع اللغة العربية المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، جمهورية مصر العربية سنة 2004 م ص 454

الأول مبتدأ، والثاني خبر، أو على الأول فعل والثاني فاعل أو نائب فاعل "1، على سبيل المثال:
محمد مجتهد، (محمد) مبتدأ مسند إليه لا بد له من مسند .

و في مثل : يذهب زيدُ (يذهب) فعل مرفوع، (زيد) فاعل لأن كل فعل لا بد له من فاعل.

و في مثل: ضرب محمد كلباً، ف (ضرب) مبني على الفتحة، (محمد) فاعل لـ "ضرب"، كلباً
مفعول به منصوب لأن كل فعل متعد لا بد له من مفعول، فـ"محمد" هو الذي ضرب
"الكلب"، فالكلب ضرب بمحمد.



ب- التخصيص: تكشف قرينة التخصيص عن قسم من العلاقات التي تعيد تقييد المعنى
الإسنادي أو ما يقع في حيزه، و تضيقاً له، فالتخصيص: علاقة نحوية عامة تربط بين المعنى
الإسنادي المستفاد من المسند، وظائفه عن المنصوبات تشتمل على المفعولات الخمسة، والحال
و المستثنى و التمييز لتكامل المعنى التركيبي، و تصنيف معنى زائداً على معنى الإسناد .

¹ المصدر السابق ص 193

فجملته (علم زيد) يخصص بتعديته إلى مفعول بع "عمرو" بقولنا: (علم زيد عمرا) فعلاقة الإسناد خصصت بالتعدية ويمكن تخصيصها بتعدية أخرى لمفعول ثانٍ (النحو) فتقول: (علم زيد عمرا النحو)، و ممكن أن يخصص بعلاقة الظرفية بالمفعول فيه كأن نضيف أمس¹.

و قرينة التخصيص هي قرينة معنوية كبرى تتفرع منها قرائن معنوية أخص منها وتدل كل قرينة على معنى خاص، فتكون قيوداً على علاقة الإسناد، إذ يعبر كل منهما من جهة خاصة في فهم معنى الحدث الذي يشير إليه الفعل أو الصفة، و هي تشتمل على ما يأتي: "التعدية، والغائية (غائية العلة، و غائية المدى) المعية، الظرفية، التحديد، التوكيد، الملابس، التفسير، الإخراج"².

ج - النسبة: وأما بالنسبة فهي "قرينة كبرى كالتخصيص، و تدخل تحتها قرائن معنوية فرعية كما دخلت القرائن المعنوية المتعددة تحت عنوان التخصيص"³.

و النسبة قيد عام على علاقة الإسناد، أو ما وقع في نطاقها أيضاً، و هذا القيد يجعل علاقة الإسناد نسبية، و واضح أن معنى النسبة غير معنى التخصيص، لأن معنى التخصيص تضيق و معنى النسبة إلحاق.

وتسمى هذه القرينة قرينة الإضافة، وهي "المعاني التي تستفاد من حروف الجر وتكون الإضافة على أي حرف منها و ليس على معنى اللام دون غيرها"⁴، فقد تكون الإضافة على معنى "عن"

¹ صالحه حاج يعقوب، المقام و القرينة الحالية و دورهما في المعنى، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

² تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها - الدار البيضاء - سنة 1994 م ص 194 - 195

³ المصدر نفسه ص 194 - 195

⁴ المصدر السابق ص 198

نحو: (تجاوز الحد) أو معنى "على" نحو: (ركوب الحصان) أو معنى "إلى" بلوغ المدينة، أو معنى "الباء" نحو: ضرب العصا، و هلم جر .

د - **التبعية** : و أما التبعية فقريئة قوامها الربط بين عنصريين من عناصر الجملة تجعلهما يقفان على نفس المستوى إزاء نواة الجملة، والمقصود بالنواة العنصر الذي يفيد الحدث في الجملة (الفعل أو الوصف أو المصدر المضاف أو المتعدى)، وهذه القرينة تشمل النعت والتوكيد والنسق والبدل والبيان¹.

و هذه القرائن المعنوية تتضافر نعتها قرائن أخرى، لفظية أشهرها قرينة المطابقة تمدان أشهر ما تكون فيه المطابقة بين التابع والمتبوع هو العلامة الإعرابية، "كما أن هناك قرينة أخرى توجد فيها جميعاً هي الرتبة، إذ رتبة التابع هي التأخر عن المتبوع دائماً أيًا كان نوعها.

و مثل ذلك : (قام محمدٌ و عمرو) و أصله (قام محمد و قام عمرو)".

ولا يجوز أن يوضع قام ثانياً لأن وظيفة الواو العاطف تحل محل تكرار الجملة².

القرائن اللفظية :

أ- **علامة الإعراب**: العلامة الإعرابية تعد إسهاماً من النظام الصوتي في بناء النظام الصوتي، لقد كانت العلامة الإعرابية أوفر القرائن حظاً من اهتمام النحاة، فجعلوا الإعراب نظرية

¹ تمام حسان ، اجتهادات لغوية - عالم الكتب ط1 - 2007 م ص 91

² المرجع السابق : ص 7

كاملة سمّوها نظرية العامل، وتكلموا فيه عن الحركات والدلالات ، والحروف ونيابتها عن الحركات، ثم تكلموا في الإعراب الظاهر والإعراب المقدر والمحل الإعرابي .

"وشرح تمام العلامة الإعرابية بمفردها لا تعين على تحديد المعنى، فلا قيمة لها بدون ما أسلفت القول فيه تحت اسم (تضافر القرائن)"¹.

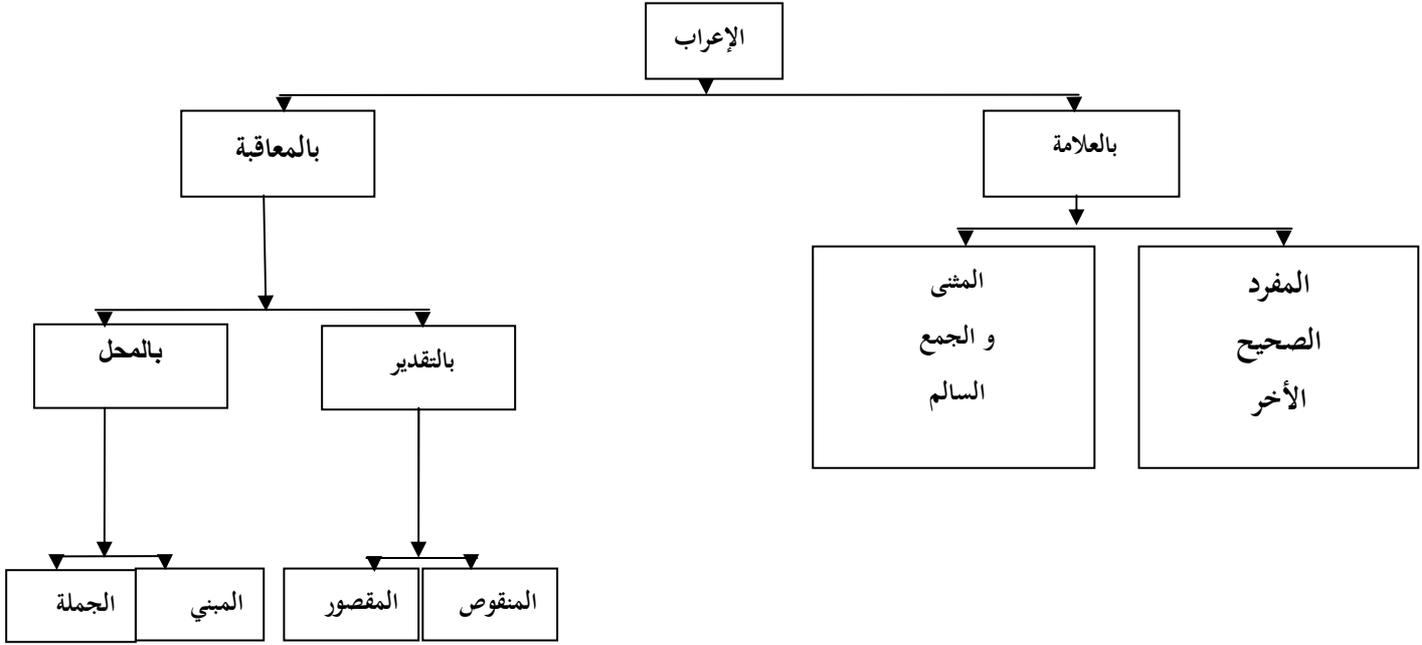
و هذا القول صادق على كل قرينة أخرى بمفردها، سواء أكانت معنوية أم لفظية، وبهذا يتضح أن العامل النحوي و كل ما أثير حوله من ضجّة لم يكن أكثر من مبالغة أدى إليها النظر السطحي والخضوع لتقليد السلف والأخذ بأقوالهم على علتها.

قسم تمام الإعراب إلى قسمين: هما الإعراب بالعلامة و الإعراب بالمعاقبة، فالإعراب بالعلامة إنما يكون بالحركة للمفرد الصحيح الآخر، وبالحروف للمثنى والجمع و الأسماء الخمسة، أما المعاقبة للمقصور و المنقوص²، و لا تظهر على المقصور، ولا على المنقوص، و لا على المبني، ولا على الجملة ذات المحل، ومن شأن ذلك أن يجعل العلامة محدودة الفائدة .

ومن هنا نشأت فكرة المعاقبة للمقصور والمنقوص، و فكرة المحل الإعرابي للمبني و للجملة الفرعية، وبدا الأمر على هذه الصورة .

¹ تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها - الدار البيضاء سنة 1994 ص 205

² تمام حسان ، الفكر اللغوي الجديد - عالم الكتب ، ط 1 - القاهرة - سنة 2011 م ص 106



ب- الرتبة: الرتبة وصف لمواقع الكلمات في التراكيب، للرتبة نوعان هما: رتبة محفوظة، و رتبة غير محفوظة، و الرتبة المحفوظة تخص النحو، لأن أي اختلال يمسها يجعل التركيب مختلفاً غير مقبول، على حين أن الرتبة غير المحفوظة تخص البلاغة، إذ اهتم علم المعاني الذي بين أغراض التقديم والتأخير ضمن دراسة الأسلوب لا التركيب ومن أمثلة الرتبة المحفوظة: تقدم الموصول على الصلة، الموصوف على الصفة، الفعل على الفاعل، المضاف على المضاف إليه .

و من أمثلة الرتبة غير المحفوظة : تقدم المبتدأ على الخبر و الفاعل على المفعول¹ ، نحو: ضرب (موسى عيسى) (و أخي صديقي)، إذ يتعين في موسى أن يكون فاعلاً وفي أخي أن يكون مبتدأ محافظة على الرتبة لأنها تزيل اللبس .

¹ المرجع السابق : صالحة حاج يعقوب ، ص 11

ج/ الصيغة:

والصيغة تساعد على فهم معنى الكلام، وهي " المبنى الصرفي للأسماء والأفعال، والصفات وهي قرينة لفظية على المعنى تساعد حركة الإعراب، وتقلل من دورها الذي يقدمه علم الصرف للنحو، وأمثلة هذه القرينة في بيان المعنى النحوي كثير كالفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر ونائب الفاعل، ونحو ذلك يطلب أن تكون أسماء لا أفعالا، نحو: " زيد قائم " فـ " قائم " يقيد بكلمة زيد مفردا وجنسا وكذلك في سعاد قائمة تتأثر سعاد مفردا وجنسا¹.

د/ المطابقة:

المطابقة تساعد على فهم معنى الكلام إلى جانب الإعراب والمطابقة بين أجزاء الكلام، وهي قرينة لفظية توثق الصلة بين أجزاء التركيب، وتعين على إدراك العلاقات التي تربط بين المتطابقين، وإذا ما احتل شيء من المطابقة، أصبحت الكلمات الواردة في التركيب مفككة العرى مما يؤثر في المعنى تأثيرا سلبيا، وتكون المطابقة فيما يأتي: العلامات الإعرابية، الشخص "التكلم والخطاب والغيبة"، العدد "الأفراد والتثنية والجمع"، النوع "التذكير والتأنيث" والتعيين "التعريف والتنكير"².

نحو : تركيب صحيح المطابقة: الرجلان الفاضلان يقومان ، وإزالة المطابقة مثلا:

- مع إزالة المطابقة في الإعراب : الرجلان الفاضلين يقومان.

- وإزالة المطابقة في الشخص: الرجلان الفاضلان تقومان.

- وإزالة المطابقة في العدد:الرجلان الفاضلان يقومون.

¹. المرجع السابق ص11

². تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص 213.

- وإزالة المطابقة في النوع: الرجلان الفاضلتان يقومان.

- وإزالة المطابقة في جميع ذلك: الرجلان فاضلات أقوم.

هـ/الربط:

هو قرينة لفظية على اتصال احد المترابطين بالآخر، وهو ينبغي أن يتم بين الموصول وصلته، وبين المبتدأ والخبر، وبين الحال وصاحبه، وبين المنعوت ونعته، وبين القسم وجوابه، وبين الشرط وجوابه¹.

والربط نوعان:

أولهما: الربط بالإحالة: وذلك أن يشير عنصر لاحق إلى عنصر آخر سابق في سياق النص، ومن ذلك أن يعاد ذكر العنصر السابق بلفظه، أو بمعناه، أو بضميره، أو الإشارة إليه...الخ.
كما يؤدي حرف الجر وظيفة ربط المجرور بالفعل ونحوه، ويؤدي حرف العطف إلى ربط احد المتعاطفين بالآخر، وتؤدي الأدوات الداخلة على الجمل بما لها من رتبة الصدارة إلى الربط بين ما يقع في آخرها من مفردات الجملة.

وثانيهما : الربط بالمطابقة: في حقول المطابقة المختلفة، وهي العدد (الأفراد والتثنية الغيبة)

والنوع (التذكير والتأنيث) والتعيين (التعريف والتنكير) والإعراب².

¹ . صالحه الحاج يعقوب، المقام والقرينة الحالية ودورها في المعنى ص 12.

² . تمام حسان.الفكر اللغوي الجديد. عالم الكتب 1420هـ/ 2000م . القاهرة. ص 107.

و/ التضام:

المقصود بالتضام أن يكون احد العنصرين من عناصر اللغة طالبا لعنصر آخر أو قابلا لصحته، أو رافضا لها، من هنا نشأت المصطلحات الثلاثة¹:

التلازم والتوارد و التنافي، فالمقصود بالتلازم افتقار اللفظ إلى لفظ آخر يلازمه ، فلا يرد بدونه كافتقار حرف الجر إلى المجرور والموصول إلى صلة له.

والمقصود بالتنافي عكس كل ذلك كعدم جواز الإخبار بالزمان عما يفيد دلالة على الشيء المادي إلا عند أمر اللبس.

والمقصود بالتوارد هو المناسبة المعجمية بين عناصر سياق الجملة.

ونجد أن تشو مسكي قد كشف عن جانب هام في علاقات التوارد، وذلك ما يمكن أن نطلق عليه "قيود التوارد"ترجمة لعبارة "Sélection restriction"، وقد علق تشو مسكي هذه الظاهرة بالمناسبة النحوية لا بالصحة النحوية².

ز/الأداة:

أداة "وجمعها أدوات، فألفها أصلها واو، ولكل ذي حرفة أداة، ومن آليته التي تستخدم للربط بين الكلام، وللدلالة على معنى في غيرها، كالتعريف في الاسم، أو الاستقبال في الفعل، أو هي

¹. المرجع السابق ص 110.

² تمام حسان ، مقالات في اللغة و الأدب ،عالم الكتب، ط1، القاهرة ص 258.

الحرف المقابل للاسم والفعل، وقد استخدم المبرد لفظة أداة لمعنى الآلة في العمل سواء كانت حرفاً أو غيره¹.

وهذه الأدوات على نوعين: " أحدهما الأدوات الداخلة على الجمل، والثاني الأدوات الداخلة على الجمل فرتبها على وجه العموم الصدارة، وأما الأدوات الداخلة على المفردات فرتبها دائماً رتبة التقدم"².

ومثال: أدوات الجمل: النواسخ جميعاً، وأدوات النفي والتأكيد والاستفهام والنهي والتمني والترجي، والعرض والتخصيص، والقسم والشرط، والتعجب والنداء .

ومثال الأدوات الداخلة على المفردات حروف الجر والعطف، والاستثناء والمعية والتفسير والتحقيق، والتعجب والتعليل، والابتداء النواصب، والجوازم التي تجزم فعلاً واحداً.
و/ التنغيم:

ومن قرائن التعليق اللفظية في السياق التنغيم، وهي " الإطار الصوتي الذي يقال له الجملة في السياق " .

فقد عرفه تمام الحسن ، بأنه ارتفاع الصوت، وانخفاضه أثناء الكلام، وله وظيفة نحوية هي تحديد الإثبات والنفي في جملة لم نستعمل فيها أداة الاستفهام، و لا يمكن أن نتصور التنغيم إلا في الكلام المنطوق الذي نجد فيه نغمة موسيقية تعبر عن مشاعر الفرد، ومعنى كون النغمة قرينة، إن كل معاني الأساليب النحوية له ما يناسبه من التنغيم.

¹ . تمام الحسن ، اللغة العربية معناها ومبناها.ص223

² . المصدر نفسه ص 225.

القرينة اللفظية والقرينة المعنوية:

أ- القرينة اللفظية:

"القرينة اللفظية عنصر من عناصر الكلام يستدل به على الوظائف النحوية، فيمكن الاسترشاد بها، أن نقول هذا اللفظ فاعل وذلك مفعول به أو غير ذلك، ومثل هذه القرائن كمثل معالم الطريق التي يهتدي بها المرء إلى مكان الذي يقصده، وتختلف القرائن باختلاف اللغات."¹

وفي العربية من القرائن اللفظية قرينة البنية، والإعراب، والربط، والرتبة، والتضام وفيها فوق ذلك كبرى القرائن اللفظية، وهي قرينة السياق، ولا تدل واحدة من هذه القرائن بمفردها على المعنى النحوي، وإنما يتضح المعنى بعصبة من القرائن المتضافرة فمثلها في تضافرها على تحديد المعنى النحوي مثل ما يهتدي به الطبيب إلى تحديد نوع المرض، فهو لا يكتفي لتعيين المرض بالاستدلال عليه بالحمى أو صفرة الوجه، أو الغثيان أو الرعشة، وقد يضيف إليه اختبارات وتحليلات أخرى عن تاريخ المرض، أو غير ذلك من الأمثلة .

ب/ القرينة المعنوية:

" القرينة المعنوية هي العلاقة التي تربط بين عنصر من عناصر الجملة وبين بقية العناصر، وذلك كعلاقة الإسناد التي هي نسبة عنصر الحدث الذي في معنى الفعل، أو الوصف إلى فاعله أو واسطة وقوعه أو حل وقوعه"². وذلك كالذي في: قام زيد، و مات عمرو وانكسر

¹ .تمام الحسن، البيان في روائع القرآن. دراسة لغوية، عالم الكتب القاهرة 2000م. ص 8/7.

² .صالحة حاج يعقوب. المقام والقرينة الحالية ودورها في المعنى. ص12.

الإناء، وزيد قائم وعمرو هالك والإناء محطم أو مكسور، وعلاقة التعديّة تقوم بين الفعل ومفعوله الذي وقع عليه الحدث.

فقولنا: " قرأ زيد الدرس " خصصت القراءة بالدرس وسكتنا عن كل مقروء آخر، فإذا سمع السامع الجملة، أو قراها القارئ، فأدرك العلاقة بين عناصر الجملة، كادراك ما إذا كان المصدر في " ودع آذاهم"¹. مضاف إلى فاعله أو إلى مفعوله، وان هذه القرينة المعنوية تتضافر مع القرائن اللفظية فيتضح المعنى بمجموع ما تتضافر من القرائن.

تطبيق نظرية تضافر القرائن:

اللغة تتكون من أربعة: عناصر، الأصوات، الصرف، النحو والدلالة، وكل عنصر يحتاج إلى المناهج، والأنظمة المختلفة في دراسته، كذلك لغير الناطقين الذين يتعلمون العربية كلغة ثانية، وفي رأي تمام أن عنصر اللغة من ناحية النحو يفهم بالقرائن اللغوية.

وللقرائن النحوية خمسة مصادر: " النظام الصوتي، النظام الصرفي، النظام اللغوي، دلالة السياق

و الدلالة الحالية Pragmatique "²، وأما نظام اللغوي للغة يتكون مما يأتي :

1- طائفة من المعاني النحوية العامة كالخبر والإنشاء، الإثبات، النفي والتأكيد وكالطلب وفيه الأمر والنهي والاستفهام والدعاء والتمني والترجي والعرض والتخصيص، وكالشرط والقسم والتعجب والمدح والذم... الخ.

¹ . سورة الأحزاب. الآية 48.

. بهاء الدين عبد الوهاب عبد الرحمان. الموازنة بين نظرية العامل ونظرية تضافر القرائن في الدرس النحوي. مأخوذ في 23 أغسطس 2015م

2- مجموعة من المعاني اللغوية الخاصة، أو معاني الأبواب المفردة كالفاعلية والمفعولية والحالية... الخ.

3- مجموعة من العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصة، وتكون القرائن المعنوية لها في تكون صالحة عند تركيبها ببيان المراد منها، وذلك كعلاقة الإنسان والتخصيص والنسبة والتبعية.

4- النظام اللغوي ما يقدمه علماء الصرف و الصوتيات لعلم النحو، من المباني الصالحة للتعبير من معاني الأبواب، وتلك الصالحة للتعبير عن العلاقات.

5- وأخيرا تأتي القيم الخلافية أو المقابلات بين احد أفراد كل عنصر مما سبق وبين بقية أفرادها، كأن نرى الخبر في مقابل الإنشاء، أو الشرط الامكاني في مقابل الشرط الامتناعي، أو المدح في مقابل الذم أو المتقدم في مقابل المتأخر، أو الاسم المرفوع في مقابل الاسم المنصوب، أو المتعدي في مقابل اللازم.¹

ولفهم فكرة العلاقة السياقية لغاية من النحو عند تمام وموقع الإعراب عند القدماء، قدم

الباحث المثال كما يلي "استعار محمد الكتاب"

¹. المرجع السابق : اللغة العربية معناها ومبناها ص35.

موقع الإعراب عند القدماء	العلاقة السياقية عند تمام حسان			الكلمة
فعل ماض مبني على الفتح ظاهرة على آخره	صيغة فعل ماض		استعار	
فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره لأنه اسم مفرد	قرينة الصيغة	اسم	الفاعل	محمد
	قرينة العلامة الإعرابية	مرفوع		
	قرينة التعليق	علاقة بينه وبين الفعل الماضي هي علاقة الإسناد		
	قرينة الرتبة	رتبة التأخر		
	قرينة البنية	إنَّ الفعل معه مبني للمعلوم		
	قرينة المطابقة	إنَّ الفعل معه مسند إلى المفرد الغائب		

مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره لأنه من اسم مفرد	قرينة الصيغة	الاسم	مفعول به
	قرينة العلامة	منصوب	
	الإعرابية		
	قرينة التعليق	إنَّ العلاقة بينه وبين الفعل هي علاقة التعديّة	
	قرينة الرتبة	إنَّ رتبته من كل من الفعل و الفاعل هي رتبة التأخر	
قرينة الرتبة	إنَّ هذه الرتبة غير محفوظة		

وواضح أنّ التضافر يعني عن القول بالعامل النحوي كما سبق الذكر، وهو أن نقيم لكل قرينة على حدة نظرية خاصة بما تضبط سلوكها. وذلك أمر ياباه الاقتصاد المنهجي في البحث العلمي. " ومن الأفضل جعل القرائن حزمة واحدة فيكون بيان المعنى راجعا إلى اجتماعها وتضافرها. فلا فضل لواحدة منها على الأخرى بحيث تستحق تنظيرا إضافيا يحمل ذكر ما عداه " ¹.

¹. تمام حسان. اجتهادات لغوية. عالم الكتب. ط. 1. 2007م، القاهرة. ص 98-99.

وكنخلاصة: وفي ضوء ما سبق يقدم الباحث الخلاصة كآتي: 1- قدم تمام حسان الفكرة الجديدة التي تسمى بنظرية القرائن وهذه النظرية تبحث عن ارتباط المعنى والمبنى في تحليل النحو العربي، وفهم النصوص العربية.

2- انتقد تمام نظرية العامل في دراسة النحو لأنها تستعمل نظرية العلة في تحليل النحو. أمّا الفكرة الجديدة التي تبدل نظرية العامل فهي نظرية تضافر القرائن. وهذه النظرية هي نظرية ارتباط الكلمات أو الجملة أو سياق الكلام.

إنّ تعليم نظرية العامل في الدراسة النحوية، التي تهدف إلى فهم الإعراب أسهل نظرية تضافر القرائن، لأنّ تضافر القرائن يحتاج إلى فهم المعنى والمبنى. أما تحليل النحو الذي يهدف إلى فهم امن اللبس في المعنى وفهم طلب الخفة في المبنى دراسة تحليلية عن النصوص العربية فنظرية تضافر القرائن أفضل من نظرية العامل.

مفاهيم لسانيات النص في دلائل الإعجاز:

من خلال دراسة كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، وجدت منظومات إصلاحية يمكن توظيفها في دراسة النصوص وتحليل الخطابات بأنواعها، وأشكالها كما هو الشأن عند الغربيين ويمكن إجمالها فيما يلي:

النّظم _ التعليق _ الفصاحة _ معاني النّحو _ الوجوه والفروق والموضع _ الفروق في الخبر _ فروق في وجوه الشرط والجزاء _ الفروق في الحال _ من آليات الربط والارتباط.

1 - النّظم :

مصطلح النّظم وهو نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه من بعض ونظيره النسيج والتأليف والصبغة والبناء، والوشى والتحبير، وما أشبه ذلك.¹

¹. المصدر السابق، ص 54.

شبه الجرجاني النظم في ستة عناصر، يتم من خلالها بيان مدى اكتمال النظم ومدى تحقيقه للتماسك والتناسق، سواء على مستوى البناء السطحي أو العميق في الخطاب وحتى يقرب ويوضح فكرة النظم القرآني الكريم المعجز بألفاظه، وترتيب مألوفة عند العرب.

هذه العناصر إذا ما لم يتم مراعاتها في تأليف الكلام لبلاغة الخطاب الممثلة في محكم السبك والحبك، كما يسمى في الدراسات اللسانية المعاصرة باعتبارها نتائج لمراعاة نظم الكلمات وفق معانيها وما يقصده المتكلم.

" فليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل تناسقت دلالتها و تلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل " ¹.

وذلك من خلال ترتيب ألفاظها وتراكيبها على حسب ترتيب المعاني النفسية، وتصاغ في نسيج لغوي محكم الصياغة والتأليف.

فالنص نسيج لغوي محكم البناء بين المعاني النفسية والتراكيب اللغوية المتغيرة عنه في كل متماسك، وفي نظره تتقاطع مع ما جاء به العالم "فاندايك" في نظرية النسيج المتشابك للنص، حيث اعترض على القواعد الكلاسيكية في تحليل النصوص، ودعا إلى الوقوف في تحليلها على آليات الإضافة، الحذف، الذكر والاستبدال. ليخرج من دراسته نحو الجملة ليصل إلى نحو النص.

يقول الجرجاني: " على أن هاهنا نظما وترتيا وتأليفا وتركيبا وصياغة وتصويرا أو نسجا وتخييرا. هذه وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هو مجاز فيه سبيلها في الأشياء التي حقيقية فيه " ².

¹. المصدر السابق . ص 54.

². المصدر نفسه . ص 46.

نخلص إلى القول أنّ الجرجاني أعطى ثنائية للنص بدأت بالنظم وانتهت بالتحبير. وفيها نوع من التناغم (نظم، ترتيب) (تأليف، تركيب) (صياغة، تصوير) (نسيج، تحبير). وفي هذا إشارة إلى مستويات الخطاب أوله النظم و آخرها التحبير هذه الصفات تحقق بلاغة تامة للخطاب في أعلى صورته.

درجة السبك ← نظم + ترتيب (علاقة ظاهرية).

درجة الحبيك ← صياغة وترتيب (علاقة باطنية).

والغرض من تشبيه الجرجاني للنظم بهذه الصناعات، هو تقريب المعنى لعامة الناس فتجده انطلق من النظم إلى التحبير. حتى يتسنى لعامة الناس فهم ما يقصده، وحتى يرفع الغموض والالتباس. فجاء بهذه الصناعات التي سادت في عصره ويمكنه أن يكون بينهما وبين النظم نوع من التشابه في طريقة الصنع. إذا اعتبرنا اللغة مادة خاما، والنظم صناعا للكلام البليغ.

مما يمكن الخروج بملاحظات هي¹:

1. حالة المنظوم بعضه من بعضه: إن حقق المعنى مع بعضه، هذا المعنى يتفق إلى حد بعيد جدا مع

المفهوم الغربي الحديث coherence أو الاتساق.

2. كيف ما جاء أو اتفق: أي بطريقة منطقية تربط معنى كل لفظة بمعنى اللفظة التي تليها والتي

تسبقها، ولا يكون بطريقة عشوائية. هذا ما يقابل المصطلح الأجنبي Aléatoire

¹ المصدر السابق، ص: 55.

3. عندما شبه الجرجاني النظم ب: النسيج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتجوير، من خلالها

أن يقرب مفهوم النظم الذي يقترب كثيرا من مفهوم الانسجام *cohésion* عند الغريين.

إنّ مثل هذا الترابط أو التناسق بين الأدوات اللغوية في ما يسمى عند المحدثين الغريين

بالاتساق وكيفية تحققه في النص مع مراعاة الجانب الدلالي العميق (الحبك) هو ما أشار إليه كل من

هال يداي ورقية حسن، حيث يريان أن النص يشكل مجموعة من الجمل التي ترتبط فيما بينها

فتشكل بنية النص ووحدته.

وأكد الجرجاني أنّ النّظم هو العمدة والأساس في الإعجاز القرآني. وعليه فإنّه يعادل الانسجام في

اللسانيات النصية.

فالنّظم :

على مستوى السياق اللغوي (السبك) : —————→ *cohésion* (الانسجام)

على مستوى سياق الحال (الحبك): —————→ *cohérence* (الاتساق)

2/ التعليق:

من أهم المصطلحات التي وردت في كتاب دلائل الإعجاز ويعرفه بقوله: " واعلم أن لا نظم في

الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها البعض، ويبني بعضها على البعض ولجعل هذه تسبب من

تلك. هذا مالا يجهله عاقل، ولا يخفى على احد من الناس " ¹.

إنّ هذا النص يلخص لنا بيانات ما يلي:

¹. المصدر السابق، ص 54

أ/ إنَّ لا نظم ولا ترتيب في الكلم حتى يعلق بعضها ببعض.

ب/ الكلم ترتب في النطق ترتيب معانيها في النفس.

من هذا نستخلص أن النظم ما هو إلا تحصيل حاصل لعمليتين:

ترتيب الكلم وتعليقه بعضه البعض، على أن يكون الترتيب مرحلة لاحقة للتعليق. " فالكلم بأقسامه

الثلاث: الاسم، فعل، حرف، يرتب بسبب الترتيب معانيها في النفس. فلا يرتب ألا بعد تعليق، و

الترتيب مقره النفس، وتفسيره ذلك إن كلا المقامين النظميين لهما بعدان : بعد لفظي ظاهري

"شكلي"، وبعد نفسي خفي "معنوي" حيث يقوم المتكلم بتعليق دلالات الألفاظ في عقله

أولاً، وذلك بضم بعضها إلى بعض. وترتيبها بحسب معاني النحو ووفق مقدرة المتكلم

اللغوية، فتكون النتيجة تنظيمها وترتيبها في النطق"¹.

هذا الكلام يثبت أن الترتيب يكون في المعاني. لأنها مناط اهتمام المتكلم وهي مقصودة من

الكلام، ومن هذا فان ما نلاحظه من التقديم والتأخير مراده هو مقتضى الكلام.

ونخلص أن التعليق هو ارتباط الألفاظ بعضها البعض سواء أكانت أسماء أم أفعال أم حروفاً ،

ولا يكون هذا اعتباراً لان ترتيب الألفاظ يكون بحسب ترتيب المعاني في النفس ، فالألفاظ هي

أوعية المعاني. ومن هذا الربط يتكون النظم.

فالتعليق بمعناه العام عند الجرجاني يقترب جدا من مفهوم الاتساق عند اللسانيين الغربيين.

إذن:

¹. مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في الجملة العربية. الشركة المصرية العالمية للنشر لنجمان، ط 1997. ص11.

التعليق: الحبك أو " الانسجام".

3/ الفصاحة: عبد القاهر الجرجاني لا يقيم وزنا للفظة المفردة في الفصاحة ، وإنما ربطها بنظام اللغة أو نظام النَّحو ، بما فيه من إمكانات تسمح بإجراء علاقة تواصلية إلا انه من البدء يضع القارئ بنية من أمره من خلال تفرقة بين النحو ومعانيه.

وإنَّ للنَّحو دور كبير في الفصاحة .وقد أكدها في التعريف السابق ذكره في توحي معاني النَّحو.

وقد أكد تعريفه للفصاحة بقوله : " إنَّها خصوصية في نظم الكلم ضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة ، أو على وجه تظهر بها الفائدة أو ما أشبه ذلك من القول المجمل كافيا في معرفتها ومغنيا في العلم بها ، لكفى مثله في معرفة الصناعات كلها : وكان في معرفة نسيج الديباج الكثير التصوير أن تعلم انه مرتب للغزل على وجه مخصوص ، وضم لطاقات إلا برسيم بعضها إلى بعض في طرق شتى".¹

في مثل هذا التعريف شبه عبد القاهر الجرجاني النَّظم بالنسيج وشبه الكلم بالديباج الكثير من التصوير، وشبه وضع الكلمات وضمها بعضها البعض، بترتيب الغزل في المنسوجة وشبه النص الذي رمز له بالقول الجمل بالمنسوجة.

فالنسيج هو واحد من الصناعات التي ازدهرت وانتشرت بشكل باهر ، في عصر عبد القاهر الجرجاني وقد لاحظ أنَّ النسيج بالديباج وطريقة ترتيب الغزل في المنسوجة يشبه إلى حد كبير نظم الكلم داخل النص بالألفاظ مراعيًا ترتيبها منطقيًا حسب ترتيب المعاني في النفس.

¹.المصدر السابق : ص48.

4/ معاني النحو :

إنَّ معاني النَّحو قد عني بها عبد القاهر الجرجاني أيما عناية، فإذا كانت الألفاظ ترتب بحسب ترتيب المعاني في النفس، بحيث يتعلق بعضها ببعض، وتقع موقعها الملائم من النَّظم، ومعاني النَّحو غير الإعراب. وإنما المراد من وراء ذلك مما يستنبط بالفكر والرواية التي يستعان بها الآن.¹

1- معاني أقسام الكلم: كالحديث، الزمن، العطف...

2- معاني الصيغ: كالطلب وغيره.

3- معاني أساليب الجمل: كالخبر والتأكيد والشرط.

4- معاني أبواب النَّحو: كالإسناد والتعدية والتبعية.

و هذه المعاني هي التي تحقق الفصاحة على ضوئها، تستنتج معايير نصية. وكان الجرجاني يريد التأسيس "للسانيات نصية عربية". ونجد في قول الجرجاني هذا أن اللفظة لا حياة لها دون أخواتها، ولا معنى لها خارج السياق، ثم نجد أنه قد استعمل مصطلحي: المؤانسة ≠ الوحشة.

استحسان المتلقي أو عدم استحسانه لما تلقاه.

وهذا المعنى يتوافق إلى حد كبير مع المعنى الغربي في لسانيات النصية

acceptabilité الذي يعني استحسان المتلقي لما يتلقاه، أو عدم استحسانه إياه وهذا المصطلح هو

واحد من المصطلحات المشروطة حتى يحقق النص نصيته .

¹ المصدر السابق، ص: 50.

5/ الوجوه والفروق والموضع:

يقول الجرجاني في دلائل الإعجاز: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعلم على قوانينه و أصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت لك. فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك،..."¹

نستخلص من هذا التعريف أن النظم تتحكم فيه شروط لغوية وغير لغوية. فمن الشروط اللغوية أن يعرف المتكلم الفرق بين قواعد النحو ومعانيه، فالقوانين هي القواعد النحوية والصرفية التي يتطلبها المعيار اللغوي أو الوضع اللغوي وهو هذه الناحية يعادل اللسان بمفهوم دوسوسير، أما معاني النحو، أو لنقل البلاغة و الفصاحة، فتتعلق بمعرفة المعاني المختلفة مثلا : بين وجوه الحال ووجوه الخبر، ووجوه الشرط...، أما البنية فتعادل اللسان عند دوسوسير، والعرب يحللون الشكل ويفي المستوى الصوتي والصرفي والمعجمي ، والتركيبى والدلالي.

أما بالنسبة للخطاب فهو عند العرب تحليل استعمال اللغة، أو ما يعادل الكلام عند دوسوسير.

¹. المصدر السابق : ص94.

6/الفروق في الخبر:

يذكر الجرجاني أنّ للخبر وجوه وضرب مثال: "زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، زيد هو المنطلق، زيد هو منطلق".¹

إنّ هذه الجمل التي أوردها الجرجاني تشير بحسب قوانين النحو وقواعده التي حددها الجرجاني في المقطع الأول ممثلة للقدرة أو الكفاءة اللغوية للمتكلم، ليتلاقى هذا المفهوم الذي نظر له الجرجاني أولاً بالجانب التطبيقي مثلاً في هذه الجمل، منظرًا ومطبقًا لما جاءت به المدرسة التحويلية التوليدية حول الكفاءة اللغوية. ومفهوم أصولية الجملة.

فإنّ هذه الأمثلة التي يعرضها الجرجاني دالة على فروق في التركيب أو بالأحرى في الأساليب مما يحمل التشابه قائماً بين نظرية النظم ومفهوم الأسلوب في الدراسات الحديثة. وخاصة علم النحو عن الجرجاني: " هو الفروق بين أساليب مختلفة في الكلام ، تبدو من منظور النحو المعياري أساليب متساوية .ولكن هذه الفروق...هي فروق في الدلالة تحول الكلام من مستوى إلى مستوى آخر، هذه الفروق هي مدار المعنى والدلالة"².

ومنه فالنظم عند الجرجاني إذا يعد من صميم الدراسات الأسلوبية. فهو يتحدث عن الأسلوب قائلاً: " والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه "³.

¹ . المصدر السابق : ص 94

. نصر أبو زيد ، مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني. قراءة في ضوء الأسلوبية ، مجلة فصول : القاهرة ، المجلد.ك. ع 1.

² 1984 ص 15

³ . عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز . ص 354.

نستنتج أنّ الفروق تتحقق في الخبر من خلال نظرية النظم التي وجدت في المقطع الأول

يجعلها في توحي معاني النحو ممثلة في توحي تلك العلاقات الوظيفية بين التراكيب لا المعاني الفردية.

أما فيما يخص الفروق الدقيقة في الخبر فقد قسمها إلى قسمين:

أ- خبر يشكل جزءاً أساسياً من الجملة ولا تتم الفائدة من دونه.

ب- خبر ليس بجزء من الجملة لكنه زيادة في خبر سابق له.

يبدأ الجرجاني في تحليله لفروق الإثبات هذه في الاسم بالأمثلة: "زيد منطلق"، "زيد

المنطلق"، "زيد هو المنطلق"، "منطلق زيد". حيث يمثل التركيب الأول النمط الأصلي والتشكيل

الأساسي، أو ما يسمى في النظرية التوليدية التحويلية الحديثة بالجملة أو النواة، بينما يشكل الباقي

صور الجمل محولة عنها، في كل منها فرق دقيق يدل على معنى خاص نتج من خلالها قوانين تحويلية

مختلفة، كالزيادة والحذف والاستبدال. دخلت على الجملة النواة¹.

هذه القوانين التي سماها الجرجاني "قوانين النحو" بالتركيب "زيد منطلق" مثل جملة

"نواة". انطلاقاً منها جملة من التحويلات حددت فروقاً دقيقة. يناسب كل منها مقام ووضع محدد.

كل هذه الفروق تمثل أسماً ما تبحث فيه اللسانيات التداولية حيث تراعي المتكلم والمخاطب وغرضه

حين يتكلم، وحال المخاطب وخطابه وماذا يقول حين يتكلم.

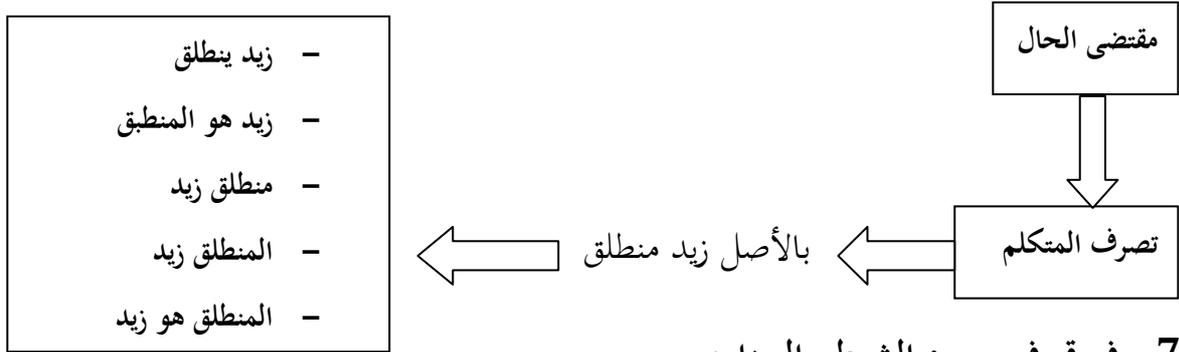
ويلخص الدكتور "عبد الرحمان الحاج صالح" ما جاء به في الوجوه والفروق بقوله: "إن الذي

يقصده الجرجاني هو تصرف المتكلم في الكلام، بحيث ينتقل من وجه إلى وجه ابتداءً من أصل أي

¹ عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز . تعليق محمد رشيد رضا. دار الكتب . بيروت . لبنان د ط، د ت. ص 124

ما ليس فيه زيادة إطلاقاً. ويتصرف المتكلم انطلاقاً من هذه النواة من الكلام حسب ما تقتضيه دلالتها الوصفية الأصلية"¹.

هذا ما وصفه من خلال ما يلي:



7- فروق في وجوه الشرط والجزاء:

يقول الجرجاني في دلائل الإعجاز: "و في الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك:

إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خرج إن خرجت، إن خرجت أنا خارج"²

يعرض في هذا النص وجوها في الشرط والجزاء بينهما فروق في المعنى، تختلف في توظيفها حسب السياق والغرض الذي يقصده المتكلم.

لقد أورد الجرجاني جملاً شرطية مختلفة. تارة بصيغة الفعل الماضي وتارة بصيغة الفعل المضارع ويضيف لهما اسم الفاعل. ودائماً بأداة الشرط " أن " وفي كل وفي كل وجه دلالي معين، إلا أنها جميعاً تسهم في ربط أجزاء الجمل والنصوص تحقيقاً لاتساق والانسجام داخل النص.

¹. عبد الرحمن حاج صالح : بحوث ودراسات في علم اللسان. دار موفم للنشر ، 2007م. ص347.

². المصدر نفسه ص 94.

" فكل ما يقوم به المتلقي (السامع) مرهون بما سيقوم به المتكلم (المخاطب) في بناء لغوي متماسك. وتختلف هذه الوجوه باختلاف صياغتها، فدلالة الفعل الماضي تختلف عن المضارع وكلاهما يختلف عن دلالة صيغة "اسم الفاعل". مع تأكيد نقطة مهمة وهي خروج الصيغة الماضية مثلا عن دلالتها الحقيقية للدلالة على المستقبل في مواضيع معينة، فالماضي إذا وقع في جواب الشرط على هذا السبيل كان مستقبلي في المعنى فإذا قلت: إذا خرجت لم اخرج . كنت قد نفيت خروجا فيما يستقبل

1» .

فالجملة تختلف حسب السياق العام الواردة فيه، والصيغة التي أتت فيها ويمكن تحديد ذلك كالآتي:

- * إن تخرج أخرج ← ربط سببي في المستقبل فقد أفادت الأداة " إن " ربط خروج المتكلم في المستقبل بخروج السامع مع تحديد الحدث ، اقبل السامع على الخروج
- * إن خرجت خرجت ← تفيد الحاضر مع ربط الخروج للمتكلم بالمتلقي فيخبره بربط خروجه في الحاضر "حالا" بخروجه هو دائما فيها ربط سببي " خروجك سبب في خروجي".
- * إن تخرج فانا خارج ← ربط سببي مستقبلا مع العطف للتأكد على انه خروج المتكلم بسبب خروج السامع ، ويعقبه مباشرة . فالفاعلية هنا محققة في الصيغة الحرفية من البداية قبل دخولها للسياق لا من العلاقة المعنوية (الإسناد)².

¹. المصدر السابق ص 209.

². المصدر نفسه ص 210

*أنا خارج إن خرجت ← ربط سببي حيث يتحقق إذا تحقق خروجك وصيغة الماضي هنا دالة على المستقبل . لأنها واقعة في جواب الشرط مع وجود الضمير "أنا" لتأكيد الحدث مباشرة بعد خروج المتلقي.

*أنا إن خرجت خارج ← فيها ربط سببي مؤكد على تحقيقه بالضمير حيث إن خروج المتكلم مشروط بخروج السامع وقدم الضمير محل الاهتمام والعناية¹.

هذه الفروق في وجوه الشرط أسهمت بشكل كبير في تحقيق التماسك النحوي داخل الجمل والنصوص، أمّا الربط السببي الذي يتحقق بواسطة تمام أجزاء الجمل وصولاً للنص فهو الذي يشكل أحد آليات التماسك في لسانيات النص .

8- الفروق في الحال :

يقول الجرجاني مبينا وجوه الحال : " وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك : جاءني زيد مسرعا وجاءني وهو مسرع أو هو يسرع، وجاءني قد أسرع، أو جاءني وقد أسرع فلكل من ذلك موضعه يجب بحيث ينبغي له "².

لقد بدأ الجرجاني بحديثه عن الحال والفروق في وجوهه بتحديد نمطيه اللذين يأتي عليهما فهو إمّا حال مفردة أو حال مركبة . هذا المركب الذي يأتي في قوالب عدة: تركيب فعلي ماض أو مضارع أو مثبت أو منفي. قد يكون تركيباً اسمياً خبره اسم ظاهر.

. بشير ابرير دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية، مطبعة المعارف، عنابة، سنة

¹2007م، ص: 104.

². المرجع السابق ص94.

* تطرّق الجرجاني إلى أحكام الوجوب والجواز كي يقترن الحال المركب بالواو بما قبله من التركيب. "كل هذا تمهيدا لذكر الأسرار الدلالية والعلل البلاغية المؤثرة في هذا الإجراء الذي يستدعي ذكر الواو أو حذفها باعتبارها ذات تأثير كبير على المعنى"¹

وصرّح الجرجاني في كتابه عدم ذكر الواو كون الجملة بأكملها خبرا واحدا لا يمكن فصله إلى جملتين بل هما (الجملة الأصلية+ الجملة الواقعة حالا) خبر مثبت جملة واحدة لها دلالة المفرد².

بينما الجملة التي تقتضي "الواو"، فإنها تدل على إثبات استئناف الجملة دون وصل المعنى الثاني "الحال" بالمعنى الأول للجملة.

وعليه فجملة جاءني زيد ← يسرع، جاءني زيد مسرعا إثبات " المجيء لزيد مع وصوله بالسرعة وتكون الدالتان ممزوجتين معا، كخبر واحد مضمومة أجزاءه، إذ يحدث في التركيبين : المجيء والسرعة معا دون فصل بينهما."³

جاءني زيد يسرع
جاءني زيد وهو يسرع
إثبات للمجيء والإسراع دون فصل بينهما .
نفيذ تحقيق خبر واحد فيه

¹ . انظر: دلخوش. جر الله. الثنائيات المتغايرة في دلائل الإعجاز. منشورات دجلة. ط 2008م. ص230.

² . عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز. تعليق محمد رشيد رضا. دار الكتب. بيروت. لبنان. (د ط). (د ت) ص155.

³ . المصدر نفسه ص 186.

لكن بيان دلالة الفعل المضارع على تجدد الحدث، بينما يدل الاسم (اسم الفاعل) على عدم ثبوت الحدث مع فارق زمني بينهما، بينما إذا وردت عملية التحويل في الجملتين وأدخلت عليهما الواو فأنتهما تفيضان استئناف لإثبات السرعة بعد المجيء لزيد منفردا أو منفصلا عن الإسراع. نوضح ذلك بالشكل الآتي ¹:

جاءني زيد وهو يسرع ← إثبات للسرعة بعد مجيء بعد إثبات النقل
جاءني زيد وهو مسرع ←

ولذلك جيء بالواو مع إضافة الضمير "هو" لتحقيق الاتساق والانسجام بين الجملتين وصولا إلى معنى كلي لا يعلمه إلا الخبير بأسرار البلاغة من حيث الفرق بين التركيبين وسياق كل منهما "المقام" فوظيفة واو الحال هنا في تحقيق علاقة الرابط و التضام بين التراكيب، هذه الوظيفة التي لها دور كبير في لسانيات النص من حيث تحقيقها لتماسك النهي.

ونجد لكل ما في علوم اللغة الحديثة والمعاصرة نظيرا في نظرية النظم أو تقاطعا معرفيا مهما و كان الدراسات اللغوية الحديثة بنيت على أساس نظرية النظم التي بدأت مع سيبويه والخليل، وتبلورت واكتملت مع عبد القاهر الجرجاني.

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 187.

9- من آليات الربط والارتباط:

يزخر كتاب دلائل الإعجاز بكثير من دلائل الدراسة النصية باعتبارها تتناول العناصر المحققة للتماسك النصي. مثلما استقر عليها درس اللساني المعاصر، كما تتناول الفروق بين استعمال الأدوات المختلفة يتحقق لها الانسجام والاتساق على مستويين البنية السطحية والبنية اللغوية. وهو نفس الاهتمام الذي شغل " فان دايك". حيث اهتم بروابط مقسمة إلى روابط منطقية مرتبطة بالجمل ، وروابط طبيعية. وأشار بالوصل والفصل والعطف. كما اشر إليها سابقا مع أفضلية السبق الزمني لعبد القاهر الجرجاني¹.

فعلى المتكلم مراعاة ذلك أثناء كلامه، ويعرف موضع الاستعمال مع مراعاة الوصل والفصل وغرض وقصد المتكلم التي تحقق نصانية النص.

كما تتشكل ظواهر : التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف و التكرار والإضمار والإظهار. آليات أساسية في تحقيق الاتساق والانسجام وصولا بالنص إلى تماسك محكم الصياغة والتعبير. وكان الجرجاني يؤسس للسانيات النص ذلك أنه تحدث بالتفصيل عن أدوات الربط المختلفة بين الجمل والعبارات.

وكل هذه الآليات كانت مدار بحث من " هال يداي ورقية حسن" و " فان دايك" في تأسيسهم لنظريات الاتساق والانسجام. فكان لعبد القاهر الجرجاني فضل السبق في تناول.

¹. إبراهيم خليل. اللسانيات ونحو النص. عمان دار المسيرة. ط. 2007 ص 197

إنَّ عبد القاهر الجرجاني في دراسته لتلك الآليات، لم يقف بها عند حد الكلمة فقط. بل تجاوزها إلى أدوات الربط بين الجمل. ولم يكتفي في تناول العطف بدوره بين الكلمات بل تنبه أيضا إلى عطف جملة تلي جملة أخرى. وما يشكلهما من تلاحمهما من معنى السَّبْكَ والبناء، وقد مثل بقوله: " جاءني زيد وهو مسرع، فهي من حيث الدلالة واللفظ نظير قولهم : جاءني زيد، وزيد مسرع وعقب على ذلك مؤكداً أن الضمير "هو" ألغى تكرير زيد"¹.

وبهذا يؤكد لنا ما تناوله الجرجاني من دلائل الدراسة النصّية بحق. وما يوجد في الدرس اللساني الغربي الحديث واضحا جدا.

"التقديم والتأخير هو الآخر يشكل أحد أهم عناصر الربط عند عبد القاهر الجرجاني، فهو يحقق قوة السَّبْكَ والجودة فيه. ليحقق تماسك دلاليا مهما"²، وهدفه يكون لتحقيق أغراض معينة مثل : تقديم الذي بيانه أهم الاهتمام، أو التخصيص أو التأخير لغرض التشويق، فلكل تقديم أو تأخير معنى معين يؤمه المتكلم . وكذلك الأمر مع التعريف التي تجاوز بها الجرجاني دلالتها على التعريف إلى دلالتها على شيء سبق ذكره يعلمه السامع.

¹ . المصدر السابق ص 123.

² . المصدر السابق دلخوش جار الله . الثنائيات المتغايرة دلائل الإعجاز ص 227.

" فالحذف يحقق التماسك. لأنه يجنب التكرار للكلمات بطريقة تفقد النص توازنه، ففيه نوع من الإستراتيجية التي يأخذها المتكلم بيد المتلقي ليشرکه في نسج معاني النص من خلال تقدير المحذوف.¹"

" فالمعنى في الجملة لا يتم عبر البنية السطحية وحدها، بل والبنية العميقة كذلك، بعد استرجاع المحذوف منها من طرف السامع، فيشارك المتكلم السامع في تحقيق معنى النص المنسجم والمتسق بمراعاة المقام التواصلي الذي يرد فيه"².

والحذف أنواع، فقد يكون كلمة وقد يتعدى ذلك إلى جملة، فتحذف بأكملها، وقد أشار "فان دايك"، وركز في كتابة النص والسياق، وهو عند "هال يداي ورقية الحسن" استبدال من الصفر، باعتباره لا اثر له إلا في الدلالة ولا يحل إي شيء محل المحذوف وقد قسماه إلى حذف اسمي وحذف فعلي، غير أن دراسة عبد القاهر الجرجاني كانت اسبق بكثير من علماء الغرب، مما يؤكد أن "الدلائل" كتاب في لسانيات النص.

السياق:

لغة: السياق من الجذر اللغوي (س.و.ق)، والكلمة مصدر (السياق يسوق سوقا وسياقا). فالمعنى اللغوي يشير إلى دلالة الحدث وهو التتابع.³

. عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز في علم المعاني . تعليق محمد رشيد رضا . دار الكتب . بيروت . لبنان.(د.ط) (د.ت) ص110.

². المصدر نفسه ص 165.

. الأعلام الشنتمري : أبو الحجاج يوسف. النكت في تفسير كتاب سيويه، ت د زهير عبد المحسن سلطان د ط معهد المخطوطات العربية الكويت.³

ويتضح ذلك من كلام الشافعي الذي يقول: فإِذَا خَاطَبَ اللهُ بِكِتَابِهِ الْعَرَبَ بِلِسَانِهَا عَلَى مَا تَعْرِفُ مِنْ مَعَانِيهَا، وَكَانَ مِمَّا تَعْرِفُ مِنْ مَعَانِيهَا: اتَّسَاعَ لِسَانِهَا وَإِنْ فَطَرْتَهُ أَنْ يَخَاطَبَ بِالشَّيْءِ مِنْهُ عَامَا ظَاهِرًا يَرَادُ بِهِ الْعَامَ الظَّاهِرَ، وَيَسْتَعْنِي بِأَوَّلِ هَذَا مِنْهُ عَنْ آخِرِهِ، وَعَامَا ظَاهِرًا يَرَادُ بِهِ الْعَامَ وَيَدْخُلُهُ الْخَاصَّ، فَيَسْتَدِلُّ عَلَى هَذَا بِبَعْضِ مَا خَوَّطَبَ بِهِ فِيهِ.

وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف في سياقه انه يراد به غير ظاهره فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو ووسطه أو آخره.¹

وفي هذا القول إشارة إلى طبع العربية المؤسس على الإشارة والتلميح في تأليف الكلام وإدراكه، وهي كلها من معطيات السياق التي قد يستند إليها في الكشف عن المعنى وقد دعا البلاغيون إلى ضرورة مراعاة "المقام" بكل معطياته أثناء الأداء الكلامي. لان المعنى ليس يشرف بان يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضح بان يكون من معاني العامة وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال. وما يجب لكل مقام من المقال.

وعلى هذا الأساس ربطوا حد البلاغة ب"السياق" أو "المقال والحال" باعتبارهما المصطلحين الأكثر ترددا لدى البلاغيين.

يقول التفتا زاني: " في تعريفه: هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي الذي يطابق مقتضى الحال"².

حيث يتبدى لنا أنَّ " الحال " هو الضابط لنوعية الأساليب الكلامية التي قد تعتمد في التبليغ.

¹ . الشافعي، الرسالة . تحقيق : احمد محمد شاكر ج1 دار الكتب العلمية ص 52. قد خصص فصلا يوضح فيه أهمية السياق

بعنوان ك " باب الصنف الذي يبين فيه سياقه معناه." ص 62

² . التفتا زاني ، شرح المختصر على تلخيص المفتاح . مكتبة الصحابة لصاحبها محمد هادي المارديني ، تركيب . د ط . 34/1.

ومنه نلاحظ أنّ مفهوم السياق في بعده العام يقوم على تلك المعطيات اللغوية وغير اللغوية التي تتفاعل في الإنتاج اللغوي. والتي ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا ويجب أن نشير هنا إلى أنّ "السياق" بهذين النوعين اللغوي وغير اللغوي (سياق الحال). يشكل نسقا من العناصر التي تمدّ الدرس بكيفيات فهم الخطاب اللغوي و تأوله التأويل الصحيح.

وبهذا قد نستنتج و نقول:

أنّ السياق هو الإطار الذي تنزل من خلاله اللغة محل الموجودات الفعلية ضمن أخبار ومكانية تحضنها، ومعطيات حالية متنوعة الموارد (اجتماعية نفسية ثقافية...) تضبطها فتعطيها المعنى الخاص لها .

ولم تكن اللسانيات النصّية وحدها المهتم بالسياق بل كان محور اهتمام اللسانيات بصفة عامة، إذ يعني مصطلح السياق التركيب أو السياق الذي ترد فيه الكلمة ويسهم في تحديد المعنى المصور لها.

ويتكون مصطلح السياق " contexte " من مقطعين conte و texte، أي مع النسيج حيث استعمل المصطلح الأول ليعني الكلمات المصاحبة للمقطوعات الموسيقية . ثم بعد ذلك أصبح يستعمل بمعنى النصّ أي تلك المجموعات من الكلمات المترابطة مكتوبة أو مسموعة. إضافة إلى المعنى الجديد متمثلا في ما يحيط بالكلمة المستعملة في النص من ملابسات لغوية وغير لغوية¹ .

¹ . ينظر : كريم حسام الدين، أصول تراثية في لسانيات حديثة. ط 3. القاهرة. 1421هـ/2001م، ص 251.

ومن هنا يتضح لنا أنّ فهم النَّص وتغييره لا يتألق لنا إلا بالرجوع إلى السّياق باعتباره يلعب دورا كبيرا في جلاء معنى النَّص وإبرازه، بيد أنّه قد يتلبس بمصطلح السّياق بمصطلح "المقام" وهذا الالتباس ممتد بين زمنيين و ثقافتين. فقد شاع المقام عند العرب في حين استعمل كثير من المحدثين خصوصا المغربيين مصطلح السّياق. إلا أن هناك فروق بينهما .

أنواع السّياق:

إنّ تعدد أنواع الكلمة الواحدة يرجع إلى تعدد المواضع التي ترد فيها والذي يؤدي بدوره إلى أنواع عديدة من السّياقات. ويرى أصحاب النظرية السّياقية إنّ معنى الكلمة هو (استعمالها السّياق). واستعمال الكلمة عند هؤلاء يحكمه أمران:

الأول: السّياق اللغوي نفسه verbal contexte الذي ينظر إلى الكلمات كوحدات منعزلة فالكلمة يتحد معناها بعلاقتها مع الكلمات الأخرى في السلسلة الكلامية¹.

الثاني: سّياق الموقف contexte of situation أو سّياق الحال عند فيرث، وهو نوع من التجربة من البيئة أو الوسط الذي يقع فيه الكلام، وسّياق الحال يشمل أنواع النشاط اللغوي جميعا كلاما وكتابة. غير أنّ مفيد السلوكي حد سّياق الحال بظواهر يمكن تقريرها في إطار من الأحداث العملية وهو عنده مادي.

وسّياق الموقف يتكون من ثلاثة عناصر:

1- شخصية المتكلم والسامع ومن يشهد الكلام ودور المشاهد في المراقبة والمشاركة

¹ .تمام حسان.الأصول. دار الثقافة. 1411هـ.الدار البيضاء ص250.

2- العوامل أو الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المختلفة بالحدث اللغوي.

3- اثر الحدث اللغوي في المشتركين كالإقناع أو الفرح أو الألم أو الإغراء...

1- السياق التداولي "النص كفعل كلامي":

بمعنى أنّ دراسة أي نص لا تكون بهدف معرفة شكه أو محتواه، وإنما الهدف منها هو معرفة الوظائف التي ينجزها أيضا " وفيه لا نكتفي بدراسات الملفوظات اللغوية أو النصوص من حيث بنائها وإنما أيضا من حيث وظائفها"¹.

فالسياق التداولي يعتمد على تأويل النص باعتباره فعلا للغة. أو متتالية من أفعال اللغة كالوعود و التهديدات، والتأكيدات...

2 - السياق الإدراكي أو المعرفي(فهم النصوص):

يركز فان دايك فيه على ما يسميه فهم النص . وهو في نظره يقوم على المخطط التالي:

إنّ مستعمل اللغة سوف يفهم بالدرجة الأولى الكلمات ومجموعة الكلمات والجمل ومن ثم متتاليات الجمل. كما أشار فان دايك إلى مجموعة من المعطيات والتي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لكي نصل إلى فهم النص وهي:

__لنتمكن من إقامة هذه الروابط على المستعمل أن يستعين بمعرفته للعالم انطلاقا من مكتسباته

المعرفية المخزنة بالذاكرة.

. فان دايك . النص بنيته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص .من نظرية الأدب في القرن العشرين تر : محمد العمري.الدار البيضاء.إفريقيا الشرق، سنة 1997م ص 66 .¹

كما أنّ لكل نص مجموعة من العوامل التي تساعد على فهمه بحيث تمكن القارئ من معالجة النص في مواقفه الخاصة...تساعده على تفسيره.

3-السياق النفسي الاجتماعي (تأثير النصوص):

المقصود بيه المفعول الذي تحدثه النصوص على مستعملي اللغة سواء فردياً أو اجتماعياً فالأمر لم يعد متعلقاً بالتساؤل عن ماذا يفعل القارئ أو المستمع بالنص؟ وإنما ما هي العوامل الاجتماعية التي تلعب دوراً في فهم النص؟ أو ما هي مظاهر فهم النص التي تحتوي على إجابات اجتماعية؟¹ فالتركيز إذا أصبح منصباً على العوامل المساعدة في فهم النص والتي تحمل صبغة اجتماعية.

4-السياق الاجتماعي(النص في التفاعل)

أي الاهتمام بالعلاقات القائمة بين السياق الاجتماعي واستعمال اللغة كما إنّ هذه المواقف الاجتماعية التي تنتج فيها النصوص فريدة بحد ذاتها، لكن مع ذلك تتمتع بخصائص ذات طابع أعم فهي مقامات خاضعة لمعايير معينة وتكرر باستمرار. وهكذا فثمة مقامات ذات طبقة عامة أو خاصة تأخذ فيها الملفوظات قيمة فعل كلامي. فالنص كفعل كلامي لا يحدده المقام الاجتماعي فقط وإنما المقام الاجتماعي نفسه تحده كيفية استعمال اللغة.

¹. المرجع السابق : ص 72

5- السياق الثقافي (النص كظاهرة ثقافية):

يعتبر النص ظاهرة ثقافية، إذ من خلاله يمكن أن تستخرج بعض الاستنتاجات التي تهم البنية الاجتماعية للمجموعات الثقافية. كما يمكن أن نستخلص منها المحادثات المستعملة في مقامات خاصة ودور أعضاء المجتمع وحقوقهم وواجباتهم... الخ¹

وعلى هذا يمكن أن يقسم السياق إلى أربعة أقسام:

1- السياق اللغوي:

هو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة متجاوزة كلمات أخرى مما يكسبها معنى خاص محدد وهو يشتمل على مكونات أساسية هي:

أ- **السياق الصوتي** : و يهتم بدراسة الصوت داخل سياقه. إذ يعتبر الفونيم المادة الأساسية في قيم الدلالة باعتباره وسيلة مهمة لتوزيع الأصوات داخل السياق وفق محتواها الوظيفي.

ب- **السياق الصرفي**: إنَّ المورفيمات سواء كانت حرة أو مقيدة لا قيمة لها إلا إذا كانت ضمن سياق تركيب معين أو مثلها أحرف المضارعة وسواها حيث تمارس وظيفتها داخل النص.

ج- **السياق النحوي** : هو شبكة من العلاقات (القواعد) التي تحكم بناء الوحدات اللغوية داخل النص وفيها تقوم كل علاقة بمهمة وظيفية تساعد على بيان الدلالة من خلال القرائن النحوية

كالإعراب مثلا.

¹. المرجع السابق ص77/76

د-السياق المعجمي : هو مجموع العلاقات الصوتية التي تتضافر من أجل تخصيص الوحدة اللغوية بيان دلالي معين يمنحها القدرة على التركيب وفق أنظمة اللغة المعينة. هذه الوحدة تشترك في علاقات أفقية مع وحدات أخرى لإنتاج المعنى السياقي العام للتركيب.

هـ- السياق الأسلوبي: يظهر هذا اللون في النصوص التعبيرية والنثرية أكثر منه في اللغة العادية لما يمتلكه من قوة النسيج وقوة التوالد الدلالي لأنه ملك الفرد ذاته.

2- السياق العاطفي: هو الذي يحدد طبيعة استعمال الكلمة بين دلالتها الموضوعية و دلالتها العاطفية. كما يحدد أيضا درجات الانفعال بين القوة والضعف، مما يتطلب قرائن بيانية تؤكد عمق أو سطحية هذا اللون من الانفعال.¹

3-سياق الموقف: يدل على العلاقات الزمنية والمكانية التي تجري فيها الكلام. أو هي على حد تعبير عبد القادر عبد الجليل "مجموعة من الظروف التي تحيط بالحدث الكلامي ابتداء من المرسل والوسط وحتى المرسل إليه لمواصفاتهم وتفصيلاتهم المتناهية في الصغر"². فمن اجل فهم المعنى يجب معرفة كل القرائن والظروف التي تحيط به . باعتبارها تساعد على إزالة اللبس والغموض عن النص

4-السياق الثقافي: يقتضي تحديد المحيط الاجتماعي أو الثقافي الذي يمكن من استخدام الكلمة فالسياق الثقافي له أهمية بارزة. إذ يقتضي على القارئ لكي يفهم نصًا من النصوص إن لم بالسياق

¹ فان دايك، النص بنيته ووظائفه، مدخل أولي إلى علم النص من نظرية الأدب في القرن 20، تر: محمد العمري، دار البيضاء، إفريقيا، الشرق، سنة 1997م، ص: 68.

² عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، ص 594، أو السياق غير اللغوي، والسياق الخارجي، أو سياق الحال. ويسميه كمال بشر ب "مسح اللغة" أو السياق العام أو المقام، وهي مصطلحات أوردها عبد القادر عبد الجليل في كتابه الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية ص 214.

الثقافي لهذا النص . فالدلالة المعجمية تكون مظلمة له إذا لم يتوسع بالبحث عن المعاني الأخرى والتي يستمدّها من السياق الثقافي.

ومن خلال قراءتنا لأنواع السياقات المختلفة يتضح أنّ المعنى هو ما يفهم من السياق سواء كان لغويًا أو عاطفيًا أو ثقافيًا. وكذلك من خلال سياق الموقف. فكل هذه الأنواع تساعد على تدارك وفهم معاني النص المختلفة.

لقد عبّر عبد القاهر الجرجاني على أهمية السياق في إضفاء الجمال على الكلمة في قوله "ومما يشهد لذلك أنّك ترى كلمة تروك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأحدع في بيت الحماسة (طويل):

تَلَمَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي وَجِئْتُ مِنَ الْإِضْعَاءِ لَيْئًا وَأَخْدَعَا
وبيت البحري (طويل):

وَإِنِّي وَأَنْ بَلَّغْتَنِي شَرَفَ الْغَيْ وَأَعْتَقْتُ مِنْ رِقِّ الْمَطَامِعِ الْخِدْعَى

فإنّ لها من هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن. ثم إنّك تتأملها في بيت أبي تمام (البيسيط):¹

يَا دَهْرُ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضَجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ حُرْقِكَ

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة ومن الإيناس والبهجة.

¹ عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز في علم المعاني. شرح وفهرسته ياسين الأيوبي المكتبة العصرية. صيدا ب ط. 2002. ص

المثال الذي قدمه عبد القاهر الجرجاني يركز على دور السياق في الحكم على بلاغة كل بيت من الأبيات، على اللغة التي استعملها الشعراء في التعبير عن الدلالة التي يريدون توصيلها إلى السامع لذلك فاللغة عنده ليست مجموعة من الألفاظ . بل هي مجموعة من العلاقات التي تنشأ فيها تلك الألفاظ.

ويبين الجرجاني في موضع آخر اثر السياق الثقافي في التمييز بين الحقيقة والمجاز وهو أمر وثيق الصلة بإجلاء المعنى، فالوقوف على ثقافة المتكلم ومعتقداته يبين ذلك .

ويتضح من تعليق له على قول الصلتان العيدي (المقارب)

أَشَابَ الصَّغِيرُ وَفَنِي الكَبِيَّ رُ وُكُلُ الفِدَاءِ وَمُرُ الغِشَى

وقول أبي الأصعب (البيسط)

أَهْلَكْنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ مَعًا وَالذَّهْرُ يَعْذُو مُصَمِّمًا جِدْعًا

يقول في التعليق عليهما "كان طريق الحكم عليها بالمجاز أن تعلم اعتقاد التوحيد أما بمعرفة أحوالهم السابقة...."¹

وهو يريد أن يبين بذلك أن الشاعرين لو ثبت من معتقديهما نسبة هذه الأفعال للزمن

فالتعبير حقيقة. على نحو ما ورد قوله تعالى حكاية عن صنف الكفار "وما يهلكنا إلا الدهر"²

أما إذا ثبت اعتقادهم للإسلام فإن نسبة هذه الأفعال إلى الدهر مجاز في التعبير عنها.

¹ طاهر سليمان حمودة. دراسة معنوية عند الأصوليين دار الجامعة الإسكندرية. (د.ت) 1982. ص124.

² سورة الجاثية : الآية 24.

قال الله تعالى " قُلْ لِمَنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"¹.

إنَّ ما ورد في هذه الآية الكريمة هو تحدي القرآن الكريم للعرب ببلاغتهم وفصاحتهم، ولم يكن هذا التحدي على مستوى اللفظة المفردة، لأنَّه ليست هناك كلمة جميلة وأخرى قبيحة وإنما يرد هذا السِّياق.

ومن الذين اهتموا أيضا بالسياق ودوره في جمال النَّص نجد ابن الأثير الذي أشار إلى إنك قد تجد لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، ولهما وزن واحد. إلاَّ أنَّه لا يحسن استعمال لفظة في كل موضع تستعمل فيه اللفظة الأخرى.

وبمثل ابن الأثير لذلك بلفظتي (الجوف) و (البطن) في قوله تعالى "مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ"² وفي قوله تعالى " رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا"³.

فاستعمل (الجوف) في الأول و (البطن) في الثانية ولم يستعمل (الجوف) موضع (البطن) ولا (البطن) موضع (الجوف). واللفظتان سواء فالدلالة وهما ثلاثيتان وزنهما واحد.

وأوضح السكاكي بأنَّ للصياغة مستويان مختلفان بحسب السِّياق الذي يردان فيه، الأول هو المستوى اللغوي، والثاني هو مقتضى البيان المتميز بطابعه الجمالي. و فكرة الحال والمقام في تفكير البلاغيين مرتبطان بالبعدين الزماني والمكاني للكلام، وذلك آن الأمر الذي يدعو المتكلم إلى تقسيم

¹. سورة الإسراء : الآية 88.

². سورة الأحزاب : الآية. 4

³. سورة آل عمران : الآية 53.

صياغة على وجه معين، فما إن يتصل بمكان هذه الصياغة ويسمى المقام الجانب من السياق وهو الجانب الاجتماعي الذي يدرسه البلاغيون، فمقام الفخر غير مقام المدح، وهما يختلفان عن مقام الدعاء أو الاستعطاف وهكذا.¹

ومن القدماء من اهتم بالسياق إلى جانب البلاغيين نجد علماء الأصول الذين ينبهون في كثير من المواضع إلى أن الألفاظ المفردة والتراكيب، تتعرض بسبب السياقات اللفظية والمقامية المختلفة لألوان من التعبير الدلالي، ولذلك بضرورة الاستعانة بالسياقين اللفظي الحالي، أو ما نسميه نظرية السياق "بالموقف الكلامي" بجميع عناصره.²

وقد اعتمد الأصوليون على قرائن السياق المتنوعة كالقرائن المخصصة للعام وأثرها في تحديد المعنى وهي قرائن حالية كالحسن والعقل والعرف أي العادة، والقرائن اللفظية التي تشمل السياق اللفظي بمعناه الواسع.

أما المفسرون وضعوا شروطا للمفسر يتمكن من خلالها بتفسير القرآن تفسيراً سليماً، وهذه الشروط تمثل في مجملها أركان السياق الحالي، ومعرفة أسباب النزول (الأحداث والوقائع الملازمة للنص القرآني). ومن خلال هذه الشروط أدرك المفسرون السياق.

من خلال ما قدم بخصوص اهتمام علماء العرب بالسياق، ودوره في توضيح المعنى يتبين لنا انه يرجع لهم الفضل في ظهور الإرهاصات الأولى لنظرية السياق التي آتى بها فيرث، ومن الممثلة التي يمكن أن نستشهد بها السياق اللفظي كلمة

¹. السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، مج 1، ط2، سنة النشر 1407هـ، 1987م، ص: 218.

². المرجع نفسه ص 228.

"كتاب"، التي ترد في سياقات مختلفة، ويكون واحد من سياقاتها معنى مختلف عن مكانها في

السياقات الأخرى. على نحو ما هو موضح في الأمثلة الآتية:

1_ للرافعي كتاب عنوانه "وحي القلم".

2_ "ذلك الكتاب لا ريب فيه".¹

3_ "إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا".²

وردت كلمة كتاب في الجمل الثلاثة بثلاث معاني يختلف كل واحد منها عن الآخر.

ففي الجملة الأولى انصرفت كلمة كتاب (كتاب) لتكون دالة على مؤلف.

وفي الآية الكريمة الأولى دلت كلمة (كتاب) على القران الكريم.

وفي الآية الثانية دلت كلمة (كتاب) على فريضة الصلاة.

المثال الثاني: صل على النبي " (صلى الله عليه وسلم)"

يقولون هذه العبارة أيضا لمن يريدون إن يستوقفوه عن الحديث.

فيكون المعنى هو " كف عن الكلام "، ويستعملونها أيضا في مخاطبة من يسرع القول أو الفعل.

فيكون المراد تمهل. ويقولونها لمن يستكثر الأشياء فيكون المعنى " لا تحسد الناس "

إلى آخر ما تدل عليه العبارة الطيبة من معاني في مواقف حياتية مختلفة. فالعبارة اختلفت معانيها

بحسب الذي قيلت فيه (الموقف).

¹ . سورة البقرة: الآية 2

² . سورة النساء: الآية 103.

وقد ذهب يول وبراون إلى أن محلل الخطاب ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار السياق الذي يظهر فيه الخطاب. والسياق لديهما يتشكل من المتكلم والكاتب والمستمع والقارئ والزمان والمكان لأنه يؤدي دورا فعالا في تأويل الخطاب.¹

ولكي يبين براون ويول أهمية السياق في التأويل يقدمان ثلاثة أمثلة مكتوبة جردت من السياقات التي ظهرت فيها، حيث يقرأ المحلل النص وعليه أن يهيأ بالتالي إلى مميزات السياق الذي يمكن أن تكون قد وردت فيه.

المثالين الأول والثاني موجهين للقارئ العام حسب تعليق "يول وبراون" ، والثالث موجه إلى مخاطبين معينين لا إلى الناس عموما.

أ- ضع أصبعين في الثقبين اللذين يقعان مباشرة إلى اليسار من موقف الأصابع.

حرك الأصبع الأقرب لهذا الموقع.

ب- الحشرات المرفوسة لا تعض الحكم للعقل الجنوبي.

غني عن التوضيح إن الكلمات التي تتشكل منها الخطابات معلومة لدى القارئ معجميا فهي معلومة لديه ، إن نظر لها معزولة عن بعضها البعض، ولكن تجميعها على هذا النحو يوحي بالغرابة والغموض.

فالخطاب الأول من المحتمل أن تتمكن من التعرف على نوع الكاتب على انه جهة رسمية خفية

الذات تتجه بالقول إلى قارئ عام لا إلى شخص بعينه (حيث وقع التركيز على المكان والمسافة) .

¹. براون ويول ، تحليل الخطاب ، ص52/53 ومحمد خطايي، لسانيات النص ص. 52.54.

و صعوبة فهم هذا الخطاب يعود إلى عدم التأكد من معرفة الأشياء. ويقول بروان ويول

"إنَّك من المحتمل أن تتعرف على الباقي . إن لم تكن قد عرفتَه أصلا" ¹

فمن خلال الخطاب يتبين أن المتلقي لديه تجربة فيما يخص نوع الخطاب ، ومن ثم فان شكل الخطاب وزمانه ومكانه قد يحويان للمتلقى إن كانت لديه تجربة سابقة مع هذا النوع من الخطابات بأن هذا الخطاب يعبر عن تفاعل بين خطابات ما. "المعرفة الموسوعية للعالم تخبرك بان الكاتب عضو من " عصابات العقل الجنوني "، والمتلقون المعنيون هم أعضاء من عصابات " الحشرات ". ولغة التخاطب بين عصابات الشوارع تتمثل في تبادل الشتائم الاستفزازية " الحشرات المفترسة التي لا تعض" ²

ويسلك الباحثان خطة ثانية لإبراز السياق في التأويل . قائمة تغيير احد عناصر السياق.

كتغيير المتكلم مثلا في المثال الآتي:

أ- هل تزور المنطقة باستمرار؟

ب- نعم باستمرار. مرة في الشهر تقريبا، إنِّي آتي لزيارة أولادي.

إنَّ ما يهم هي أنماط الاستنتاجات المختلفة كعمر المتكلم وجنسه كنتيجة لسماع ما قاله "ب" ³

وهكذا فالسياق مسألة ضرورية وحاسمة في مجال اللغة حيث يسمح لنا بالحديث عن الأشياء بدقة

ووضوح . و يمكننا من تحديد ودراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والكلامي.

¹ . المرجع السابق .ص نفسها.

² . المرجع نفسه ص 55.

³ . المرجع نفسه،ص: 57.

المبحث الثالث: مقارنة بين عبد القاهر الجرجاني ونعوم تشو مسكي

إنَّ العودة إلى التراث العربي القديم بنجده زاخراً بالمصطلحات اللسانية الحديثة، وإنَّ العودة بمنظار لساني يساعد على فك العديد من شفرات القضايا العالقة في الدراسات النَّحوية. وإذا ما ألقينا نظرة متمعنة في أفكار النُّقاد السابقين نجد لهم الميزة في وقتنا الحالي في اللسانيات الحديثة، ولا تزال نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني ترسي ظلالها ترغم قرون من الزمن، لتخدم اللسانيات الحديثة، إذ تحمل مفاهيم عديدة، وهنا نجد الكثير من اللغويين أمثال نعو تشو مسكي من خلا نظريته التحويلية التوليدية التي تبرز مستوى اللغة.¹

مفهوم النظرية التوليدية التحويلية:

قامت النظرية التوليدية التحويلية على مبدئين أساسيين في اللغة هما:²

1/ أ_ التوليد:

"هو مجموعة من التراكيب من جملة الأصل، وتسمى الجملة الأصلية بالجملة التوليدية. وهي جملة تؤدي معنى صحيح ومفيد، وهي خالية من كل ضروب التحويل".³

وهو يدل على القدرة التي يمتلكها كل إنسان لتكوين وفهم عدد لا متناه من الجمل في لغة الأم.

¹ بتصرف: نعوم تشو مسكي، اللغة والمسؤولية، ترجمة: حسام البهسناوي، جمهورية مصر العربية، ط2، سنة 2005 .

² سمير شريف استيتبة، اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث، ط2، سنة 2008م، ص: 186_187.

³ شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ط1، بيروت، لبنان، سنة 2004م، ص: 40.

1_ب التحويل:

فكرة التحويل هي إحدى أهم المقولات المعرفية التي جاء بها المنهج التحويلي لنجوم تشو مسكي، الذي يرى أنّ الإنسان يتمتع بكفاءة لغوية تمكّنه من النطق بما لا نهاية من الجمل، فالتقواعد والقوانين معدودة ومحصورة، والعبارات المنطوقة غير محصورة.¹

و التحويل يمثل مرحلة متطورة في مسيرة هذه النظرية، وقد اتخذ أساساً مهماً بنيت عليه المعالج النحوية.

وهذا المفهوم يقوم على أنّ لكل جملة منطوقة على السطح بينيتين إحداهما "عميقة" والأخرى "سطحية"، والتحويل هو وصف للعلاقة القائمة بين هاتين البنيتين، أو عملية تغيير تركيب لغوي إلى آخر بتطبيق قانون تحويلي واحد أو أكثر، كالتحويل من جملة خبرية بسيطة إلى جملة إنشائية. تمثل البنية العميقة: (مسند إليه + مسند) (مسند + مسند إليه) ويطلق عليه مصطلح الجمل الأصلية. والجملة الإنشائية تمثل البنية السطحية، ويطلق عليها مصطلح الجملة المحولة تمثل ذلك بقولنا:

1/ جاء محمّد (نواة).

2/ هل جاء محمد؟ (جملة محولة بزيادة، "هل").

3/ ما جاء إلا محمّد.

إذن ظاهرة التحويل، ظاهرة نحوية تعكس نشاطاً متميزاً وحركة دائبة لعناصر الجملة الأصل فنقلها من عالم التجريد إلى عالم التحقق الفعلي، مشكلة علاقة وطيدة بينها وبين الجملة المحولة.

¹المرجع السابق، ص: 40,

تعالج النظرية التحويلية التوليدية اللغة من منطلق أنّها مكون من مكونات العقل الإنسانيوننتاج خاص بالإنسان، وتعد قواعد اللغة قائمة بشكل أو بآخر في عقل الإنسان كتنظيم.

يخصص الخصائص الصوتية والتركيبية والدلالية لمجموعة غير متناهية من الجمل المحتملة

"وهذه القواعد قائمة بشكل ضمني في الملكة اللسانية (الكفاءة اللغوية) العائدة إلى مكلمها"¹

وهذا يعني أنّ هذه القواعد الضمنية هي التي تساعد على تحديد اللغات للتواصل فيما بينهمكون اللغة نتاج عقلي.

من البنية العميقة إلى البنية السطحية:

البنية العميقة والبنية السطحية هي ما تميز بها تشو مسكي، في النظرية التوليدية التحويلية وهي ذات علاقة بالدرس التركيبي النحوي في العربية، فالبنية العميقة هي الفكرة المجردة الموجودة في ذهن المتكلم، أو هي عبارة عن معنى محدد مستقر في الذهن ولكنه مرتبط بتركيب مؤلف من عدة مفردات مترابطة فيما بينها.²

وهذا التركيب يدل على تلك الفكرة وذاك المعنى الكامن في الذهن....وتظهر طبيعة هذا الترابط بين المفردات أثناء النطق بها في شكل تركيبي صوتي، إذا كان التواصل قائما على

السمع أو تجسيدها كتابيا في شكل تركيب خطي، إذا كان التواصل قائما على الكتابة. وقد

يجتمعان معا، وهذا ما أطلق عليه تشو مسكي "البنية السطحية".

¹ عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، سنة 1979م، ص: 110.

² المرجع السابق، ص: 188.

ولقد تحدث ابن جني ، في أكثر من موضع عن هذه الفكرة، فمن ذلك قوله: " هذا الظاهر مما سلك الباطن، كل جزء منه منطوي عليه، ومحيط به".¹

كما تحدث عن كون "المحذوف للدلالة عليه عندك بمنزلة الظاهر".²

ويذكر عن المحذوف الظاهر بأنه دلالة على وجود فكرة تشو مسكي في التفكير النحوي العربي القديم، وبحسب ما يكون نمط التركيب يكون التعبير عنه، أي البنية السطحية تابعة للبنية العميقة.

فإذا نوى المتكلم تقديم جزء من الكلام، أو تأخيرها، فإنَّ هذا يكون على مستوى الذهن، ثم ينتقل إلى التعبير الخارجي، عن طريق البنية السطحية. وعلى هذا الأصل الأول في الكلام هو الفكرة أو المعنى، ثم يأتي الصوت أو الخط لتجسيد هذه الفكرة الأصل.

وهذا التجسيد ما يقع فيه الاختلاف والتباين، إذ يتم الانطلاق من اللغة التي هي القوانين

وأحكام متفق عليها بين المتكلمين، إلى الكلام الذي هو تجسيد لهذه القواعد وأحكام .

وهذه الفكرة هي التي أثارها عبد القاهر الجرجاني، عندما تحدث عن النَّظْم الذي يبدأ من

مرتبة المعاني الكامنة في نفس المتكلم، ثم يتحول إلى التعبير عن هذه الألفاظ مرتبة وفق ترتيب المعاني.

¹ ابن جني، الخصائص، دار الكتب المصرية، القاهرة، د ت، د ط، ص: 184.

² المرجع نفسه، ص: 287/1.

ويمكن أن نعبر عن هذا باللغة والكلام، "وهي الثنائية التي ميز فيها دي سوسير بين ما هو جماعي وتمثله اللغة، وما هو فردي يمثله الكلام".¹

فنقول البنية العميقة، تمثل اللغة التي تتم الاتفاق عليها بين المستعملين للغة الواحدة، لأنهم يستعملونها وفق قواعدها وقوانينها، وسننها وأحكامها المتعارف عليها فيما بينهم.

أمّا البنية السطحية، فتمثل الكلام الذي يعتبر أداة للغة يختلف بين الفرد و آخر. وقد يتفق فيه اثنان أو أكثر، لكن هذا الاتفاق لا يكون إلا مصادفة فيه التباين والاختلاف.... كم أن البنية العميقة، في التركيب تتصل بالجملة التوليدية.

والجملة التحويلية تكون في التركيب العربي القديم بتقديم بعض عناصره على بعض، أو بحذف بعض عناصره الأصلية وتقديرها، أو بالزيادة عليها، أو غير ذلك من أشكال التعبير عن البنية السطحية.

نستنتج إذن أن العملية اللغوية هي عملية فطرية مصدرها العقل، وأن التواصل والتفاهم يتم بين البشر انطلاقاً من الاستعدادات العقلية الموجودة لدى كل من المتكلم والسامع، سوء أعلق الأمر بقدرة المتكلم على إنتاج اللغة أم بقدرة السامع على فهم ما يتلقاه من المتكلم، فالاستعداد الفطري يتجلى من خلال التواصل بينهما.... لكن ذلك لا ينفك عن اللغة المشتركة بينهما وفق قوانين وأحكام هذه اللغة.

¹ محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، سنة 1997م، ص: 35.

1/ التحويل بالتقديم والتأخير:

يعد الترتيب من أبرز عناصر التحويل وأكثرها وضوحاً، لأنَّ المتكلم يعمد إلى مورفيم حقه التأخير فيما جاء عن العرب خاصة عبد القاهر الجرجاني، فيقدمه أو إلى ما حقه التقديم فيؤخر طلب الإظهار لترتيب المعاني في النفس.

وتختلف اللغات من حيث الترتيب الذي تخضع له وحداتها داخل التركيب، وهناك الترتيب الأصلي الأساسي، والترتيب العارض لغرض ما. وهذا الترتيب هو ما يقابل في نظرية تشو مسكي مصطلح البنية العميقة التي تعني الأساس، البنائي المجرد الذي يحدد المحتوى المعنوي للجملة، وهو موجود في الذهن حين ترسل الجملة أو تتلقى.

والبنى العميقة "هي تلك الرموز التي تمثل المحتوى المعنوي للجملة بواسطة الرموز المجردة وتصنف هذه الرموز العلاقات المعنوية الأساسية القائمة بين عناصر هذه الظاهرة غير اللغوية التي تمثل جملة الترجمة اللغوية لها..."¹.

وفي العربية حظيت قضية التقديم والتأخير باهتمام العلماء وقد "أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق، وقد اختلف في عدة المجاز، فمنهم من عدّه منه، لأنّه تقديم ما رتبته التأخير، كالمفعول، وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل... والصحيح أنه ليس منه، فإن نقل ما وضع له إلى ما لم يوضع له"².

¹ علم اللغة في القرن العشرين، ترجمة: نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي، سوريا، د ط، ص: 202، 203.

² الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية العصرية، صيدا، د ط، بيروت، ص: 233/3.

2/ التحويل بحذف أحد عناصر الجملة:

الحذف في العربية مبني على غرض يقتضيه وحاجة تستدعيه، ومنه الإيجاز الذي هو من خصائص اللغة. حتى إن بعض العلماء يرون أن البلاغة هي الإيجاز.

والحذف كما قال الجرجاني: "باب دقيق المسلك لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، فالصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك ألطف ما تكون إذا لم تنطق، وأثم ما تكون إيانا إذا لم تبين، وهذه جملة قد تنكرها حتى تحبر، وتدفعها حتى تنظر".¹

كما أن الحذف درجات ومراتب، وقد جعله بعضهم في طبقات خمس: "حذف فيه بعض الألفاظ التي لا تكون جملة، وحذف يكتفي فيه ببعض الألفاظ التي لا تستغني عن غيرها مثل: لا كأن، قد وحذف يكتفي فيه ببعض الحروف الهجائية كالقافية، وحذف يستغني فيه تماما عن الألفاظ ويكتفي بالحركات الجسمية وغيرها كالإشارة، فالخامس حذف الإضراب وهو الذي تعطل فيه جميع أصناف الدلالات فيتدرج عبر الطبقات المذكورة إلى أن يزول كل شيء وتبقى المعاني عارية.

والحذف في النظرية التحويلية التوليدية³ أحد عناصر التحويل نقيضا للزيادة فكما أن الزيادة

هي أية زيادة على الجملة التوليدية النواة، لتحويلها إلى جملة تحويلية لغرض في المعنى .

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، طبعة الأنيس، المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، سنة 1991م، ص: 149.

² محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1994م، ص: 272.

³ مصطلح التوليد يطلق عليه الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح، مصطلح: التفريع، وقد استعمله الدكتور محمد أحمد نخلة، هذا المصطلح مع مصطلح مرادف له هو الإدماج.

فإنَّ الحذف يعني أيَّ نقص في الجملة التوليدية الاسمية أو الفعلية لغرض في المعنى وتبقى الجملة تحمل معنى يحسن السكوت عليه، وتحمل اسمها الذي كان لها قبل أن يجري عليها التحويل. ومما يدخل ضمن التحويل بالزيادة، استعمال أدوات الربط بين الكلمات والجمل، فإنَّ الجمل النواة_الأساسية_ تصاغ من وجهة نظر تشو مسكي في جملة تحويلية مشتقة واحدة من خلال استخدام أدوات الربط والتحويل مثل الواو، لو، كما، أن، اللام، ... الخ.¹

فهذه الأدوات الكثيرة تستطيع أن تصوغ جملة تحويلية شرطية طويلة، توظف الذاكرة وتجعلها أكثر عملاً و تنبها كما هو الأمر في الجملة التالية:

"ولو أننا أدينا في كل مكان نشغله هذا الواجب كما يجب أن يؤدي بدقة وأمانة لاجتازنا كثيرا من العقبات التي تقف في طريقنا".²

فهذه جملة تحويلية طويلة، وطريقة التحويل فيها هي تلك الأدوات المتنوعة التي تستعمل للربط بين أجزائها وتغير من طريقة صياغتها.

وهذا التغيير يسمى الجانب: "الصوتي والنحوي والدلالي معا".³

تكون الجملة (نحوية) بدونها كتحويل المبني للمجهول والاستفهام والنفي.⁴

أمَّا فيما يخص الزيادة المقصود بها التي تضيف شيئاً جديداً للكلام الأصلي، وهي نوعان:

¹مجلة عالم الفكر، مجلة صدرت عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج:22، ع4/3، من يناير إلى يونيو، سنة1994م، ص: 177.

² المرجع السابق، ص: 215.

³مجلة عالم الفكر.

⁴ محمود أحمد نخلة، نظام الجملة في شعر المعلقات، دار المعرفة الجامعية، د ط، الإسكندرية، سنة 1991م، ص: 54.

الأول ما يسمى ب"التوسعات النحوية"، والثاني ما يسمى ب"التنوعات الدلالية". فعندما يلفظ الطفل عبارة "الكلب ينبح"، إن كان الرد عليه بعبارة "نعم"، "الكلب ينبح"، فإن عبارة الرد تشكل توسيعاً نحويًا. أما إذا كان الرد عليه بعبارة: "نعم"، إنه "غاضب من الهر"، فإن عبارة الرد هذه تشكل تنوعاً دلاليًا.

فالزيادة الأولى ما هي إلا توسيع للجملة النواة من الناحية النحوية فقد دون المعنى، أما الزيادة الثانية فتضيف معنى جديد على الجملة النواة وتعطيها دلالة إضافية.

التحويل بتنوع دلالة المصدر:

يقول تشو مسكي في ارتباط النحو بالدلالة في الجملة "فمن أجل أن نفهم جملة ما، فمن الضروري أن نعرف جملة النواة التي اشتقت منها هذه الجملة، وبنية العبارة وكذلك التاريخ التحويلي للجملة التي نحن بصدد تطورها عن جملة النواة هذه....."¹

فقد أشار إلى فهم الجملة التحويلية ودلالاتها، وشرط ذلك هو معرفة الجملة النواة وكيفية بنية العبارة أي نظام التركيب.

وزاد على ذلك التاريخ التحويلي للجملة، أي ما عرفته هذه الجملة من التحويلات حين استعمالها، وفي هذا إشارة إلى دلالة وما تؤديه من معنى، إلى جانب كونها جملة نحوية لها دلالتها.

فقواعد النحو التوليدي نظرية افتراضية وتفسيرية لماهية اللغة كحال النظريات الافتراضية في العلوم التجريبية. فقد نصَّ أعني: تشو مسكي في البنى النحوية أن نظام القواعد للغة (ل)

¹ نعوم تشو مسكي، البنى النحوية، ترجمة: يؤول يوسف عزيز، مراجعة مجيد الماشطة، ط1، بغداد، سنة 1407هـ، 1987م، ص: 123.

هو في جوهره نظرية اللغة(ل)، ولكل نظرية عملية لا بد أن تعتمد على عدد محدود من الملاحظات، وتحاول تفسير الظواهر بظواهر جديدة عن طريق صياغة قواعد عامة، طبقا لتراكيب كما الحال بالنسبة (الكتلة) و (الإلكترون) في الفيزياء.

وبمعنى آخر "أنّ اللغة توصف بأنها لغة طبيعية تتكون من عدد محدود من الفونيمات ومن حروف الهجاء، مكتوبة أو منطوقة. وكل جملة تمثل عددا محدودا من تلك الفونيمات، والحروف ومع ذلك تنتج تلك الفونيمات والحروف عددا غير محدود من الجمل".¹

وباعتماد مفهومين:

الأول: مفهوم النظام اللغوي المجرد (القدرة أو الكفاية أو القابلية) وهذا النظام هو الذي يشكل المعرفة اللغوية المختزنة في أذهان أبناء اللغة، أو بكلمة أخرى هو مجموعة القوانين والمعادلات والعناصر الشكلية التي تكون الجهاز اللغوي التوليدي، وهذا الجهاز يتكون من العينات اللغوية الفعلية الأدائية.

الثاني: الأداء اللغوي، وهو ما يتولد عن النظام اللغوي العام المجرد (القدرة أو الكفاءة)، والأداءات اللغوية هي الانجازات التعبيرية. أي: "ما نقوله بالفعل، أو نكتبه أو نسمعه أو نقرأه، وتوصف هذه العينات اللغوية بأنها لا نهائية".²

ومعنى القول أنّ اللغة تلعب دورين مهمين إما داخليا أو خارجيا. الأول يبصر عن الفكر، والثاني يعبر عن الشكل الفيزيقي بوصفه أصوات ملفوظة.

¹ تحليل أحمد عمايره، في نحو اللغة وتركيبها، مكتبة المنار، الأردن، ط1، سنة 1407هـ، 1987م، ص: 56.

² المرجع السابق، ص: 61.

وأنَّ هذه الأفكار التي انبثقت من الثنائية المقدمة "الكفاية اللغوية و الأداء"، هي ما يعرفها تشو مسكي بـ "البنية العميقة والبنية السطحية".

إنَّ التوليدية التحويلية على هذا المفهوم ليست معايير يقاس عليها الخطأ والصواب، ولا هي وصف لبني لغوية ثابتة غير مستقرة.

فالتحويلية التوليدية تنظر إلى مستعمل اللغة على أنَّه مبدع يولد من التراكيب والجمل ما لا نهاية له.

القواعد التحويلية التوليدية:

تقدم القول: "إنَّ النحو التحويلي نظرية ذهنية تهتم بالحقيقة الذهنية التي تكمن وراء الأداء

اللغوي ومن ثم كانت مادة القواعد التحويلي هي اللغة الصرف، لأنها تتعامل مع المقدرة اللغوية".¹

لقد رأى تشو مسكي أنَّ اللغة هي جهاز محكم بقواعد معينة، وأنَّ العلاقة بين أجزاء الجملة الواحدة أعمق بكثير من تلك العلاقات الظاهرة على السطح. ولذا كانت القواعد هي الوصف الدقيق المجرد للمعرفة اللغوية الموجودة في ذهن الفرد، والتي تمكنه من استيعاب الجمل وتكوينها في تعامله مع الآخرين.

"إنَّ تنظيم القواعد الذي يقرن الأصوات اللغوية بالدلالات الفكرية والكامن ضمن الكفاية اللغوية هو ما يدعى بالقواعد التوليدية التحويلية".²

نفهم من نص تشو مسكي أنَّ القواعد النحوية تتألف من مكون نحوي، ومكون دلالي، ومكون فونولوجي، حيث يلعبان دور في التوليد المتسلسل للبنى الجمالية.

¹ نعمة رحيم العزاوي، مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة، المجمع العلمي، سنة 2011 م، ص: 193.

² مجيد الماشطة، شظايا لسانية، دار الشباب، سنة 2011م، ص 34

والقواعد التحويلية التوليدية تتألف من ثلاثة مكونات (النحو، المعنى، الصوت)، وإنَّ القوى الخلاقة تكمن في المكون النحوي الذي تنطلق منه، أو قسمه المسمى: المكون الأساسي أو التركيبي إذ هو الشرارة الأولى في عملية تكوين الجمل.

يكون الأساس تركيبيا (خاطئا) تحدد فيه السمات النحوية مثل: نوع ووجود، أو عدم وجود المبتدأ، أو الفعل أو المفعول به والظرف.... و أدوات التعريف والتنكير والتأنيث.... ثم يضع ما يسمى بالسجل، كلمات أو مفردات معينة بدل أقسام الكلام المكونة للتركيب أصلا: مبتدأ....خير". أو "فعل، فاعل، جار، مجرور.

وبعد أن يضيفي المكون الدلالي تفسيره الدلالي طبيعة العلاقات الدلالية بين أجزائه، يسمى عندئذ التركيب العميق، وتنقص التركيب العميق لجعله جملة بصيغتها النهائية ميزتان: التحويلات وتحديد السمات الصوتية.

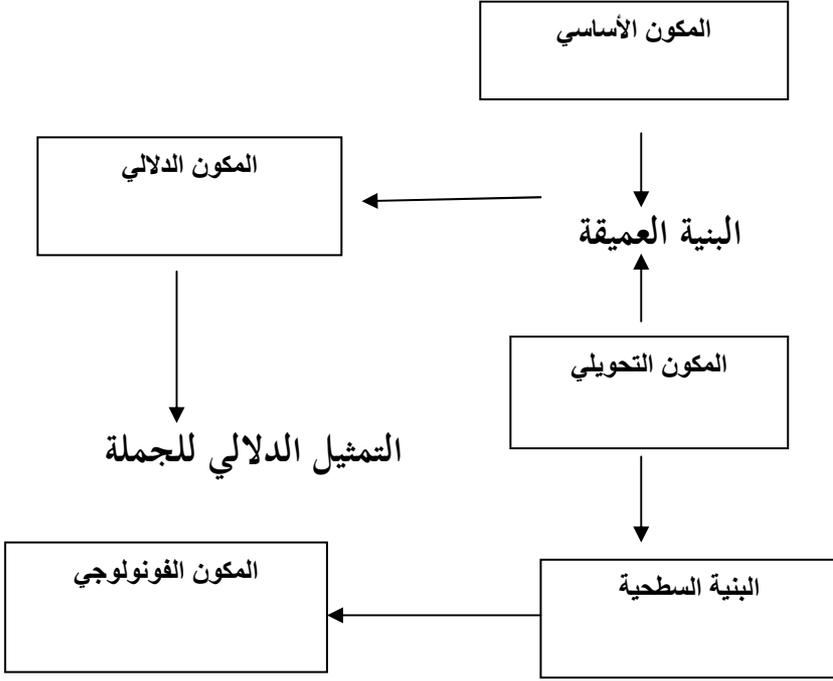
يتحول التركيب العميق بعد إجراء التحويلات النحوية إلى تركيب سطحي، " فالتركيب العميق هو المرحلة التي تمر بها الجملة في عملية توليدها قبل التحويلات، والتركيب السطحي مرحلة ما بعد التحويلات، يأتي الآن دور المكون الصوتي الذي يحدد السمات الصوتية للتركيب السطحي محولا إياه بذلك إلى جملة "جاهزة الاستعمال".¹

وهذا يعني تكافؤ العملية القاعدية في التنظيم التحويلي، فالمكون التركيب يولد مجموعة غير متناهية من البنى التركيبية التي تحتوي على تمثيل دلالي. يستمد من المكون الدلالي و على تمثيل صوتي أو

¹ ميشال زكريا، الألسنية التوليدية التحويلية، قواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، سنة 1986م، صص: 16_17.

فونولوجي يستمد من المكون الفونولوجي ، فالمكون التركيبي عبارة عن جسر يربط بين المعنى والصوت.

يظهر المخطط التالي تداخل المستويات في القواعد التحويلية التوليدية:¹



التمثيل الفونولوجي للجملة

ولقد اشتملت مدونة البحث اللغوي العربي على معالم أساسية من النحو التحويلي ومنهجه، وقد غلبت هذه المعالم على تفكير النحاة العرب الذين سبقوا تشو مسكي بمئات السنين. "والمنهج التوليدي التحويلي منهج أشبه ما يكون منهج النحو التقليدي العربي. لما اتصف به من الشكلية والمعايير التي عرفها الدرس العربي".²

¹ نعمة رحيم العزاوي، مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة، المجمع العلمي، سنة 2001م، ص 194.

² عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 174.

يرى أصحاب المنهج التحويلي أن عناصر التحويل تتمثل بما يأتي :

1/ الترتيب: وهذا البند اخذ برأي الجرجاني في دلائل الإعجاز ، والرأي القديم القائل:

"إنَّ العرب إذا أردت العناية بشيء قدمته، وبرأي الكوفيين الذين يجيزون تقديم الفاعل

على فعله. فمثل: "محمد بلغ الرسالة" جملة تحويلية فعلية، جاء التحويل فيها بتقديم الفاعل للعناية

والأهمية أو التوكيد".¹

2/ الزيادة: " ويقصد بها زيادة عنصر من عناصر التحويل، وما يضاف إلى الجملة النواة أو الأصل من

كلمات يعبر عنها النحاة بالفضلات أو التتمة أو غير ذلك. ويعبر عنها البلاغيون بالقيد، يضاف إلى

الجملة الأصل، لتحقيق زيادة في المعنى فكل زيادة في المبنى تعني زيادة

في المعنى"²

3/ الحذف: "ويكون في ركن رئيس من أركان الجملة التوليدية، فتتحول إلى جملة تحويلية، ولكنها تبقى

على ما هي عليه من حيث الفعلية أو الاسمية".³

4/ الحركة الإعرابية: وهذا العنصر ذو قيمة دلالية كبيرة، وبها يتم تحويل الجملة التوليدية عن أصل

افتراضي كانت عليه للإخبار، وقول النحويين القدماء بأن الحركة الإعرابية أثر ظاهر أو مقدّر يجلبه

العامل، ردّه بعض الآخذين بمنهج التحويل.

5/ التنغيم: " يضيف علم النطق إلى مهمة علم الأصوات جمع الظواهر الصوتية الدالة

¹ عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص 141.

² المرجع نفسه، ص 141.

³ المرجع السابق، ص: 194.

في التخاطب البشري، كالنغمة والنبر".¹

أمّا النبر هو "أحد الفونيمات التي لها دور في مبنى الكلمات في بعض اللغات، ولها دور في معناها كذلك، ويكون بتقوية صوت في كلمة معينة ليرتفع على غيره، من أصوات الكلمة ذاتها بعامل من عوامل الكمية والضغط".²

وهذه العناصر هي التي تنقل الجملة من توليدية فيها معنى سطحي إلى تحويلية فيها معنى عميق.

وفكرة التحويل عند النقاد القدامى، كانت قائمة في صدورهم متصورة في أذهانهم، مختلجة في نفوسهم، متصلة بخواطرهم، موجودة فيهم بالقوة. حاولوا إخراجها إلى الفعل والممارسة، وهم لم يكتفوا بذكر عملية التحويل (الحذف و الاستفهام و النفي ...) و إنما كان بذكر أدوات و خطوات أخرى لا ينقصها شيء إلا الترتيب و التنظيم.

والشيء اللافت للانتباه كطرح فكرة المقام، والتي تمثل الظروف المحيطة بالمتكلم والمخاطب وأثر ذلك في دلالات الجملة المحولة، وقد رسمت له صورة تحليلية رائعة مع العالم النحوي البلاغي "عبد القاهر الجرجاني".

¹تمام حسان ص 119

²تحليل عمايره، في نحو اللغة وتراكيبها، مكتبة المنار، الأردن، ط1، سنة 1407هـ، ص:173.

الجملة المحولة :

والتي حددها تشو مسكي ،صفات منها:"أن تتصف ببساطتها وقصرها وبكونها أكثر التراكيب ورودا و استعمالا، و تنطبق هذه الأوصاف دائما على الجملة الإخبارية التقريرية المبنية للمعلوم".¹

إنَّ الاقتصار على تتبع قيود النحو وقوانينه، لا يسمح باستثمار الإمكانيات النحوية من الناحية الفنية و الجمالية والدلالية للغة.

"ولذا فإنَّ علم المعاني يتجاوزه فكرة الصحة النحوية إلى فكرة "المقام" حيث يقف الموقف الذي سقيت فيه العبارة، والمعنى والغرض المراد منها دون غيرها".²

وهذا المنهج نجده مجسدا عند عبد القاهر الجرجاني، ومن تبعه البلاغيون، ففي عرضه للدراسات التطبيقية لخواص التركيب، نجده يتبع مواطن الجمال والارتقاء اللغوي، ويبسط المعاني والدلالات المتنوعة الناتجة عن تعدد الفروق والوجوه الخاصة بالنظم، سواء أكان التركيب قرآنيا أم شعريا أم خطابا عاديا.

طرق التحليل في النظرية التوليدية التحويلية:

¹ طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية، الإسكندرية، د ط، سنة 1999م، ص: 18.

² حسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغي، تأصيل وتقييم، مكتبة الإيمان بالمقصورة، ط2، سنة 2004م، صص: 7_8.

الطريقة الأولى:

وهي تحليل الجمل إلى عناصرها اللغوية ، ولا بد لنا من بسط القول في هذه الطريقة، وفق ما

أراد تشو مسكي وفق لقواعد اللغة الانجليزية. فنقول مثلاً:

في الكلمات جولز، وتشولي، ويجب: أنّ احتمال تقليب هذه الكلمات ستة احتمالات، بينما

لا تقبل القواعد الانجليزية سوى احتمالين هما:

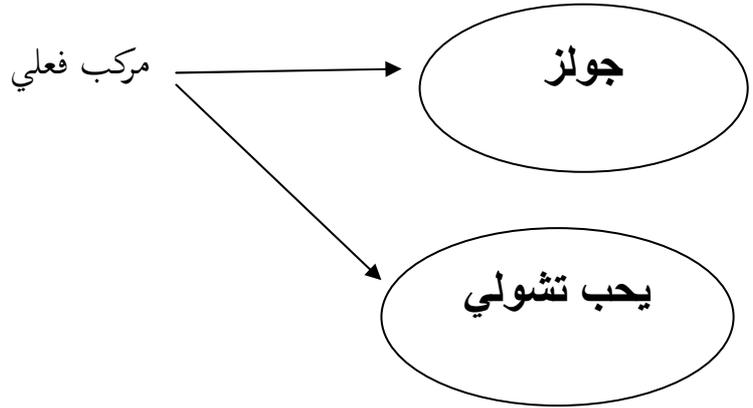
جولز يجب تشولي، تشولي تحب جولز.

ووفق لهذين الاحتمالين المقبولين نحويًا في قواعد اللغة الانجليزية، فإن الجملة حسب تشو مسكي

ستعاد كتابتها إلى:

— اسم مركب فعلي.

والمركب الفعلي تعاد كتابته على: فعل اسم.



ووفقاً لقواعد اللغة العربية يمكننا تطبيق المثالي الآتي:¹

شرب الطفل العصير.

¹ زكريا كامل راجح مقدادي، جامعة اليرموك، قسم اللغة العربية وآدابها، تخصص اللغة والنحو، الثلاثاء، 26/07/2011م.

1. الجملة = مركب فعلي، مركب اسمي.

2. المركب الفعلي = فعل مركب اسمي.

3. المركب الاسمي = أداة الاسم.

4. أداة = أل

5. الاسم = طفل، عصير.

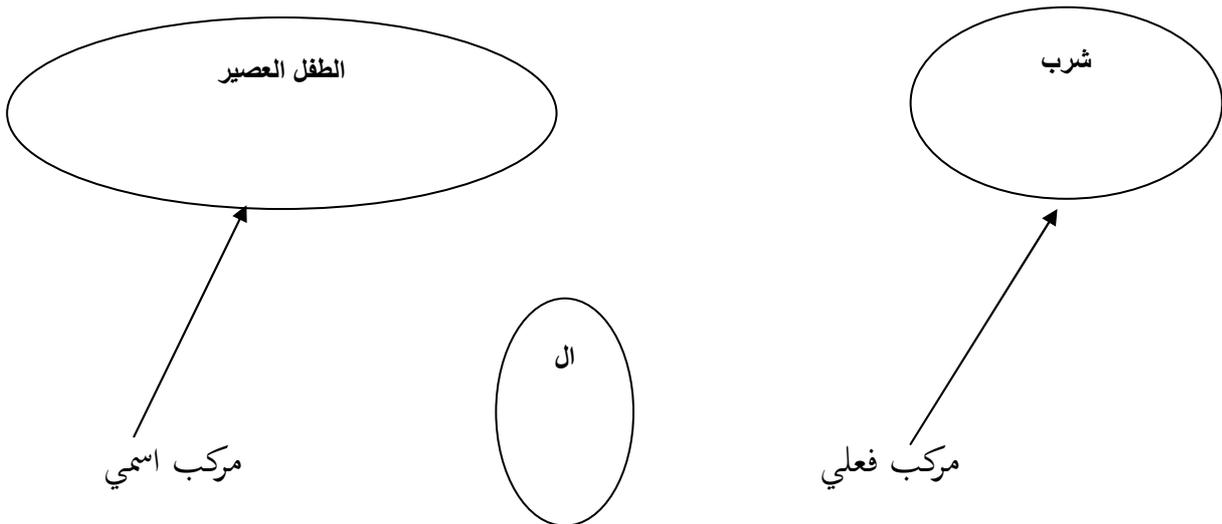
6. الفعل = شرب.

فالقواعد من (1_3) قواعد تفرعية، تفرع المستويات اللغوية، (الدنيا من المستويات العليا).

والقواعد من (4_6) قواعد معجمية تقوم بتزويد (المستويات اللغوية بالمفردات المعجمية).

ويكون الرسم التشجري لهذا التحليل الآتي:¹

شرب الطفل العصير



¹المقال السابق، ص: 304.

الطريقة الثانية:

ويطلق عليها النحو التوليدي التحويلي،¹ وتتمثل في تحليل العمليات المنطقية والعقلية في البنية العميقة، وصولاً إلى البنية السطحية. قصد الوصول إلى الحدس عند صاحب اللغة، لأن دراسة الجملة في ضوء القواعد التحويلية التوليدية، لا تتوقف على إدراك الذهني، وإنما لا بد من التمتع بالجانب الحدسي، بذلك يمكننا إدراك العمليات بالإضافة إلى أخذ الأصوات والمباني الصرفية، والنحوية في الحسبان.

مثال: قرأ الأستاذ الدرس.

مركب فعلي (قرأ الأستاذ)، مركب اسمي (الدرس).

قرأ: تام ال الأستاذ ال الدرس.

وقد استطاع الجرجاني بأفكاره العميقة الكشف عن أسرار النظم العربي، والإمكانات التعبيرية الهائلة التي يتمتع بها .

"وهي التراكيب التي أدخلها في إطار الفضيلة والمزية، ذلك لأنه ميز بين نوعين من التراكيب".²

تراكيب تقتصر على مستوى الصواب أو الصحة النحوية، وأخرى ترتقي إلى مستوى المزية

والجمال الفني، وكلاهما لا يعتبران نظماً إلا بتوخي معاني النحو بين معاني الكلم.

¹المقال السابق.

²عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمد شاكر ومحمود أبو نحر، مطبعة المدني، القاهرة، ص: 81.

"إذ ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله".¹

والمزية التي تخص الوجوه والفروق المختلفة للنظم في نظر "الجرجاني". تكتسبها إذا ما وافقت المعاني المطلوبة، والأغراض المقالية المتنوعة. فهي تناسب مقاما دون آخر وغرضا دون غرض. إنَّ هذه الأفكار المهمة التي يطرحها عبد القاهر الجرجاني، وغيرها نجده يبسطها بالتفصيل في أبواب كباب الحذف، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل... الخ. فمعاني النحو محددة والوجوه والفروق التي تنسج على أساسها متنوعة ومتعددة.

ويكاد يجمع الباحثون اللغويون على أن أفكار الجرجاني في النظم، تكاد تقترب من أفكار، اللسانين والأسلوبين المعاصرين، ففكرتا المستوى العميق والسطحي التي تنتمي إلى النحو التحويلي، نجدها ماثلة عنده.

فالمستوى العميق يمثل التركيب اللغوي في مرحلة الصواب، أي في القاعدة النحوية المثالية الخاصة باللغة. "والمستوى السطحي يمثل مرحلة الإبداع، أي إبداع التراكيب، وهيئات وتأليف باستغلال الإمكانيات النحوية الإبداعية".²

فيأتي التركيب مشحونا بالإيحاءات والدلالات والفرق الذي نسجله بين تحليل التركيب عند عبد القاهر الجرجاني وتشو مسكي هو أن الاتجاه الأول اتجاه نحوي بلاغي، والثاني اتجاه نحوي بحت

¹المصدر السابق، ص: 87.

²محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية لوجمان، القاهرة، ط1، سنة 1997م، ص: 56_55.

فعبد القاهر الجرجاني تجاوز البحث في فكرة أصل التركيب، في أي نشاط لغوي يقتضيه المقام أو السياق.

يقول الجرجاني في باب الحذف: "ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة...."¹.

إنّ الدراسة التحليلية التي قدمها الجرجاني، والتي تخص الكلام البليغ كشفت أنه لا أدبية إلا بتضافر الإمكانيات النحوية والبلاغية، و"أنّ دخول النحو بكل حقائقه التحويلية إلى منطقة الأدبية قد ساعد على تحقيق معنى النظم سطحا وعمقا.

فقد اهتم تشو مسكي في النظرية التوليدية التحويلية بالنحو أكثر من الدلالة، إذ كان تركيزه على توليد عدد غير متناهي من الجمل وتحويلها. بينما الجرجاني ركز وأعطى أولوية توحي معاني النحو إذ النحو الذي يعصم اللغة من الخطأ.

ونظرية الجرجاني نشأت باعتبار أن الجملة وحدة لغوية مهمة، من خلالها ميز بين البنية العميقة والبنية السطحية، كما أنه أشار إلى القواعد التحويلية التي تتصل بين كل قسم .

نجد الجرجاني أنه لم يعمق كثيرا في البنية العميقة وبيان التحويلات التي تطرأ على الجملة والسبب في ذلك أنّ القواعد النحوية ثابتة لا حديث فيها.

¹المرجع السابق، ص: 146.

فالنواسخ على سبيل المثال " كان وأخواتها" ، كان فعل ماض ناقص، يدخل على المبتدأ والخبر فيرفع الأول يسمى اسمها، وينصب الثاني يسمى خبرها".¹

كما أنه تعرض إلى القواعد التحويلية حين تطرق إلى التشبيه و الاستعارة كما هو المثال التالي:
في قوله تعالى: " واشتعل الرأس شيباً".²

أي اشتعل شيب الرأس، والتغيير في رتبها كتقديم الخبر عن المبتدأ.

والتغيير في الحركة الإعرابية مثل:

فَتَحَ = جملة مبنية للمعلوم، فُتِحَ = جملة مبنية للمجهول.

ركزَ عبد القاهر الجرجاني على أن اللغة أداة الفرد والمجتمع، تنضوي تحت ثنائية اللفظ

والمعنى وتطابقهما. إذ لا توجد ألفاظ مجردة، إلا مع ملائمة المعنى المراد، وفق السياق ومقتضى الحال.

بينما نعوم تشو مسكي نبذه يركز على القواعد التحويلية والعلاقات النحوية، إضافة أنه عرف

اللغة بأنها عدد غير متناهي من الجمل، انطلاقاً من المستويات الثلاثة: المستوى الصرفي، المستوى

الدلالي، المستوى النحوي

تقوم نظرية النظم على أطر وهي العمليات الذهنية والنفسية التي يقوم بها المتكلم قبل كلامه

ولحظة الكلام. من ترتيب الألفاظ في جمل داخل سياق محكم، ويتضمن كل من المستوى الدلالي

والنحوي، وذلك حسب المقاصد والأغراض، وكما يعرف أنّ لكل مقال مقام.

بينما مثلت فكرة الفطرة لدى تشو مسكي ركنا يعتمد عليه المبنى كله، إذ قاده هذه الفرضية

¹ جعفر دك الباب، الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علوم المعاني، ص: 120.

² سورة مريم، الآية: 04.

إلى فرضية أخرى تتعلق بها. وهي أن الفطرة الذهنية قائمة على عدد من الكليات النحوية (القواعد الكلية)، التي تقوم بضبط الجمل المنتجة وتنظيمها بقواعد وقوانين لغوية عامة. تخضع لها الجمل التي ينتجها المتكلم، يختار ما يتصل بلغته من قوالب وقواعد بين الأطر الكلية العامة في ذهنه.

ويتحدث الجرجاني عن الكلام بأنه لن يكون بليغا ما لم تنسج فيه الألفاظ مع المعاني ويطابق ما يقتضيه حال المتلقي، ويتلاءم مع الظروف المحيطة بالخطاب، التي تكيف اختيارات اللغة ومستويات استعمالها، ومن أجل فهم صحيح وقريب المقاصد، من مقاصد المبدع فحسب، فالجرجاني يستوجب إلى الأمر بإعادة بناء المقام، فنجاح القول مرهون بمناسبة الظروف.¹

ويؤكد أيضا أن الإنسان كلامه يحمل ذاته سواء نطق به أو بقي في نفسه، وهي مشتركة بين الجميع وحتى وإن تعددت اللهجات. بينما تشو مسكي اللغة عنده هي فطرة تولد مع الإنسان، يقوم بملئها بالتعابير اللغوية، من المجتمع الذي يعيش فيه. فتتضح وتقوى بالتدرج، وكلما اكتسب الإنسان ما يملأ به من الكليات الفطرية، ازداد النمو الداخلي والتنظيمي للقواعد الذهنية.

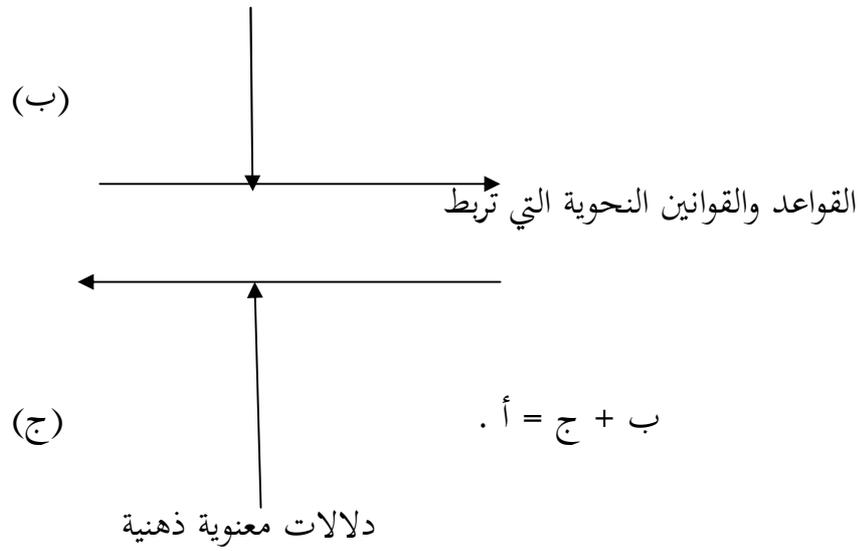
وهي تلك المسئلة عن بناء الجمل وتركيبها في لغته، فتكون لديه القدرة على توليد الجمل بقوانين "ويبين أن المعاني لها أولوية، فدراسة اللغة عند هذا المنهج الوصفي بوصفه مستقلا لا يتجاوز حدود المادة البشرية، وإنما ينبغي أن تعيننا الدراسة اللغوية على فهم الطبيعة البشرية".²

¹ أحمد علي دهمان، الصورة البلاغية عند الجرجاني، منهاجا وتطبيقا، دار طالا، دمشق، سنة 1986م، ص: 217.

² عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، سنة 1979م، ص 111.

يرى تشو مسكي أنّ المتكلم والسامع، له القدرة على إنتاج عدد هائل من الجمل من الفونيمات الصوتية والقدرة على الحكم بصحتها من وجهة نظر مكونة تركيبية، ثم القدرة على الربط بين الأصوات المنتجة في مورفيمات تنتظم داخل الجمل.

أصوات منطوقة



وهذه القواعد والقوانين وتلك القدرة كامتتان في الذهن، وأما استعمالها فيسمى الأداء.

ما بين عبد القاهر الجرجاني ونعوم تشو مسكي في البنية:

نجد أنّ الجرجاني قد أعطى تحليلاً أفضل في اللغة العربية ل: "البنية السطحية" و "البنية العميقة".

ولتوضيح الفرق بين البنيتين فقد أعاد الجرجاني صياغة كل واحدة منهما بالطريقة نفسها التي يستعملها نعوم تشو مسكي الآن، من أجل الكشف عن البنية العميقة للتركيبات المماثلة. والبنية العميقة و البنية السطحية في نحونا العربي القديم ما هي إلا ظاهرة التقدير أو التأويل للمعنى. "وهنا جزء مما شرحه الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز عن التقديم والتأخير للبنية العميقة والسطحية".¹ من

¹ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه، محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة 1404هـ، 1984م، ص:

بين الشيء في ذلك "الاستفهام بالهمزة" فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: أفعلت؟. فبدأت بالفعل، كان الشك بالفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده.

وإذا قلت: أنت فعلت؟. فبدأت بالاسم، كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه.

ومثال ذلك أنك تقولك: أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيتها؟.

وتبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأنَّ السؤال والشك فيه، لأنك في جميع ذلك مترددا في وجود

الفعل وانتقائه. مجوزا أن يكون قد كان، وأن يكون لم يكن. وتقول: أنت بنيت الدار؟.

فتبدأ في ذلك كله بالاسم، ذلك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان. كيف؟ وقد أشرت إلى الدار

المبنية، وإنما شككت في الفاعل من هو؟.

ومما يعلم به ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم أنك تقول: "أقلت شعرا

قط؟.

فيكون كلاما مستقيما، ولو قلت: أنت قلت شعرا قط؟.

وذاك أنه لا يعني للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا، لأنَّ ذلك إنما يتصوّر إذا كانت الإشارة إلى

فعل مخصوص.

نحو: من قال الشعر؟.

وما أشبه ذلك منه، مما يكن أن ينصّ فيه على معين. فأما قيل الشعر على الجملة، فمحال ذلك منه،

لأنه ليس مما يختص بهذا دون ذاك حتى يسأل عن عين فاعله.¹

¹ جاسم، جاسم علي وجاسم، زيدان، علي، نظرية التقدير عند النحاة العرب والمسلمين وأثرها في نحاة الغرب المعاصرين، مقال، مخطوط قيد النشر، مجلة القصيم، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية.

فهذا تحليل لغوي يعتمد على المنطق، والأسلوب الفلسفي الفكري، الذي تأثر به نعوم تشو

مسكي في تحليله للجملة الإنجليزية، كما يذكر في كتابه "علم اللغة الديكارتي المنطقي".

ولتوضيح معنى البنية العميقة والسطحية بشكل بسيط يمكن أن نورد مثال:

عندما نقول: جاء زيد، فهنا زيد فاعل حقيقي، فهو بنية سطحية ظاهرة، أي أنّ الفاعل ظاهر.

فهنا حاول تشو مسكي أن يبرهن للانجليز مثلاً: "أنّ زيدا جاء الفاعل هنا مقدر وبينما جاء

زيد فالفاعل هنا حقيقي، وهذا ما يسميه بالبنية العميقة والسطحية في النحو الانجليزي"¹.

إذن نظرية النظم تعتمد على الأسلوب اللغوي الفلسفي المنطقي في تفسير الكلام وشرحه

وهذا ما تأثر به تشو مسكي في تحليله للجملة الإنجليزية، وطريقة التحليل التي اتبعها الجرجاني هي

نفسها التي اعتمدها تشو مسكي.

تأثر النحو الغربي لدى تشو مسكي بالنحو العربي عند الجرجاني من خلال:

1/ تشابهها بالعربية في تكوين الاسم من حيث عدده ونوعه، وفي تكوين الفعل من حيث زمنه

وتجرده، وزيادته وصحته، وعلته.

2/ تغيير معنى الكلمة بتغيير حركاتها.

3/ التشابه في صياغة الجمل وتركيبها.

والجملة العبرية تنقسم إلى جملة بسيطة وهي: (الجملة النواة) وجملة غير بسيطة وهي: (الجملة

المركبة). حيث تحتوي على جمل فرعية داخلها.

¹ الخولي محمد علي، قواعد تحويلية للغة العربية، دار الميرخ، ط1، الرياض، سنة 1981م، ص: 18.

فالجملة البسيطة تتكون من مبتدأ أو خبر أو فاعل أو فعل ومفعول به، وتتوسع بإقحام جملة الصلة بين جزأين.

الجملة الأصلية مع وصف الخبر.

والجملة الاسمية = تتكون من مبتدأ وخبر دون الحاجة إلى فعل يربطهما.

والجملة الفعلية = ويعبر بالفعل وحده بوصفه جملة مفيدة يحسن السكوت عليها، موجودة في جميع

اللغات، إذا فهم الفاعل المصاحب للفعل الكامن فيه على شكل ضمير مستتر. ففي اللغة العربية

أستطيع القول أن أقول "قف"، وتكون جملة مفيدة، لأنَّ فاعل هذا الفعل متضمن من الفعل نفسه

وتقديره أنت، وأحصل على نفس النتيجة، إذا قلتها بالإنجليزية.

فالجملة العبرية تسير على النحو الآتي:

أ/ الجملة الفعلية تتكون من الفاعل ثم الفعل ثم المفعول به.

ب/ الجملة الاسمية تتكون من مبتدأ وخبر.

"وقد يأتي الفعل قبل الفاعل، إذا كانت الجملة مبدوءة بظرف أو حال أو بجملة تأكيد، كما أن العبرية

الحديثة لا تتقيد بهذه القاعدة في بعض الأحيان".¹

وبتالي، نقيم أنَّ اللغة العبرية لعبت دورا كبيرا بتأثرها بالنحو العربي، ومعرفة تشو مسكي لها

معرفة تامة. ذلك لأنه تأثر بمقومات نظرية النظم و أسسها، ومما أعطى تشابها إلى حد بعيد بينها وبين

صيغ قواعد اللغة العربية.

¹ عليان، سيد سليمان، قواعد اللغة العبرية، جامعة الملك سعود، د ط ، الرياض، سنة 2000م، ص: 5.

ومن خلال ما سبق نستخلص أنّ ظاهرة التحويل في النّحو العربي لدى عبد القاهر الجرجاني تنبني عن النزعة العقلية المنتهجة في كليهما. وهذه نقطة التقاء مهمة، لكنها لا تعني أنّ هناك تطابق في المنهج والأهداف المرجوة. فإذا كان غرض النحو العربي من افتراض الأصل المقدر.

هو محاولة إعادة صياغة التركيب المنطوق للاتساق مع القاعدة، من خلال ربط العناصر الحاضرة في البنية التحتية بالحاضرة في البنية السطحية.

فإنّ هدف النّحو التحويلي عند تشو مسكي أبعد من ذلك فهو يتبنى منهجا علميا موضوعيا يعتمد على نتائج العلوم التجريبية، كعلم النفس، الرياضيات، وعلم الذكاء الاصطناعي، من أجل اكتشاف قواعد النحو العالمي.

ومن نتائج اللسانيات التوليدية التحويلية ظهور ما يسمى باللسانيات المعرفية، وهي التي تعنى بدراسة صيرورة الذهن في معرفته بالعالم وخاصة المعرفة اللغوية.

خاتمة

من خلال بحثي في هذا الموضوع وتتبعي لمصطلح النظم عبر العصور والأزمنة المختلفة يمكنني

الإقرار على النتائج التالية :

1/اهتمام العرب القدامى بالجانب النقدي منذ عصور قديمة،عرف خلالها النقد تطوراً كبيراً.

2/النَّظْم مصطلح قديم استعمله النُّقاد القدامى بمفاهيم مختلفة، تارة السَّبْكَ، وأخرى التأليف

والتلاحم .

3/حرص العرب على اللغة العربية وفهم القرآن والحديث النبوي الشريف، كان من أهم الدوافع التي

أدت تطور المصطلح النقدي.

4/البحث عن أوجه الإعجاز القرآني، والإعجاز النبوي الشريف، كان وراء ميلاد مصطلح النَّظْم.

5/المصطلح النقدي "النَّظْم" الذي وصل إلى تشكيل نظرية قائمة بذاتها عرف تطوراً وتقدماً على يد

نقاد كان لهم الباع الطويل في الدراسة النقدية عبر أزمنة متقاربة من بينهم الجَّاحِظ، الباقلاني

الخطابي، الرُّماني، القاضي عبد الجبار، عبد القاهر الجرجاني.

6/عبقرية الجرجاني وفهمه الدقيق والعميق للغة، وكذا جهود السابقين له مكنه من الوصول إلى ما

وصل إليه في محاولة لإثبات الإعجاز القرآني والنبوي.

7/وفق الجرجاني في إرساء أسس نظريته وأقام عليها تصوره البلاغي كله ونظر إلى كتاب الله وإلى

اللفظ والمعنى، والجمع بين البناء والتركيب والصناعة، والتصوير والجمال في فكرة واحدة وهي "النَّظْم".

8/ نظرة عبد القاهر إلى النحو نقلت هذا العلم من الاهتمام بأواخر الكلم إلى جو رحب يفيض حركة وحياء .

9/ وقد استطاع أن يشرح فكرة النّظم على مقومات من بينها توخي معاني النّحو .

10/ فكرة التعليق هي أهم ما في فكرة النّظم فهي تهدف إلى إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة القرائن.

11/ لم يكتف عبد القاهر بدلالات الصياغة اللغوية وإنما بحث في ما وراء هذه الدلالات أي في اسماء المعنى ومعنى المعنى.

12/ لامس الجرجاني جانبا مهما من مباحث الدلالة بالجانب التداولي وهو المتلقي الذي يبذل جهدا في فك شفرة المعنى من خلال الاستدلال العقلي على المعنى المقصود.

13/ يجمع الجرجاني وعلماء النّص في أنّ الخواص التركيبية والدلالية والاتصالية للنصوص تتحقق وفق مستويات ثلاثة وهي: المستوى النحوي، المستوى الدلالي، المستوى التداولي .

14/ يقر الجرجاني بالتواضع الاجتماعي للغة وسيطرة هذه الفكرة على الدراسات الحديثة خاصة عند دي سوسير إذ اعتبر هذا الأخير العلامة اللغوية وحدة طبيعية ذات وجهين لا ينفصلان .

15/ فكرة تضافر القرائن فكرة تشه إلى حد كبير فكرة النّظم وأنّ لفظ التضافر تعادل الضّم أو النّظم

إلا أنّ الدكتور تمام حسان استطاع أن يغير من فكرة توظيف المصطلح في حين تناول الجرجاني في إطار سرد شامل يؤكد على أهمية العلاقات التي تمكن الألفاظ مجتمعه من تحقيق الدلالة.

16/ إنّ نوعية القرائن اللفظية والمعنوية عند تمام حسان يعادلان النّظم والتعليق والقرائن.

17/يقوم مصطلح السياق على المعطيات اللغوية وغير اللغوية، فهو الإطار الذي تنزل من خلاله اللغة محل الموجودات، وأنَّ فهم النَّص لا يتأتى إلا بالرجوع إليه.

18/ ترتكز النظرية السياقية للاستعارة، على أنَّ الاستعارة عملية خلق تركيب جديد لها علاقة عضوية مبنية داخل البناء اللغوي.

19/دخل تشو مسكي باب الدراسات اللغوية عن طريق دراسة النَّحو، بمفهوم النَّحو الواسع الذي يشمل النَّحو والصَّرْف معًا.

20/ يقصد تشو مسكي بالنَّحو مجموعة القواعد التي يمكن بمقتضاها استحداث كل الجمل الصحيحة في لغة ما .

21/ التحويل عملية نحوية تغير ترتيب المكونات في داخل جملة، ما وبوسعها حذف عناصر أو إضافتها واستبدالها.

22/ فكرة النظرية التحويلية تقوم على أساسين:

الأساس الأول: الأداء اللغوي المتمثل بالبنية السطحية، والذي يمثل كل ما ينطقه الإنسان، الأساس الثاني: يمثل الكفاءة، وهذا المصطلح يطلق عليه البنية العميقة للغة.

23/ القواعد التحويلية قواعد تنظم العلاقة بين البنية العميقة والبنية السطحية الخارجية للغة.

24/ البنية العميقة هي التي بها يتم تحديد التفسير الدلالي، لأنها ترتبط بالمعنى وإنَّها تكون في ذهن المتكلم أو السامع، وعن طريق المكون التركيبي المشتمل على قواعد الأساس يتم توليدها.

25/ البنية السطحية هي مثل الكلام المنطوق المتمثل بالأصوات للغوية، كما تعتبر الناتج الحاصل المحول من البنية العميقة إلى البنية السطحية.

26/ التوليد: والذي يولد من الجملة الأصل إلى تؤدي معنى مفيد بمجموعة من التراكيب.

27/ إنَّ ثورة تشو مسكي هي ثورة نحوية خليلية أصلا، جرجا نية تفصيلا في النَّحو الانجليزي، وذلك من خلال البنية العميقة والبنية السطحية.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر والمراجع

- 1/ سبيويه ،الكتاب ،تح:محمد عبد السلام هارون ،دار الجليل ،بيروت،لبنان ،ط1،دت،ص 8 /1
- 2/ الجاحظ ،البيان والتبيين ،ج2،تح:عبد السلام هارون ،مكتب خلفاحي ،القاهرة، دت،ص8/7
- 3/ صلاح الدين عبد التواب،النقد الأدبي ،دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن ص 76/77
- 4/ أبو بكر، محمد بن الطيب الباقلائي ،إعجاز القرآن ، تح:أحمد صقر ،دار المعارف،مصر 1993،ص19.
- 5/ أبو هلال العسكري ،الصناعتين ،تح: علي محمد البجاوي، وأحمد أبو الفضل إبراهيم دار الحياء للكتب العربية،القاهرة،ط2،دت .
- 6/ حاتم الضامن ،نظرية النظم ،تاريخ وتطور،الموسوعة الصغيرة،دار الثقافة ،د ط 1979، ص 47.
- 7/ الرماني ، النكت في إعجاز القرآن،تح: محمد زغلول سلام و محمد خلف الله ،دار المعارف ،مصر ،دت، ص 96.
- 8/ قدامة بن جعفر ،نقد الشعر ،دار الكتب العلمية، بيروت ،1402هـ ،د ط،ص 171.
- 9/ وليد مراد ، نظرية النظم و قيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر المرجاني ،دار الفكر ، دمشق ،د ط ،1400هـ،1982،ص 16.
- 10/ الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني ،جعفر دك الباب ،مطبعة الجليل ،دمشق ،ط1، 1400هـ،1980، ص 112.

- 11/ إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب "نقد الشعر" ، من القرن 2هـ حتى القرن 8هـ، دار الشروق ، عمان ، ط1، 1993، ص 435/426.
- 12/ جودت فخر الدين الرازي ، شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن 8هـ منشورات دار الآداب ، بيروت ، ط1، 1984، ص 58.
- 13/ عبد العزيز المعطي عرفة ، تربية الذوق الأدبي عند عبد القاهر الجرجاني ، ط1، 1983، ص 6.
- 14/ الجاحظ ، الحيوان ، تح: عبد السلام هارون ، مكتبة الخفاجي ، القاهرة ، ج3، د ط ، د ت ، ص 132.
- 15/ عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، دار الثقافة العربية ، الجزائر العاصمة ، ط1، 2007، ص 65/63.
- 16/ قطر الندى لأبي هشام الأنصاري ، مكتبة الخانجي ، مصر ، القاهرة ، د ط ، 1971، ص 77.
- 17/ جورج موانان ، تاريخ علم اللغة من نشأتها حتى القرن 20، تر: بدر الدين قاسم ، مطبعة جامعة دمشق ، د ط ، 1972، ص 197.
- 18/ عاطف مذكور ، علم اللغة بين القديم و الحديث ، مديرية الكتب والمطبوعات ، جامعة حلب ، د ط ، 1981، ص 23.
- 19/ علي عبد الواحد وافي ، نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ، مطبعة العالم العربي ، د ط ، ص 30 وما بعدها .
- 20/ عبده الراجحي ، فقه اللغة في الكتب العربية ، دار النهضة العربية ، 1979، ص 72.

- 21/ عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، دار العربية للكتاب ، تونس ، 1981، ص 113.
- 22/ مصطفى مندور ، اللغة بين العقل والمغامرة ، منشأة المعارف الإسكندرية ، 1974،
- 23/ ابن جني الخصائص ، تح: محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة و النشر ، ط 1، بيروت ، د ت ، ص 227.
- 24/ تمام حسان العربية معناها ومبناها ، دار الثقافة ، د ط ، د ت ، ص 188.
- 25/ نصر أبو بوزيد ، مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في ضوء الأسلوبية فصول ، مج 5، ع 1، القاهرة ، أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر، 1984، ص 11، 24.
- 26/ الجاحظ ، حجج النبوة ، تح: إسلام عبد الرؤوف ، ط 1، ص 287.
- 27/ مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ، دار الكتاب ، بيروت ، د ت ، صص 146، 147.
- 28/ محمد زغلول ، اثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص 241، انظر احمد مطلوب ص 194، القزويني وشرح التلخيص ، شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص 105.
- 29/ عبد الكريم الخطيب ، الإعجاز في دراسات السابقين ، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها ، دار الفكر العربي، ط 1، 1974، 189.
- 30/ الامدي ، الموازنة ، تح: احمد صقر وعبد الله المحارب ، دار المعارف ، ط 4، مكتبة الخانجي ، 1994، ص 241.

- 31/ القاضي عبد الجبار ، المغنى في أبواب التوحيد والعدل ، ج17، تح: أمين الخولي ، دار الكتب ، ط1، القاهرة ، 1960، ص276.
- 32/ الأعلام الشنتمري ، أبو الحجاج يوسف ، النكت في تفسير كتاب سيبويه ، تح : زهير عبد المحسن سلطان ، معهد المخطوطات العربية ، الكويت ، د ت ، د ط،
- 33/ التفتا زاني ، شرح المختصر على تلخيص المفتاح ، مكتبة الصحابة لصاحبها محمد هادي المارديني ، تركيا ، د ط، 34/1.
- 34/ كريم زكي حسام الدين ، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة ، ط3، القاهرة ، 1421هـ، 2001، ص 251.
- 35/ فان دايك ، النص بنائية ووظائفه ، مدخل أولي إلى علم النص من نظرية الأدب في القرن 20، تر: محمد العمري ، الدار البيضاء ، إفريقيا الشرق ، د ط ، 1997، ص 66.
- 36/ تمام حسان ، الأصول ، دار الثقافة ، 1411هـ، ص 250.
- 37/ عبد القادر عبد الجليل ، علم اللسانيات الحديثة أو السياق غير اللغوي أو السياق الخارجي ، أو السياق الحال ، ص 214.
- 38/ طاهر سليمان حمودة ، دراسة المعنى عند الأصوليين ، الدار الجامعية ، د ت ، د ط ، الإسكندرية ، 1982.
- 39/ بروان ويول ، تحليل الخطاب ، ص 53/52، محمد خطابي ، لسانيات النص، ص 54/52.

40/ ابن رشيق ، العمدة ، باب اللفظ والمعنى ، ج1،تح: محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الجيل ،بيروت ،د ط ،د ت ، ص 80.

41/ ابن خفاجة ، سر الفصاحة ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1402 هـ، 1982. ص 65.

42/ رجاء عيد ، فلسفة البلاغة بين التقنين والتطور ، منشأة المعارف ، الإسكندرية 1979، ص 147.

43/ جونز لاينز ، اللغة والمعنى والسياق ، تر:عباس صادق الوهاب ، مراجعة يونيل عزيز دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1987، ص 222.

43/ مصطفى حميد ، نظام الارتباط و الربط في الجملة العربية ، الشركة المصرية العالمية لنشر ، لنجمان ، 1998، ص 11.

44/ محمد مندور ، الميزان الجديد ، ج1، نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، يناير 2004، ص 142/141.

45/ ميخائيل نعيمة ، الغربال ، ط1، نوفل ، بيروت ، 1991.

46/ سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص 21، أنظر الإعجاز ص 69/162.

47/ إبراهيم أنيس ، إسرار اللغة ، مكتبة الانجلو مصرية ، ط6، مصر 1978، ص 184.

48/ صبحي صالح ، مباحث في علوم القرآن ، دار للملايين ، ط1، بيروت ، 1977.

48/ الرافي ، تاريخ آداب العرب ، ج1، مكتبة الإيمان ، ط1، 1997، ص 115.

- 49/ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، تعليق محمد رشيد رضا ، دار الكتب ، بيروت ، لبنان ، د ط ، د ت ، ص 171/94.
- 50/ محمد مبارك ، فقه اللغة و خصائص العربية ، دار الفكر ، ص 198.
- 51/ أحمد عفيفي ، نحو النص ، اتجاه جديد في دراسة النحو العربي ، كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، 2004، ص 279.
- 52/ أحمد منادي ، التلقي والتواصل الأدبي ، ص 183.
- 53/ تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ، دراسة لغوية و أسلوبية النص القرآني ، دار العالم للكتب ، ط 1 ، 1413 هـ ، 1993 ، ص 7.
- 54/ يوسف نور عوض ، علم النص ونظرية الترجمة ، دار الثقافة ، مكة المكرمة ، 1410 هـ ، ص 29.
- 55/ صالح الحاج يعقوب ، المقام والقرينة الحالية ودورها في المعنى ، منشورات دار الجمع الجزائري للغة العربية ، الجزائر ، 2007 ، ص 73.
- 56/ تمام حسان ، اجتهادات لغوية ، عالم الكتب ، ط 1 ، القاهرة ، 2007 ، ص 91.
- 57/ الفكر اللغوي الجديد ، عالم الكتب ، ط 1 ، القاهرة ، 2011 ، ص 106.
- 58/ تمام حسان ، مقالات في اللغة و الأدب ، ط 1 ، القاهرة ، 2011 ، ص 258.
- 59/ بهاء الدين عبد الوهاب عبد الرحمن ، الموازنة بين نظرية العامل ونظرية تضافر القرائن في الدرس النحوي ، مأخوذ في 23 أغسطس ، 2015.

- 60/ حسن طبل ، علم المعاني و الموروث البلاغي ، تأصيل وتقييم ، مكتبة الإيمان ، ط2 ، 2004 ، صص 8/7.
- 61/ محمد عبد المطلب ، البلاغة والأسلوب ، الشركة المصرية العالمية لنجمان ، القاهرة ، ط1 ، 1997، صص 55/ 56.
- 62/ الخولي محمد علي ، قواعد تحويلية للغة العربية ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، ط1 ، 1981، ص 68 .
- 63/ محمود السعران ، علم اللغة ، مقدمة للقارئ ، دار الفكر العربي ، ط2 ، القاهرة ، 1997، ص 35.
- 64/ جورج موانان ، علم اللغة في القرن 20 ، تر: نجيب غزاوي ، وزارة التعليم العالي سوريا ، د ط ، ص 202/203.
- 65/ الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية صيدا ، بيروت ، د ط ، ص 233.
- 66/ سمير شريف استيتبة، اللسانيات ، المجال والوظيفة والمنهج ، عالم الكتب الحديث ، ط2 ، 2008 ، ص 186/187.
- 67/ خليل أحمد عمايره، علم اللغة المعاصر، مكتبة المنال ، الأردن ، ط1 ، 1407هـ ، 1987 ، ص 56.
- 68/ مشال زكريا ، الألسنية التوليدية التحويلية، قواعد اللغة العربية "الجملة البسيطة" ،

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 1986، ص 17/16.

69/ نعمة رحيم العزاوي، مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة، المجمع العلمي، سنة 2001م، ص 193.

70/ يحيى عبابنة، علم اللغة المعاصر، ص 56.

71/ مجيد الماشطة، شظايا لسانية، دار الشباب، سنة 2011 ص 34.

72/ عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص 141.

73/ طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية، الإسكندرية، د ط، 1999، ص 18.

74/ محمود أحمد نخلة، نظام الجملة في شعر المعلقات، دار المعرفة الجامعية، د ط، الإسكندرية، 1991، ص 54.

75/ نعم تشو مسكي، البنى النحوية تر: يؤيل يوسف عزيز، مراجعة مجيد الماشطة، ط1، بغداد 1987م، .

76/ أحمد عبد السيد الصاوي، فن الاستعارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ص: 126.

77/ أحمد عبد السيد الصاوي، فلسفة البلاغة بين التقنية و التطور، الهيئة المصرية للكتاب الإسكندرية، ص: 158.

78/ نعم تشو مسكي، اللغة والمسؤولية، ترجمة: حسام البهسناوي، جمهورية مصر العربية

ط2، سنة 2005م،

79/ السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، مجلد 1، ط1، سنة 1407 هـ 1987م، ص: 218.

80/ إبراهيم خليل، اللسانيات و نحو النص، عمان، دار المسيرة، سنة 2007م، ص: 197.

81/ شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ط1، بيروت، لبنان، سنة

2004م، ص: 40.

المعاجم:

1/ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السمراي، دار ومكتبة الهلال، ج8، ص 166/165.

2/ أحمد بن فارس الرازي، معجم مقاييس اللغة، تح: إبراهيم شمس الدين، المجلد 2،

ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011، ص 567.

3/ إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، 1404هـ، 3هـ، ص 950.

4/ ابن منظور، لسان العرب، تح: خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث، ط1، 2008 الجزائر، ص 187.

5/ محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: نواف الجراح سمير شمس، دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، ط1، 2011 / ص 203.

6/ الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، ص 203.

7/ إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروط الدولية، ط4، 2004، ص 730.

مقالات :

1/ أبي الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج1، ص 241.

2/ الجاحظ، حجج النبوة، تح: إسلام عبد الرؤوف، ط1، ص 287.

3/ الأخصر الجمعي في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، من منشورات اتحاد، كتاب العرب دمشق، 2001، ص 171.

4/ بحث مقدم للمشاركة في المؤتمر، المصطلح اللساني الحديث عند علماء اللغة العرب المعاصرين التأصيل والتعريب، جامعة مونة، المملكة الأردنية الهاشمية في الفترة من 4/29
5/2 ، 129هـ

5/ جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر 2004، ص 454.

6/ عبد القاهر الجرجاني، أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، جامعة صفاقس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1998، ص 98.

7/ مجلة عالم الفكر، صدرت عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت مجلد 22 ، ع 3/4 ، من يناير إلى يونيو 1994 ، ص 177.

8/ جاسم وجاسم علي ، زيدان علي ، نظرية التقدير عند النحاة العرب والمسلمين، وأثرها في نحاة الغرب المعاصرين، مقال مخطوط قيد النشر، مجلة القصيم، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية .

9/ عليان سليمان، قواعد اللغة العربية، جامعة الملك سعود للنشر والتوزيع، الرياض، د ط، 2000
ص 5.

الفهرس

الفهرس

الدعاء

شكر وعران

الإهداء

مقدمة

مدخل

الفصل الأول: نظرية النظم

المبحث الأول: المفهوم اللغوي للنظم.....11-15

المبحث الثاني: إرهابات نظرية النظم.....16-24

المبحث الثالث: الإطار المرجعي لنظرية النظم في الحقول المعرفية.....25-59

الفصل الثاني: نظرية النظم عند الجرجاني

المبحث الأول: جهود عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم.....61-68

المبحث الثاني: جهوده في تحليل النصوص.....69-72

المبحث الثالث: أركان نظرية النظم وأسسها.....73-90

الفصل الثالث: نظرية النظم وآفاقها في الدراسات الحديثة

المبحث الأول: النظرية السياقية وتمثلاتها في كتابات عبد القاهر الجرجاني.....92_106

المبحث الثاني: أثر نظرية النظم في فكر المحدثين.....107-174

المبحث الثالث: مقارنة بين عبد القاهر الجرجاني ونعوم تشو مسكي.....175-202

خاتمة.....204

قائمة المصادر والمراجع.....209